لعنة الرغبة

تغريد إحسان



لعنة الرغبة

تغريد إحسان

الطبعة الأولى (يناير ٢٠١٧)

تصميم الغلاف: عبد الله رجب

المراجعة اللغوية: جهاد أبو زينة / رباب الشهاوي

التنسيق الداخلي: رباب الشهاوي / إسلام علي

مدير النشر: هند عبد الله (نور مانجا)

إشراف عام: رباب الشهاوي

رقم الإيداع: **2016/26564**

الترقيم الدولي: **978-977-6534-27-8**

دار الفؤاد للنشر والتوزيع

Alfouad_publishing@hotmail.com

facebook.com/fouadpublishing

لعنة الرغبة

(رواية)

تغريد إحسان





الأحـداث التـي سُردت في تلـك الروايـة مـا هـي إلا أحـداث مسـتوحاة مـن قصـص لأشـخاص حقيقيـة، قامـت الكاتبـة بدراسة الكثير من ملفـاتهم النفسـية، وتـم عرضـها في صـورة روائية.

كل الشكر والتقدير إلى الطبيب النفسي المعالج:

د. أحمد يحيى.



♥ إهداء ♥

إلى أساتذتي الذين لم يملوا يومًا أو يكلوا من إسداء النصائح لي وهُم كثير، لكنى سأخص بالذكر....

صاحب القلم المميز د. أحمد السعيد مراد

معلمي القدير أ. محمد البنا

أستاذي الفاضل. ماجد القاضي

والأقلام الشابة النابضة التي ساندتني دائمًا

د. حنان لاشين

محبوبة محمد سلامة

رحاب الخضري

سما محمود

حبيبة بدر

سارة محمد سيف

ألفت سلام

سمر أيمن

جروب (شخابيط وردية) وخاصة صابرين الديب

إلى من يملكون ذاك النبض الذي يسري بأوردتي، من يسكنون ذاك الكامن بين أضلعي،

أمي، أبي وزوجي الحبيب الذي كان له الفضل بعد الله في وجود الرواية بين أيديكم.

إلى حواء التي تحلم دومًا بالاحتواء ولم تجد، فاحتوت هي نفسها.

إلى التي تمنت يوما الأمان وصدمها الواقع، فتقوقعت على نفسها.

إلى كل أنثى ضلت سفينتها في بحر الحياة بحثًا عن مرسى...

الفصل الأول

*****

جلس على أريكته بامتعاض، التقط جهاز التحكم بالتلفاز، أخذ يقلب بلا هدفٍ، حتى وقعت عيناه على أحد البرامج الحوارية بإحدى القنوات الفضائية، مذيعة تتحدث عن تلك الواقعة التي يحققُ بها، وضع جهاز التحكم جانبًا، اعتدل في جلسته، رغم أنه يعلم ماذا ستقول، فجميع البرامج تقريبًا تتحدث على وتيرةٍ واحدةِ.

وكالمعتاد، قدمت المذيعة تعازيها إلى أهل القتيل، ثم عرضت بعض الصور بطريقة مشوّشة لتلك الجريمة التي تمت بإحدى الشقق السكنية بالمعادي، جثة اللواء مازن مكبلةٌ بالأغلال على كرسيٍ خشبيِ، مذبوح بسكين ومطعون عدة طعنات..

تتساءل أين الرحمة والشفقة؟ أين الإنسانية؟! أخذت تتحدث عن ذلك السّفاح، و الإرهابي الذي لا يمتلك ذرَّةً من الرحمة بقلبه، ولا بدَّ أن ينالَ جزاءه جرّاء ما فعل بهذه الطريقة الوحشية.

ثم ناشدت رجال الأمن بالقصاص العاجل منه، بعدما تسبب في أبشع جريمةِ قتلِ حدثت في تاريخ البشرية.

تمتم بعدة كلمات غير مفهومة، وبينما هو غارق في التفكير بتلك القضية اللعينة رنَّ هاتفه. أفاق من شروده، ونظر إلى الهاتف، فوجد المتصل أحد معاونيه، أجاب مسرعًا عَلَّ هناك جديد، لكنه للأسف أخبره ببلاغٍ آخر عن فتاةِ بأوائل العقد العشرين تم الاعتداء عليها، جسدها ممزق بآلة حادة، ووجدوا في مكان الحادث اسم مازن منقوشًا على جدار منزلها. انتفض من مجلسه مسرعًا، أغلق هاتفه وبدَّل ملابسه، بضع دقائق وكان أمام الباب، التقط أغراضه، وهرول مسرعًا ليرى ما الخطب وهو يتمتم:

ـ يا ابن الـ.... لو مسكتك هفرمك.

*****

صوت عربة الإسعاف تدوي في أرجاء المنطقة، يقف أحد أفراد الشرطة أمام البناية، ويمنع الجميع من الدخول أو الخروج، تجمعات من الأهالي في الشارع، كلٌّ منهم يهمس ويتمتم بكلمات غير مفهومة.

في الطابق الرابع يقف أحدهم لرفع البصمات، والآخر يبحث عن أي دليلِ إثباتِ لتلك الحادثة البشعة، وبالحجرة المجاورة فتاة بالعقد العشرين مُلقاة على الأرض، توجد آثار تقطيع في جسدها النحيل بآلةٍ حادةٍ في أماكن متفرقة منه، كلُّ شيء بالغرفة محطم؛ الزجاج، جهاز الحاسوب، هاتفها، أغراضها، جميعها ملقاة على الأرض، حتى ملابسها، وفي آخر الغرفة ناحية المصباح تم تعليق حبل، كأنه مشنقة، لكنها لم تُعلَّق به.

أخذ الضابط يتجول في أرجاء الشقة حائرًا من فعل هذا؟ ولماذا؟ لفت انتباهه بعض الخطوط المرسومة على حائط الغرفة، خطوط عشوائية غير مفهومة، وفي آخِر الخطوط مكتوب:

مازن النجار.. وعليه علامة «×».

وأسفل الاسم مكتوب: سيد (اللعنة لك)

وبين قوسين كُتب: د. مالك – نادين، ولم يُكتب شيءٌ بجوارهم.

أخذ الضابط يتأمل ويدقق النظر لتلك الكلمات، ثم فتح أجندته وكتب بها: مازن - سيد - د. مالك – نادين. وضع علامة استفهام، وعضَّ على شفتيه؛ فقضية مازن تزداد تعقيدًا كل يوم.

أخذ يسأل نفسه عدة أسئلة، ويحاول الربط بين مازن وزهرة؛ تلك الفتاة التي تم الاعتداء عليها اليوم، ولكن لا رابط بينهم.

مازن مساعد مدير أمن.. والثانية فتاة من المفترض أنها جامعية.

دَوَّن تلك الأسماء علَّه يجد منها بداية جيدة.

*****

كانت تقف على بُعد متر من باب شقة المجني عليها، الجارة نيرة، تراقب الأجواء، قلقة خائفة، الصدمة جعلتها غير قادرة على الكلام، ثم دخلت شقتها مسرعةً وهاتفت زوجها، لم تنطق إلا بــ:

ـ احضر فورًا.

وما إن التفتت حتى وجدت أحدَهم يقف على باب الشقة يريد التحدث معها، زادت ضربات قلبها وأغلقت الهاتف. توجهت إليه، وأخذ يستعلم عن الفتاة، هل تعلم عنها شيئًا؟ هل كان لديها سلوك غير سوي؟ هل كان يتردد عليها شباب؟ أين أهلها؟

لكنها لم تُجِب إلا بالنفي، مؤكدةً أن تلك الفتاة لم يكن لها اختلاط أو علاقة بأحد، وما تعلمه أن والديها قد تُوفِّيا، ولا تعرف شيئًا عمَّا حدث؛ حيث كانت بعَمَلِها وفوجئت بالخبر عند العودة.

شعر الضابط أنها تُخفي شيئًا ما، لكنه لم يُظهِر لها ذلك، لم يزِد في استجواباته، تركها وذهب.

وضعت يدها على جبينها، كاد الصداع أن يهشم رأسها، لا تدري ماذا تقول؟! وماذا تفعل؟! وانهمرت الدموع من عينيها كالسيل.

نقلت الإسعاف المجني عليها إلى المستشفى، فمازال قلبها ينبض، عَلِمَ الضابط حسام من حارس البناية أن زهرة سكنت الشقة منذ عام، وأكمل حديثه:

ـ والله يا بيه الست هانم ماشوفناش منيها حاچـة وحشة، أي نعم كان لِبسها استغفر الله العظيم يعني، لكن مكنش إلها أيّتها اختلاط بحد، كانت بتخرچ كَتير، الله أعلم بتروح فين، بس جَبل الحادثِة بساعة إكْدِه أنا سِمِعتْها بتصرخ، وعمالة تكلم حد وتزَعِّج فيه وتجول كلام مش مفهوم، حاولنا نخَبِط أو نِكْسر الباب معرفناش، كان الباب مجفول، ولغاية ما حاولنا نِكسره لجيناها سايحة فـدَمَّهَا زي ما حضرتك شوفت إكده، الله ينتجم م اللي كان السبب.

ثم استعلم عن تلك السيدة التي تسكن بالشقة المجاورة، علم أنها طبيبة أطفال، وزوجها دكتور بجامعة حلوان يُدعى مالك. ابتسم وعلم أن شكوكه في محلها،

فمالك اسم من ضمن الأسماء المدونة على حائط المجني عليها. حينما أنهى استجواباته وهَمّ بالانصراف- بعدما قام بتحريز متعلقات الشقة التي لها علاقة بالحادث- لفت انتباهه تلك السيدة المقيمة بالشقة المجاورة تتحدث مع شخص وهي منفعلة، لم يَظهر له مع مَن تتحدث، فقد حجب عنه الرؤية باب الشقة.. كان شبه مفتوح بما لا يسمح له بالرؤية الواضحة.

شكوكه التي راودته نحو تلك السيدة جعلته يذهب باتجاه شقتها، وعندما اقترب من الباب سمع صوتًا خافتًا، لكنه لم يحدد مضمونه، إلا أنه سمع جملة: «بلاش فضايح».

طرق الباب، فمسحت السيدة دمعتها وهدَّأت من انفعالها عند رؤيتها للضابط، بينما توجَّه زوجها لمقابلته محاولًا إظهار إبتسامة باهتة على شفتيه، وقال بلهجةٍ رسميةٍ:

ـ خير يا فندم؟

حاول الضابط استدعاءه ليتحدثوا سويًّا داخل شقة زهرة، أومأ برأسه بالإيجاب، وخرجا سويًّا، كل ما كان يهم الضابط في تلك اللحظة تعابير وجهه عند دخوله شقة المجني عليها، والتي لم تتغير، ثم وجَّه إليه بعض الأسئلة وحاول استفزازه.

انتاب د. مالك شعور بالضيق، والذي ظهر على ملامح وجهه من طريقة إلقاء الضابط لتلك الأسئلة، ثم أجاب:

ـ أنا حاسس من أسئلتك أنك بتوجه لي الاتهام.

وضع الضابط يده على كتفه وقال بابتسامة خبيثة:

ـ لا يا راجل، لا اتهام ولا حاجة إحنا بندردش بس، عمومًا فرصة سعيدة، وأكيد هنتقابل تاني عشان تحكيلي على الفضيحة اللي كانت بتتكلم عليها زوجتك.

رمقه د. مالك بنظرة غضب دون إجابة وذهب لشقته، حذَّر الضابط حارس البناية من دخول أحد إلى الشقة، وأعاد ترميم الباب وإغلاقه بإحكام.

جلس د. مالك بغرفة المكتب الخاصة به، شارد الذهن، يطرق بأنامله على المكتب يفكر فيما حدث وما سيحدث، ثم فتح الدرج وتحسس أجندة ذات لون أسود،

عليها بعض الزخارف الفضية، سحبها ثم فتحها ببطء وقعت عيناه على بعض الكلمات المكتوبة بخطٍّ مرتعشٍ.

«حياة رتيبة باهتة، ليس لها معنى، كم سئمت العيش فيها، ليتنى لم أولد، قيّدوني بالأغلال وسجنوني، جعلوني مسخًا، وحينما أردتُ الفرار حكموا عليّ بالإعدام، أشعر أن رائحة نجاستي فاحت، فاشمأز منها من في الأرض ووصلت رائحتها لأعالي السماء».

أفاق من شروده على صوت زوجته وهي تشكره على عدم البوح للشرطي بأي شيء يخص زهرة، ثم جلست على الأريكة وقد اغرورقت عيناها بالدموع، والتي سقطت رُغمًا عنها، وقالت بصوت مختنق:
- أنا مش عارفة كل دا حصل ليه؟!! وإيه اللي وصّلها لكدا، أنا مصدومة بجد، ربنا يقومها بالسلامة.

في اليوم التالي اقترب الضابط من سيارته ليستقلها الى مقر عمله بقسم الشرطة المجاور كالمعتاد، ممسكًا سيجارة وعدة مفاتيح بيد، وبالأخرى هاتفه المحمول، ليجد ورقة مثبتة على زجاج السيارة الأمامي مكتوبًا عليها (نادين – د. مالك).
تعجب كثيراً، مَن وضع تلك الورقة؟
ظلّ محدقًا باسم نادين، وسأل ثانيًا من تلك، ثم ابتسم بأن شكوكه جاءت في محلها بما يخص الدكتور وزوجته، وقرر مراقبتهما.
جلس بمكتبه يتمعّن ويدقق النظر في الورقة، أشعل سيجارة، وأمسك هاتفه، واستدعى أحد معاونيه، فهو يشعر أن هناك حلقة مفقودة، وأن السر يكمن مع من وضع الورقة على الباب.
ثلاث طرقات على باب المكتب ثم فتحه المعاون، وبلهجة روتينية:
ـ تحت أمرك يا باشا.

أشار إليه بالجلوس، وعرض عليه الورقة التي وجدها، وظلَّا يدققان في التفاصيل والأحداث، وقررا استدعاء سكان العمارة لأخذ أقوالهم، والذهاب لزهرة في المستشفى وتفقُّد حالتها لاستجوابها.

*****

ـ إنتِ يا بت يا ندى، تعالى رصي معايا الوَكِل، وناولينى الطباج دي، وكمان هاتي الورج بتاع الـچورنال ده، إخلصي يا بت، إلهي تتشكي في مصارينك.

لفت نظرها اسم زوجها بأحد الأخبار، فأخذت تقرأ ببطء شديدٍ، وتتهجى الخبر، فلديها خلفية لا بأس بها عن القراءة وحروف الهجاء، ثم هتفت:

- إلحج يا فتحي، دول نزلوا خبر الست هانم وكمان منزلين اسمك وأجوالك، والله وبجيت مشهور يا فتحي، يا حلاوة يا ولاه.

- طب اجريلنا يا فصيحة مكتوب إيه، ولجوا اللي عمل العملة السودة دي ولا لسه، ومالك فرحانة إكده، دي حادثة مش فرح، إخلصي يا ولية خلينا ناكل بلاش غم عالصبح، چاهم الجرف، إحنا مش ورانا م العمارة دي غير النصايب.

*****

علموا من الطبيب أن زهرة أصيبت بحالة عصبية أفقدتها النطق، تظل مستيقظة شاردة ببصرها ثم تنهار باكية، ويتم إعطاؤها أدوية مهدئة.

جلسوا حولها، أمسك عمها يديها، والدموع حبيسة في عينيه وهو يحدثها:

ـ زهرة قومي، حبيبتي أنا آسف يا بنتي، أنا لو أعرف إن كل دا هيحصلك مكنتش سيبتك، إنتِ كنتِ أمانة عندي وأنا محافظتش عليكِ، إنتِ ليه مقولتليش؟ ليه معرفتنيش؟ أنا خلاص رجعت، وهفضل معاكم طول العمر، قومي بقى واتكلمي، كريم حكى لي على اللي حصل، وأنا سبت اللي في إيدي وجيتلك، سنة كاملة وأنا معرفش عنك حاجة بندور عليكِ، خلاص حبيبتي معدش فيه خوف ولا بهدلة، من النهاردة كلكم هتعيشوا في حمايتي أنا.

ظلَّ يحدثها طويلًا، ولكن بلا فائدة، بكت ثم انهارت. جاء د. آسر، الطبيب المسؤول عن حالتها، وأعطاها حقنة مهدئة، ثم أخرجتهم الممرضة خارج الغرفة، ومنعتهم من الحديث ثانية حتى تهدأ حالتها وتستقر.

*****

كاد أن يُغشى على نيرة من كثرة الأسئلة والضغط النفسي، حاولت حبس دموعها، ظلت على موقفها أنها لا تعلم شيئًا عمّا حدث، ولا تدري من فعل بها ذلك.

- خرجت معاكِ قبل الحادث ب ٣ أيام ومرجعتوش غير متأخرين، وروحتي زورتيها فالمستشفى ليه وإنتِ مالكيش علاقة بيها؟

حاولتْ كبحَ جماحها وكظمت غيظها، ثم أجابته بحدة تعبر عن ضيقها الشديد من تلك الضغوط التي يمارسها عليها من دون أي دليل اتهام واحد، لماذا يطاردها ويراقبها ويتهمها لمجرد أنها خرجت معها مرة، أو ذهبت لزيارتها بالمشفى؟! أهذه هي الأدلة الجديدة في القانون؟! أم أنه وجد بصماتها في الشقة أو هي من شرحت جسدها؟ ثم أكملت بضيق:

- لما تلاقي عليّ أي اتهام احبسني، حضرتك عندك أي أسئلة تاني؟ ولا أستأذن عشان عندي شغل؟

عضَّ الضابط على شفتيه ثم هز رأسه بامتعاض، وأجاب بالنفي ثم سمح لها بالخروج معتذرًا إن كان قد سبّب لها بعض الضيق، ولكن روتين العمل يحتِّم عليه ذلك.

حملت حقيبتها، وتنفست الصعداء بعد خروجها من الغرفة، نظرت لزوجها وهو جالس على الأريكة منتظرًا دوره في الاستجواب، وما إن رآها حتى وقف وتقدم خطوتين، سألها عمّا حدث، لم تستطع الرد عليه، فقد نادى الصول على اسمه لاستكمال التحقيق.

سارت نيرة مسرعة كأنها تريد الخروج من هذا المكان بأقصى سرعة، لكنها أخذت تبطئ في مشيتها عندما رأت إحداهن قادمة. تصاعدت ضربات قلبها، فلو كان

باستطاعتها لجذبتها من شعرها ولكمتها حتى سالت دماؤها كما سالت دماء زهرة.
مرت بجانبها وقد رمقت كل منهما الأخرى بنظرة استحقار، تذكرت آخر موقف جمع بينهما قبل الحادث، وكان سببًا في شجارٍ عنيفٍ. لم تتمالك نيرة نفسها في ذلك اليوم ونعتتها بأقبح الألفاظ، ودعت الله أنْ ينتقم منها، لكن سوزي ابتسمت بسخرية ولم تجب عليها، صعدت لشقتها وأغلقت الباب بقوة ليخترق صدى الصوت أذُن نيرة. هبطت نيرة على الدرج وهى تتمتم بكلمات غير مفهومة.

جلست على الأريكة منتظرة دورها، فتحت حقيبتها أخرجت مرآة صغيرة، نظرت إليها لتعيد ترتيب خصلات شعرها ذي اللون الأشقر، ثم أعادتها مكانها في الحقيبة مرة أخرى.
د. مالك أخذ يسرد علاقته بزهرة، وأن لا علاقة لها بأحد، ولا يعلم عنها شيئًا سوى أنها فتاة ريفية، جاءت إلى المدينة من أجل طلب الرزق والدراسة، وعلى حدِّ علمه أنها تدرس في كلية الألسن، وتعمل أحيانًا بمجال الصحافة لشغل وقت فراغها، ولكن لا يدري بأي جريدة.
لم يكن بينهم أي تعامل سوى الاطمئنان على حالها إن رآها صدفة على الدَّرَجِ، وفي إحدى المرات بعد عودتها من الخارج كانت شبه منهارة، وحالتها النفسية ليست جيدة بالمرة، دعتها زوجته للجلوس معهم، وبحكم عمله كطبيبٍ نفسيَ حاول الحديث معها، لكنها لم تنطق بكلمة واحدة، أعطاها أجندته وقلمه وطلب منها الرسم أو الكتابة، علَّهُ يعلم ما خَطْبها، كتبت جملتين، لكنه لم يفهم منهما شيئًا. طلب منها كتابة مذكراتها مادامت الكتابة هي متنفسها الوحيد، وستُخرج عن طريقها أكبر قدر من الطاقة، وبعد الكتابة تقوم بتقطيعها وحرقها، وهكذا تكون قد تخلصت من معظم المشاعر السلبية التي تسيطر عليها وتجعلها في حالة الانهيار تلك. أما عن الخروج سوية قبل الحادث بخمسة أيام، فقال إن زوجته

قلقت عليها بعدما ظلت يومين كاملين لا يعلموا عنها شيئًا، قامت بطَرْقِ الباب، وعَرَضَتْ عليها الخروج للتنزه معهم، وفي تلك الأثناء أعطاها مفكرةً ذات لونٍ ورديٍ، وقلمًا، وطلب منها كتابة المذكرات فيها.

نظر له الضابط بتعجب:

ـ بس إحنا ملقيناش أي مذكرات ولا أجندات!!

ـ لا، كانت موجودة وكتبت فيها، لأن زوجتي تاني يوم كلمتها قبل الشغل وقالتلها إنها بتكتب.

ـ أنا عرفت إنها خرجت تاني قبل الحادث بيوم، بس لوحدها ورجعت متأخر.

ـ أنا بجد معرفش أي حاجة أكتر من اللي قولته، وأكيد لو لقيت المذكرات دي هتعرف منها كل اللي عايز تعرفه.

شكره الضابط على حسن تعاونه، وأَذِنَ له بالخروج، وأمر بدخول مدام سوزي لأخذ أقوالها.

بعد التحية ابتسم لها متسائلًا عن مدى علاقتها أو معرفتها بزهرة، فهو علم أنها تصعد لها كثيراً، وعلى صداقة معها.

أمسكت خصلة صغيرة من شعرها ولوتها على أصبعها وهي تستمع في عدم اهتمام ثم أجابت:

ـ صداقة إيه اللي بيننا؟ دي مجرد بت خدامة، كل الحكاية إنها بتطلع عندي مرتين في الأسبوع تخدمني وبس.

تعجّب من ردها، كيف لها أن تقوم بالخدمة في المنزل، وهي في الأساس تعمل في مجال الصحافة.

ضحكت ضحكة استهزاء:

ـ صحفية مين يا باشا؟! دي بت معاها ثانوية عامة، ولسه يا دوب بتفكر تدخل كلية، وبتدور تجيب فلوسها منين، تلاقيها بتشتغل سكرتيرة ولا عاملة نظافة، دا أنا حتى فكرت أشغّلها معايا في الكباريه أهو اكسب فيها ثواب. والله يا باشا أنت

تاعب نفسك، ما هي مفهومة، واحدة ساكنه في بيت لوحدها، ولا حد عارفلها أهل ولا قريب، يبقى عايز حكايتها تكون إيه؟؟!

ثم نظرت إلى هاتفها والتفتت إليه باسمة تعتذر، فعندها أكثر من موعد لا بدَّ من اللحاق بهم.

أذن لها بالخروج ممسكًا قلمه، وأخذ يطرق به أكثر من مرة وهو يتساءل:

ـ أَين الأجندة؟!!

**** ** ****

الفصل الثاني

*****

أوصد الباب خلفه بالمفتاح، اقترب من الشرفة، مد يده فأغلق مصراعيها قليلا دون ان يغلقهما، جلس على الأريكة واتَّكأ على الوسادة التي بجواره، مسح بكفه على الأجندة ثم فتحها، وبدأ في قراءة ما فيها:

«هل يمكن أن نكتب عن أوجاعنا قبل أن نشفى منها! وأن نلمس جراحنا التي تنزف علَّنا نداويها ونطفئ لهيب قلوبنا ونضمد جرحنا؟ سأسترجع الماضي، فهو بالنسبة لي كظلامٍ دامسٍ، ذكريات تتدفق أمامي، فالصور جميعها كمخطوطات باللون الأسود، ذكريات مؤلمة موجعة، كلما قررت الكتابة عنها أجد قلمي يخط الحروف بيدٍ مرتعشةٍ.

لكنني سأكتب بلا تردد، سأقف عند كل مأساة وأضع بها لمسة، علَّ أحدهم يقرأ ويفكر، ولا يأتي عليه يومٌ مثلي ليقولَ: (اشتقت إلى نفسي القديمة).

كلمات حينما تطرأ على ذهني تدحرجني إلى الماضي السحيق، فبين كل حكايةٍ وأخرى يضعني القدر في ساحة ليست بها حياة أو موت، لكنها ساحة مليئة بالألم.

فالأحداث تجري سريعة أمام عيني وقدري يأخذني كل ساعة إلى منحنى جديد، يفاجئني بظلامه وبضجيجه الاعتيادي، الذي يدخل إلى أعماقي رُغمًا عني ليختلسَ شيئًا منِّي ولا يُبقِ لي سوى الجرح العميق.

لا أدري من أين أبدأ؟ ومن أين أسرد؟ لكن سأتحدث الآن عن الخوف الذي قتلني، الخوف الذي بدد براءتي وأدماني.. ذلك الخوف اللعين حينما يتملكنا يحولنا إلى أشباه بشر، نعيش في كون مظلم. لوثت براءتي بيدي، ودمرت طفولتي.

ما أقسى أن يتسرب إليّ الوجع من الصمت، فلا صمتي يسرني، ولا أنا على البوح قادرة. وما أقسى أن يكون الأهل هم مَن يزرع هذا الخوف.

تغرّبتُ كثيراً عن نفسي، وما أقسى أن تكون الغربة عن النفس.

ليتني تعلمت كيف أقول: لا، أو أن أرفع صوتي لأصفع من تجرّأ على طفولتي وجعلني أكره تلك الحياة. كثيراَ ما أردت أن تتحول أظافري إلى مخالب لأغرسها بعنقه وأتركه يسبح في دمه لكنني لم أستطع ولم يكن أمامي إلا الصمت، وكلما زاد صمتي زاد تجرّؤه عليّ، وكيف أتكلم وأمي أول من كتم صوتي بحديثها الدائم أن الفتيات لا يحق لهن الكلام، وإن تحدثت يومًا أو تجرأت فهي عديمة الحياء.

كثيراَ ما كانت تردد في وجهي: «يا مخلفة البنات يا شايلة الهم للممات»، لا أدري ما دافعها لذلك، لا أدري لماذا تصر على تكميمي وتلجيمي؟! لماذا تكرهني إلى هذا الحد؟! أليست أنثى مثلي؟ أليست فتاة هي الأخرى؟

كنت أتمنى يومًا الصراخ في وجهها، كفِّي لقد سئمت العيش في عالم الخوف، كل يوم تسقينني من ذلك الكأس إلى أن أصبحتُ بكماء.

لا أريد الحديث كثيراَ عن تلك الصرخات التي كانت تطلقها أمي حينما تتطاول يد أبي عليها أو يهينها، هي أيضًا كانت تصمت وتستسلم من أجل العيش، أي معيشة هذه التي تريد أن تصبر وتتحمل من أجلها، كل منّا يصمت حينما يكون الأضعف، وأكبر جُرم نرتكبه هو خضوعنا للصمت حتى يصل بنا الحال أن مجرد الكلمة ليست من حقنا، فكم هو مؤلم هذا الشعور؛ الخرس والبكاء الداخلي.

أمي لم تكن تلك الأم التي تتمناها أي فتاة، لم تهتم بي يومًا، أو تعرني اهتمامًا، كل ما يشغل بالها هو العمل، وكيف توفر لنا فرصة العيش، لم أتذكر يومًا أنها جلست بجواري تحدثني أو تطمئنني، أو حتى تسألني عن دروسي وواجباتي. حتى أبي لم أره إلا مرتين في اليوم، وقت الطعام، ووقت النوم، وكأن ذلك المنزل هو فندق مخصص لراحته، وكأن من فيه هم خَدَم له.

الشارع كان مأواي، نعم كنت أهرب إليه كثيراَ، ألعب وأضحك مع جيراني وأصدقائي، لم أدرِ كم مضى من الوقت في الشارع، حتى أمي لم تدرك ذلك، فلو تذكرت لبرهة أن لها ابنة ووضعتها بجوارها، لما تجرأ عليّ أحدٌ، أو تسلّل إليّ بيدٍ خفيّة ملعونة.

نلعب كعادتنا، نمرح ونضحك، لا فرقَ بين صبيَ وفتاةٍ، ولكن لم أدرِك يومًا أنني كبرت إلا حينما جذبني أحدهم بحجة اللعب، كنا نختبئ من بعضنا، والأفضل من يجدنا أولًا، إختبأتُ مع أحدهم وأنا أضحك وأهمس:

ـ محدش شافنا.

فإذ به يحتضنني أكثر بحجة الاختباء، أخذ يتحسس جسدي، ازدادت ضربات قلبي ولم أدرك ماذا يفعل ولماذا؟! ولكنني فررتُ وركضتُ إلى المنزل مسرعةً، وكل عضلةٍ في جسدي ترتعش.

لم تشعر بي أمي، ولم تسألني ما الخطب، فكانت منهكة من العمل طوال النهار، فهي تعمل بالخدمة في المنازل لتعودَ لنا آخر اليوم بلفافةٍ بها طعام وبعض النقود تضعها في حجر أبي؛ الذي يعمل بالحدادة، لديه محل خاص به يأخذ أخي للعمل معه ليوفرَ أجرةَ عامل، علَّمه فنون وأسس العمل، واعتمد عليه في كل شيء.

جلست أمام التلفاز لأنسى ما حدث، وليس للعقل أن ينسى، وليس للقلب أن يقف عن الشعور بالخوف، ولكن لماذا صمتُ لا أدري. فكرت كثيراَ بأن أصارح والدتي أو أذهب وأحكي لوالدته علَّها تلقنه درسًا في الأخلاق، وفي النهاية قررتُ سرد ما حدث لأمي، علَّني أجد عندها الأمان، ولكن أي أمان أتحدث عنه؟! وأي احتواء كنت أعتقد به!! كلمات المصارحة على طرف لساني، أريد البوح بها، استجمعت قواي أكثر من مرة لكن الكلام يقف على طرف لساني. وما إن نطقتُ كلمة أمي حتى وجدت شجارًا في الحارة، وصوت سيدة تلعن وتسب، نظرت من الشرفة، فإذا بإحداهن تمسك صغيرتها وهي تصرخ بأحد التجار، وترسل تهديدًا ووعيدًا إذا تعرض لفتاتها مرة أخرى فسوف تنهش لحمه وستبرحه ضربًا وستقاضيه.

غمرتني السعادة كثيراَ، وتخيلت أمي وهي تنعت ذلك الشاب الحقير، إرتسمت الابتسامة على شفتاي وقد قررت القرار الحاسم وتشجعت اللجوء لها دون خوف، لكن يا حسرتاه، فما كنت به كان حلمًا، استيقظت منه على كلمات أمي التي

تعتب على تلك السيدة، وكيف لها أن تفضح ابنتها بتلك الطريقة، وظلت تتحدث عن ابنتها وطريقة لبسها وتمايعها أنها تضحك مع هذا وذاك.

كانت تلك الكلمات كفيلة بأن تلجمني للأبد، صرخة مكتومة، ثورة عارمة بداخلي، أريد أن أقول بأعلى صوتي، كيف لكِ أن تتحدثي هكذا وابنتك في مثل موقفها؟! كتمت دموع عيني، نظرت إلى الطعام وشردت فيما حدث، تساءلتُ لماذا يفعلون بنا هذا؟! لماذا يحاولون تلويث براءتنا وكسر طفولتنا؟! كيف لي بعد الآن أن ألعب وأجري كالسابق؟! كيف لي أن أشعر بالأمان وقد كان الشارع ملجئي الوحيد؟! ففي البيت تسلّط أب وأخ لا يكلّان عن إعطاء الأوامر، ولا يملّان من كثرة الطلبات.

كثيراً ما توسلت لأمي كي تسمح لي بالذهاب معها لمساعدتها، كانت ترفض، ولكن بعد توسلات عدة وافقت، ففي ذلك اليوم كانت منهكة، ووافقت كي أساعدها. فرحة عارمة تملكتني، كأني سأفرّ إلى عالم آخر أشغِل به وقتي، وأبتعد عن ذلك الذئب الذي حاول إيذائي أكثر من مرة؛ ذلك الشخص ابن صديق والدي، وصديق أخي؛ فهو يصغره بعام، يأتي إلينا كثيراً بحجة الجلوس مع أخي، ولكن كلّما رآني بمفردي تعمّد تلويث براءتي، جعلني أتقوقع على نفسي، صرت أخشى الحديث مع أي شخص، حتى بمدرستي أصبحت أكثر صمتًا، جلست في المقاعد الخلفية، ابتعدتُ عن كل زملائي، حتى معلمي الذي يحتل مكانة كبيرة في قلبي، جسدي يرتعد حينما يقترب مني ليفهمني مسألة.

انتفض جسدي حينما وضع يده على كتفي وابتسم يشجعني في الفصل، أنا الآن بالصف الأول الإعدادي، ولكني أشعر أنني كبرت عدة أعوام على عمري، لم أعد أثق في أحد، حتى أبي وأخي أصبحت أخشى الاقتراب منهم.

وصديق أبي هو الآخر كرهته، كثيراً ما كنت ألعب وأمزح معه، أظل أقفز حوله وأحتضنه، صغيرة كنت ولم أدرِ شيئًا، ولكن الآن شعرت أن الجميع نواياهم غير آدمية، إن غفوت ولو للحظة سيتحولون فجأة إلى ذئاب مفترسة تلتهمني.

قررت أن أساعد أمي وأجتهد علّها تأخذني كل مرة، فرحَتْ بي كثيراً، واعتدتُ الذهاب معها كل يوم أقضي حاجتها وأساعدها، وحينما انتهي من مهماتي أجلس في المطبخ أستذكر دروسي حتى يأتي موعد المغادرة، ثم أعود منهكة وأغط في نومٍ عميقٍ.
كم كنت قاسية الحكم عليها، علمت حينها كم تجاهد من أجلنا، هي الأم الأجمل على الإطلاق، تقرَّبتُ منها كثيراً، كنتُ أُحادثها طوال الطريق استمع لها ولحكاياتها، وكيف كانوا قديمًا يعاملون الفتيات بلا رحمة، ليس لهن الحق في شيء، كانت تتمنى يومًا أن تتعلم، لكن جدتها رفضت بحجة أن المدارس تعلم البنات فساد الأخلاق. تحدثنا عن أبي، وكم كانت تحبه وتهواه، وكم كانت الحياة قديمًا مليئة بالحب والحنان، ولكن بعدما قام ببيع كل ما يمتلكون من أجل ذلك المشروع الذي نَصب عليه أحدهم ووهمه أنه سيكسب ذهباً، ثم نهب كل ما يملك وقد تبدَّل حاله، أصبح سريع الغضب وكثير الإهانة، لذلك خرجت للعمل. فالرجل لا يوجعه أكثر من شعوره بعدم القدرة على سد حاجة بيته، أو أن يرى أبناءه يشتهون شيئًا وهو غير قادر على العطاء.
على الرغم من أنها كانت تتحدث معي، لكنها أيضًا لم تستطع التخلي عن تلك العادات القديمة والموروثات الخاصة بالفتيات، فعاملتني كما كانت تُعامل، وهذا ما كنت أكرهه فيها، على قدر ما اقتربت منها، إلا أن حديثها عن كُرهها للفتيات لم يتغير، وذلك الكأس الذي تحمله معها دائمًا وتتجرع منه وتسقيني أنا الأخرى لم ينتهِ، ولهذا علمت أنني سأظل فريسة سهلة لمن يريد، ولن أستطيع الدفاع عن نفسي.
عملت مع أمي شهرين كاملين دون كلل أو تعب، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، ويالحظّي الذي ألقى بي في النار قذفًا مرة أخرى. ففي إحدى المرات أثارني الفضول لدخول لتلك الغرفة المغلقة، كانت تحذرنا كثيراً من الاقتراب منها، تعمدتُ دخولها في عدم وجود صاحبة المنزل، أضأتُ المصباح، إنها غرفة مكتب،

تعلوها الأتربة وخيوط العنكبوت من كل مكان، عجيب أمرك أيتها السيدة!! لماذا تغلقها هكذا وتمنع أحدًا من الدخول؟!

لفتَ انتباهي تلك الـمِزهرية الموضوعة في أحد الأركان بالغرفة، اقتربت منها وحاولتُ إزالة الأتربة، حملتها بين راحتيّ بحرصٍ شديدٍ.

مزهرية كبيرة زرقاء فارغة، عليها بعض النقوش الذهبية لأشكال فرعونية، شكلها رائع حقًّا، غصت بتفاصيلها، وإذ بصوت خلفي أرعبني:

- إنتِ بتعملي إيه هنا يا بت؟!!

طاحت المزهرية من يدي وتناثرت أجزاؤها، زاد غضبها، وإذ بها تصرخ بأعلى صوتها، تنادي أمي وتلقيني أمام قدميها، وقد توعدتْ لي إذا رأتني مرة ثانية بالمنزل ستطلب لي النجدة وقررت خصم ثمنها من أجرة أمي، حتى أنها نهرتني وركلتني، لم أغضب منها.. أنا المذنبة.

ظلت توبخني إلى أن عدنا للمنزل، ولم تكتفِ بذلك، فقد جعلت أبي يُسمعني وصلة من التوبيخ تدمي القلب، حبستني بالمنزل، وقد أخذَتْ عهدًا على نفسها ألَّا تأخذني مرةً أخرى إلى أي مكان.

عدتُ للشارع مرة أخرى، وكلما توسلت لأمي أن تأخذني معها تصرخ بوجهي أني كنتُ سببًا في استقطاع جزء كبير من مرتبها، وتظل تَعُد لي مستلزمات المنزل؛ والتي تحتاج إلى أضعاف مرتَّبها.

جلستُ على الأريكة وعاتبت نفسي كثيرًا وأنَّبتها، امتلكني الحزن على حال أمي، والتي كبرت عشرة أعوام على عمرها، عباءتها البالية التي كلما تمزق منها جزءٌ قامت بحياكته لتوفر على نفسها شراء عباءة جديدة، وجهها الذي ملأته الكثير من التجاعيد، يدها التي لم يعد بالإمكان التفرقة بينها وبين يد أبي، فقد توارت أنوثتها خلف زمنٍ غدر بها، ورجلٍ قَهَرَها. خطرت ببالي فكرة؛ ذهبتُ واستخرجتُ أربعين جنيهًا من خزانتي، كنت أدَّخرهم من أجل شراء ملابس جديدة، كل يوم أدَّخر مصروفي حتى اشتري ما يحلو لي. قررت الذهاب إلى أحد المحلات التجارية وشراء مزهرية أخرى، علَّ أمي تصفح عني وتجعلني أعود للعمل معها مرة

أخرى، انتهزتُ فرصة خلو المنزل وخرجت مسرعة إلى الشارع الرئيسي، تجولت في أكثر من محل، حتى لفتت انتباهي مزهرية مشابه لها، لكن بلونٍ مختلفٍ، وضعت يدي بجيبي، ثم ولجت إلى المحل، ألقيت نظرة على المعروضات، ثم توجهت ناحية المزهرية، تحسستها وشعرت بسعادة بالغة أنني سأشتري واحدة مثلها، حينها وجدتُ صاحب المحل ينظر إليّ بامتعاضٍ شديدٍ، ويقول بلهجة غريبة:

- عايزة إيه يا كتكوتة، الحاجات هنا غالية عليكِ قوي، لو عايزة تشتري لعب هتلاقي في المحل اللي قدامي.

نظرت إليه بحدَّة ورمقته بنظرة غضب، كيف لك أن تحدثني هكذا، معي نقود وسأشتري بها، فيجب أن تحترمني وتعاملني باهتمام، فأنا لم أطلب منك نقودًا أو طعامًا كي تعاملني بهذه الطريقة، دار ذلك الحديث بيني وبين نفسي، ولكن -في الحقيقة- أصابني بعضُ الخوف، ولم أستطع الرد عليه، وبدأت أتلجلج، ثم قلت له بصوت خافت:

- عايزة أشتري....

أصدر ضحكة، وبلهجة سخرية:

- وعايزة تشتري إيه بقى؟؟!

أخرجتُ النقود من جيبي ووضعتها أمام عينيه، وأشرتُ إلى المزهرية، ضحك ضحكة عالية، ثم أخذ منِّي النقود وأخرج من خزانته تحفة صغيرة لا تتعدى الخمسة سنتيمترات لامرأةٍ بدويةٍ تحمل صغيراً على ظهرها، وعلى رأسها وعاء به فاكهة، ثم اقترب مني وقال:

- أهي دي بقى بالفلوس اللي معاكِ يا قطقوطة، إنما الزهرية دي بـ ٩٦٠ جنيه.

شهقتُ ووضعتُ يدي على فمي ورددت بداخلي ثمنها، ياالله لها حق أمي أن تغضب مني كثيراً، فذلك المبلغ سيخصم من مرتبها على مدار شهور، وهي في أمَسِّ الحاجة لجنيهٍ واحد، كيف لها أن ترتب مستلزمات المنزل، أعطيتُ الرجل تحفته وأعدتُ نقودِي وخَرجت من المحل أفكر.. ماذا عليّ أن أفعل؟! وكيف سأرد

لأمي ذلك المبلغ الباهظ، فكرت كثيراَ حتى اهتديت إلى شراء بعض السلع لبيعها والكسب من ثمنها.. وهكذا، حتى أستعيد جزءاَ من المبلغ أسُدد به جزءاً بسيطًا من مستلزمات المنزل مع أمي.

اشتريت بعض أربطة الشعر والأمشاط ووضعتهم في كيسِ بلاستيكيٍّ أسود اللون، وهرولت إلى البيت، فلم يبقَ على عودة أمي إلا دقائق معدودة، ولا أريدها أن تعلم شيئًا عمّا سأفعل، عدتُ سريعًا، طرقتُ الباب عدة مرات لكن لا إجابة، وضعت رأسي على حافة الحائط وأنا أطرق الباب مجددًا، حتى وجدتُ أنفاسه من خلفي يحدثني:

ـ وحشتيني.

انتفض جسدي واستدرت لأجده يحوطني، اقترَبَ مني أكثر حتى لم أجد منه مفراَ، لا أدري لماذا لم أصرخ؟! لماذا أصمت؟! أأخشى من الفضيحة؟!!

شُلَّت يداي، أنفاسه كالقيد يكممني ويداه التي تتحسس كل موطن في جسدي كالسوط تجلدني وهو يهمس في أذني بأروع كلمات الغزل وأحيانا أقبحها. لم أتحمّل كثيراَ حتى استجمعت قواي وأبعدته عني وأنا أتوعَّده إذا اعترضني مرة أخرى فسيكون جزاؤه عظيمًا، لم يحاول مضايقتي لكنه أخرج من جيبه عشرين جنيهًا وأعطاني إياها، ثم قال:

ـ هديكي قدهم أضعاف بس ماتفتحيش بقك بكلمة.

ثم هبط مسرعًا، ألقيت النقود أرضًا، وأخذتُ أسحقها بقدمي وأنا ألعن تلك الرغبة التي سحقتني ودمّرت طفولتي.

جلست على الدَّرج أبكي، أريد أن أصرخ، أريد أن أصيح بأعلى صوتي وأقول:

ـ أنا إنسانة، من حقي الحديث، من حقي الشكوى، من حقي أن أقول بأعلى صوتي لا، من حقي أن يُحترم كياني.

مسحت دموعي مسرعة حينما سمعت دبيب أقدام أمي على الدَّرج وهي تتنهد وتعد نقودها وتتحدث مع نفسها، حينما رأتني لم تُعرني أي اهتمامٍ، فقد قاطعتني وامتنعت عن إعطائي مصروفي الخاص، لم أنتظر منها كلمة، ولو أنني

تمنيت أن أرتمي في أحضانها وأبكي، أريد أن أشعر بالحنان، أريد أن أشعر بالاحتواء، ارتميت بين أحضان سريري، احتضنت وسادتي وبكيت كثيراً حتى غُصتُ في نوم عميق.

شعرت بشيء ما يسري في جسدي، وكأن أحدهم يتحسسه، يتمادى أكثر فأكثر، استيقظت فزعةً، ودقات قلبي تتسارع منافسة صوت فرقعات عجلات قطار منطلق بأقصى ما عنده، حينما رأيت أخي أمامي ممسكًا بالغطاء. سحبته من يده وأنا أحدثه بغلظة:

ـ إنتَ بتعمل إيه؟!

أجاب بابتسامة:

ـ لقيتك مكشوفة كنت بغطيكِ، عايزة أعملك حاجة؟!

ألقيت الغطاء على وجهي وأنا أقول بغضب:

ـ ملكش دعوة بيا وروح نام.

وبداخلي يصرخ ماذا تريدان مني؟! أحدِّث نفسي، أنا في كابوس أم حقيقة؟! أحقًّا أخي هو من كان يتحسس جسدي أم أنه كابوس تسرَّب إليَّ من أفعال صديقه القذرة؟ أردتُ أن أطرده من الغرفة، ولكن كيف وفراشنا واحد، قديماً كان ينام بجواري؛ فمنزلنا ضيق للغاية، غرفتان صغيرتان؛ واحدة لنا والأخرى لأبي وأمي ولا تتسع الغرفة إلا لسرير وبعض الصناديق التي نضع بها ملابسنا، وبين الغرفتين نضع أواني الطهي وأنبوبة غاز صغيرة موصَّلة بشعلتين لطهي الطعام، أما عن دورة المياه؛ ففي ركن صغير بنى أبي حائطًا كي نحتمي خلفه أثناء قضاء حاجتنا.

كثيرا ما قالوا لأمي:

ـ ابنك كِبر، مينفعش ينام مع بنتك في أوضة واحدة.

لكن أمي لم تهتم، ترى أن ابنها على خلقٍ عالٍ، وأن ابنتها مازالت صغيرة، ولكن لا، أنا لم أعد صغيرة، وليس من حقه النوم بجواري، ومنذ أن بدأ ذلك الوغد مضايقتي وأنا أجعله ينام أرضًا.

ولكن الحق يُقال فما رأيت منه أي فعل مشين قط، بل هو أحن الناس وأقربهم إلى قلبي، فكيف له أن يؤذيني، خلدتُ إلى النوم وأنا أردد اللعنة لك أيها الوغد، اللعنة لذلك الكابوس السقيم الذي خلّفه لي عقلي الباطن؟!

استيقظتُ في اليوم التالي والكسل قد امتلكني، لا أستطيع النهوض.. حزينة.. أشعر أن شيئًا ما بداخلي قد كُسر، ولكن استعدت نشاطي، فقد تحديت نفسي بأنني ملتزمة بالمساهمة بمبلغ على الأقل لسد بعض حاجاتنا الأساسية. نهضت مسرعة، ولكن مازال أبي وأخي بالمنزل، يا إلهي، كيف لي أن أخرج، ابتسمت لهما وسألتهما هل يريدان شيئًا أفعله؟! ابتسم أبي وطلب أن أحضِّر الطاولة، فهو يريد الإفطار معنا، وضعت الطعام عليها، ولأول مرة أجده يسألني هل ينقصني شيء؟ هل أريد مالًا؟ هل أشعر بضيق من أمر ما؟

لم أصدق ما سمعت، ونظرت له كثيراً، ولكن لم أعتد الحديث معه فأجبت بالنفي!!

تناولت وجبة الإفطار، وبين كل فينة وأخرى أنظر لأبي وأحدِّث نفسي، كنت أتمنى أن أجد هذا الاحتواء منذ زمن، تمنيت أن تكون أول من ارتمي بأحضانه حينما يصيبني هَمٌّ، ليت.. وليت.. وليت.. ولكن قد فات الأوان.

فأبي لم يعد بيننا، لقد رحل ورحل معه الإحساس بالدفء والأمان، حتى وإن لم يهتم بي فيكفيني الشعور بالقوة وهو بجواري، رحل الحبيب ولم يبقَ سوى الدمع، فبعد أن انتهينا من تناول وجبة الإفطار وهمّ بالنهوض اختل توازنه وسقط مغشيّا عليه!!

بكيت كثيراً.. فلم يخيّل إليّ أنني أحبه لهذه الدرجة، ولم أعلم أن وجوده يفرق معي، فلم أتحمل للحظة مجرد فكرة رحيله، احتضنته كثيراً وقبّلته، وحينما استعاد وعيه ابتسم لي وضمّني إليه لأول مرة، ثم حاولنا حمله ووضعناه على السرير، هممت مسرعة وأحضرت له كوبًا من الماء المحلّى بالسكر، أمسك الكوب ونظر إلينا بحنان وقال:

ـ مش عايزكم تزعلوا منِّي، سامحوني إن كنت قصرت معاكم، وخلوا بالكم من بعض.
ثم لفظ أنفاسه الأخيرة، سقط الكوب من يده وتناثرت أجزاؤه وتمزق قلبي معه. لم أتذكر تلك اللحظات التي تَبِعَت الوفاة، فالموت ليس بالشيء الهين أو البسيط، أبي على الرغم من قسوته فهو رمز الأمان في المنزل، كأحد جدرانه يحمينا، وبدونه يختل توازنه.
شعور مدمر بفقد الأب وانقطاع مشيمة الحياة بينه وبين أبنائه. ازداد همي، وضاق الحال بنا بعد رحيل أبي، أصبح الحمل ثقيلًا على أمي، وبعد عام ونصف مرضتْ كثيراً ولزمت الفراش، وما كان من أخي إلا أن يقضي حاجات المنزل، وأبقى أنا بجوارها، حتى قرر أخي الذهاب للعمل بالخارج، وأصبحت مسؤولة الآن عن أمي، بجانب مصاريف علاجها. وهنا لم يكن أمامي إلا تنفيذ تلك الفكرة التي قررتها مسبقًا، فأنا الآن في الصف الثالث الإعدادي.
ولكن مع مَن سأترك أمي؟ آخر شيء أتوقعه أن أقبع في المنزل أنا وذلك الوغد؛ فقبل أن يسافر أخي طلب من صديقه أن يسأل علينا بين حين وآخر إن أردنا شيئًا يقوم بقضاؤه لنا. ظن أخي أنه ترك معنا رجلًا، ولم يعلم أنه لم يصل حتى لمنزلة ذكر، ظل يزورنا صباحًا ومساءَ بحُجة أنها كوالدته، يسهر معنا ويضحك مع أمي.
ثلاثة أشهر لم يعترض طريقي أو يضايقني، ولكن طوال تلك الأيام كان يتعمد إرسال نظراته التي تربكني، وابتساماته التي تزيد من دقات قلبي، وكلماته الرقيقة بين الفينة والأخرى، حتى استمال قلبي وأصبحت أحب تواجده في المنزل لأرى وأسمع ما يشبع رغبتي، مادام لم يضايقني وسيحفظ تلك المساحة التي بيننا. اشتريت بعض الحلي وأدوات التجميل، مع بعض الأربطة والأمشاط التي اشتريتها مسبقًا وقررت النزول للعمل، ولن أعود حتى أبيع كل ما معي.
وقفت بأحد الشوارع بعيدًا عن البيت ومددتُ يدي بالحلي صامتة، لم أتحدث ولم أعرض بضاعتي، لا أعلم ماذا أقول، حتى اشترت إحداهن بعض الحلي

وعرضتْ عليّ اللجوء للمترو، ففرصة البيع هناك أفضل، شكرتها كثيراً وذهبتُ مسرعة لأعودَ لأمي مبكرًا. وقفت داخل المترو لا أدري ماذا أقول؟! وكيف أعرض بضاعتي، حتى وجدتُ إحداهن تتحدث وتعرض بعض الملابس، حاولت حفظ بعض الكلمات، ثم انطلقت، فرحتُ كثيراً حينما اشترت إحداهن بعض الأشياء بثلاثين جنيهًا، عرضتُ بضاعتي ثانيًا لكن بلا فائدة.

هبطتُ من العربة وركبت العربة التي تليها، وما فعلته مسبقًا كررته ثانياً وظللتُ هكذا حتى قمت ببيع بضاعتي كلها، وقتها علمت أن الله لن يخذلني أبدًا ما دمت أدعوه، ووجدت عيني قد اغرورقت بالدموع وسالت رغمًا عني، سألتني فتاة جامعية عمّا بي فأخبرتها بقصتي مع مرض أمي. أخرجتْ من حقيبتها بعضَ النقود لكن رفضتُ وعرضتُ عليها أخذ آخر قطعة حُليَ مقابل هذا، فقالت بصوت هادئ:

ـ خليها معاكِ وبيعيها، إنتِ أولى بالفلوس.

ابتسمت لها وأنا أحمدُ الله كثيراً، ودعوته أن يشفيَ لي أمي، فلا أقدر على فراقها، وحينما هممت بالانصراف والنزول في المحطة المقبلة، سمعت إحداهن تتشاجر بصوتِ عالٍ، وتعالت أصوات السيدات، الأولى تصدر أقبح الألفاظ والأخرى تشجع الثالثة على الضرب، وكلهن اجتمعن على رجلٍ واحد، وقد نال منهن من اللكمات والتوبيخ ما يجعله يندم طوال حياته أنه فكر يومًا وتجرّأ على إحداهن، وهو يقول بصوت ضعيف:

ـ والله ما عملت فيها حاجة، أنا كنت نازل.

كل ما فهمته ان يد أحدهم تسللت إلى جسدها، وسريعًا ما تردد في أذني كلمات أمي أن الفتاة تفضح نفسها، وأنها السبب الأول في مسألة التحرش، وفي النهاية ليس من حقها الحديث أو الشكوى، فتجلب لنفسها الفضيحة. لكن بداخلي كنت سعيدة جدًّا بما حدث، تمنيت أن أتحدث معها لأتعلم منها، فلم أرَ فتاة في شجاعتها، لم تهتم بنظرات أو تعليقات الآخرين، وكل ما كان يهمها كيف تكسر

تلك اليد التي تطاولت عليها، وما جعلني أتيقَّن أنها على حق وأن رأي أمي أمام آرائهن لا شيء، فالأولى قالت:

ـ يستاهل، كان لازم يتربى.

والثانية:

ـ مكنتيش سبتيه إلا لما عملتِ له محضر.

والثالثة:

ـ وربنا لو سبتيهولي كنت قطَّعته.

والرابعة، والخامسة، والعاشرة، كل هؤلاء السيدات أيّدنها، وهذا ما أدخل السرور أكثر إلى قلبي. اقتربت منها وبصوت مهموس قلت:

ـ بجد إنتِ شجاعة جدًّا وأنا مبسوطة منك.

ابتسمت ثم استسمحتها بدقيقة من وقتها، ارتسمت ملامح التعجب على وجهها، أمسكت حقيبتها جيدًا، ابتسمتُ:

ـ أنا مش حرامية، أنا مبهورة باللي عملتيه وعايزة أتعلم.

تعجبت وصمتت دون إجابة.

انتظرت نزولها من المترو واستسمحتها للحديث قليلًا، جلسنا، سردت لها قصتي مع صديق أخي وتجرّؤه عليّ وصمتي الذي أكرهه، ولا أستطيع الحديث بسبب أمي وخوفي منها ومن ردة فعلها، وأنه الآن يتغزّل بي كثيراً، وأخشى يومًا أن يتطاول عليّ أكثر، فهو كثير الزيارة بحجة مساعدة أمي، والتي تحبه كثيراً، وإذا قمت بمنعه ستشك ولن تصدق أي شيء عليه. ارتسم الضيق على وجهها وشرحت لي بكل امتنان. كانت تحمل بيدها جريدة، فتحتها ثم حدثتني:

ـ دا مقال كنت كاتباه العدد اللي فات، اقرئي كدا من أول هنا وسمّعيني.

وضعتْ إصبعها على بداية جملة في منتصف المقال، حاولت جاهدة القراءة:

"أكبر خطأ ترتكبه فتاة بحق نفسها هو السكوت والتزام الصمت، فالمتحرش مثله مثل اللص، يتجرع الخوف والجبن، يخشى من الانكشاف أو الفضيحة".

ثم قالت:

ـ يبقى لازم توقفيه عند حده زي ماشوفتي النهاردة ومتخافيش من كلام مامتك ولا من الفضيحة... الفضيحة الحقيقية فعلًا لما تسكتي وينكشف سكوتك. بعدين مش هيقولوا غير انك عديمة الحياء وعاجبك اللي هو بيعمله.

لم أعقب على كلامها.. صَمَتُ لبرهةٍ ثم أكملتُ قراءة:

«ما أعلمه جيدًا أن الأم لا بدَّ أن تربِي أبناءها على الشجاعة، وألا يكمموا أفواههم عن الحقيقة، وكثيراَ ما تخطئ الأمهات حينما تعطي الأمان للأشخاص، وتترك ابنتها تتأرجح بين يد هذا وذاك بحُجة القرابة، وأنها مازالت صغيرة، فكثيراَ ما تأتي المشاكل من أقرب المقربين. لا بدَّ أن تعلِّم أبناءها مدى العلاقة المسوح بها، والحدود التي لا تسمح أن يتعداها أي بشر مهما كان، تعلِّم ذلك الصغير جيدًا كيف يتعامل إن تطاول أحد عليه، وكيف يدافع عن نفسه، وكيف يصرخ بوجهه؛ فإن سكوت الطفل أكثر يجعله يومًا مثلهم، ويصبح متحرشًا أو منحرفًا أو مثليّا وهنا ستكون المشكلة قد تفاقمت أكثر، وسيبحث يومًا كيف ينتقم أو يُخرج ما بداخله من طاقة شُحِنَ بها خلال السنوات الماضية بسبب صمته وخوفه. كثير من الأمهات تخجلن من الحديث مع أبنائهن في تلك النقطة، مخطئات، فلا بدَّ من مخاطبة أبنائهن ليتعلموا ويتشجعوا، ولا يتركونهم فريسة لهؤلاء الذئاب».

ثم قاطعتني قائلة:

ـ فهمتِ عايزة أقولك إيه، وإنتِ بقى عايزاكِ أقوى من كدا، ولو قرب منك مرة تانية اضربيه ومتسكتيش، اكسري ايده، حتى لو وصل الأمر إنك تبلغي عنه.. متخافيش، ومافيش حاجة اسمها خوف تاني.

ثم فتحت حقيبتها وأعطتني رقم هاتفها وأخبرتني بمكان عملها إذا احتجتُ شيئًا يومًا ما أتوجه إليها فورًا دون تفكير، وقالت:

ـ اسمي نادين، إوعي تنسي اسمي.

هممتُ بالوقوف، ولكن قبل أن تتركني وتذهب فتحتُ حقيبتي وأخرجت آخر قطعة حُلي وأعطيتها إياها، ابتسمت واعتبرتها هدية، ووعدتني أنها سترتديها دائمًا. ذهبتْ وتركتني وبداخلي شعور بالرضا والسعادة لهذا الحديث المثمر.

كم تمنيتُ لو كانت أمي مكانها، وهى أول من لقَّنتني تلك الكلمات الرائعة واحتوتني بذلك الصدر الحنون. حملت حقيبتي عائدة للمنزل، ولكن مازال بداخلي بعض الخوف من العودة.

عدتُ وقد قررت بداخلي لا بدَّ من فضحه وكشف أمره، وتلقينه درسًا ليعلم حينها ما هي حدوده، ثم عدتُ مرة أخرى أحدِّث نفسي. فحينما أفعل ذلك لن أسمع منه كلمات الغزل ثانيًا، فقدت اعتدتُ عليها وأحببتها، ولكنَّ جسدي أهم بكثيرٍ من تلك الكلمات.

عشر شهور مروا على هذا الحال، أذهب لعملي في أول النهار أبيع بضاعتي، أجمع المال لأشتري دواء أمي وآخر اليوم أجلس بجوارها أستذكر دروسي، فأنا الآن في الصف الأول الثانوي.

عشر شهور لم أرَ بهم أية مضايقات، فقد سافر ذلك الوغد مع أخيه لمساعدته في العمل، لم أنكر أني اشتقت لنظراته وكلماته التي تداعب إحساسي.. ومَن غيره يتفنن في ذلك، ولكن كلما شردتُ في بحر الغرام أفقتُ على صوت بداخلي:

- ما إنتِ عارفة غرضه، نسيتي عمل إيه؟!

لم أُعِر تلك الكلمات اهتمامًا وأغمضت عيني أسبح في بحور اللهفة، وأكبر خطأ ارتكبته في حق نفسي أني لم أصفعه على وجهه يومًا وأكسر أصابعه لأعلمه درسًا لن ينساه طوال حياته، لكن في النهاية صَمَتُّ من أجل رغبتي في الشعور بمتعة الكلمات.

ظلت الاتصالات الهاتفية بيني وبين نادين، كلما أردتُ سماع النصح هاتفتها تحثني تارة على أمي، وتارة أخرى على مذاكرتي، والثالثة أن أحافظ على نفسي.. حتى انقطعت اتصالاتنا.

ففي تلك الليلة البائسة التي أكره تذكُّرها أو رسم خطوطها.. تلك الليلة التي قتلتُ فيها أمي!!

كان بجوارها يتبادلا الحديث والضحكات، فقد عاد من مهمته مع أخيه وجاء للجلوس معها كالعادة، ولكن في ذلك اليوم قررت القرار النهائي، فكلام نادين

يتردد في أذني، وحينما استعدتُ تلك الذكريات النتنة علمت جيدًا ماذا أعني بالنسبة له. فهو لم يَرَنِي إلا جسدًا يُشبع فيه رغبته، وأنا لم أرغب منه سوى بضع كلمات تشعرني بأنوثتي، أعلم جيدًا أن عشقَ الجسد فانٍ، وسيأتي يومٌ ويتركني ولم يبقَ لي سوى قلبي الذي مزّقه إلى أشلاء.

ذهبتُ لعمل كوبٍ من القهوة، وكل ما أفكر فيه ماذا سأفعل معه لو فكَّر للحظة الاقتراب مني.. سألكمه وأضربه، سأصرخ بأعلى صوتي لأفضحه، سأدبّ آلة حادة في صدره، ولكن أعود ثانية لأتذكَّر أمي ومرضها، كيف ستتقبل ذلك، وماذا عن رد فعلها؟ لم أنتبه ولم أفُق من شرودي إلا على سخونة القهوة، فقد سُكِبَت على عباءتي وسقط الكوب أرضًا فتناثرت أجزاؤه، رفعت عباءتي مسرعة لأزيل آثار القهوة تحت الماء، فإن بقيت سيصعُب إزالتها، ثم ملْتُ قليلًا لأزيل آثار كوب القهوة من الأرض، وإذ بي أرى أقدامه أمامي، وهو يهمس بأقبح الألفاظ؛ والتي لا يقولها شخص إلا لعاهرة.

ارتعد جسدي وهممت بالوقوف سريعًا وغطيت ما كُشِف من ساقي، تجولت سريعًا بعيني لأرى أقرب سكين، مددت يدي وأمسكت به، وهمست له:

ـ والله لو قربت مني هقتلك.

ضحك بمكرٍ شديدٍ وقال:

- يهون عليكِ تقتلي جوزك المستقبلي.

ـ أقتله مادام مش هيحافظ عليّ وعايز يأذيني.

ـ لا، دا عشان بحبك مش مستحمل بعدك عني.

وأخذ يقترب أكثر فأكثر، وأمسك السكين وألقاها من يدي، ثم أمسكني من شعري وقال بحدة:

ـ اصرخي، أنا عايزك تصرخي وتسمّعي أمك، وتسمّعي كل الناس، وأنا هقول إنك إنتِ اللي ندتيني، وإنك اللي غوتيني.

لا أتذكر ماذا فعلت لكني لكمته كثيراً وضربته، لا أدري ما الذي لجم لساني عن الصراخ، داخلي يصرخ.. بُحَّ صوتي.. ظلَّ يهمس في أذني بكلماته الوقحة، وأنا أنعته

وأوبخه، أمي تنادي مرة.. وتنادي ثانية، وأنا أحاول الإفلات من يد ذلك الذئب، وأردد داخلي: أنا من فعلت بنفسي هذا، أنا من سمحت له، أنا من صَمَتُّ، أنا أستحق كل ما سيفعله بي، اللعنة لتلك الرغبة التي جعلتني أتخلى عن إحدى مبادئ الأخلاق.

كلما نادت أمي كلما خارت قواي، كلما تمكن مني أكثر، حتى سقطتُ على الأرض.

ألهذه الدرجة تتحكم بنا غرائزنا، تحوِّلنا كالبهائم، نسير بلا عقل، نشبعها متى نشاء، ولا ندري بعد ذلك ماذا نفعل؟ ومتى؟ وأين؟

منعتُه من الاقتراب مني حتى وجدتُ قدمي أمي أمامي، ظلَّت تصرخ فيه وتوبخه وتنعته بأقبح الألفاظ، وتلعن ذلك اليوم الذي وثقوا فيه وأدخلوه المنزل واعتبروه أخًا لنا، وهو يقول:

- اسألي بنتك.

ظلت تلعنني:

- ياريتني ما شوفتك ولا كنتِ بنتي.

وأنا أصرخ:

- لا، صدقيني أنا معملتش حاجة.

وصرخات أمي تزداد وهي تردد:

- هفضحك، أنتِ شيطان.

قام مسرعًا وهو يقول لها:

- اسكتي.

وهي تصرخ وتمنعه من الخروج، قمت مسرعة واستعدت السكين وقررت طعنه لأتخلص منه للأبد، ولكن أمي ارتمت أرضًا قبله، كتم أنفاسها.. كممها.. إلى أن لفظت أنفاسها الأخيرة، ماتت أمي وهي لا تعلم الحقيقة، ماتت وهي تعتقد أني من أغويته.

صرخت وركضت وراءه، لكني لم ألحق به، اجتمع أهل الحارة كل منه يضرب كفًّا على كفٍ ويتساءل: ماذا حدث؟! ارتميت بجوار أمي وأنا أبكي وقلبي يحترق امسك يدها تارة وتارة أخرى أهزها بشدة وأنا أصرخ:

- أنتِ فهمتي غلط اوعي تموتي.. اااااه يا أمي بالله عليكي لتصحي أفهمك الحقيقة.. هتسبيني انتِ كمان لمين، أبوس إيدك.

ثم فقدت الوعي... ولا أتذكر شيئا بعد ذلك.

بعد إتمام واجب العزاء وإنهاء إجراءات التَّحقيقات، والجميع يعترف على ذلك الوغد أنه من قتل أمي وحاول سرقتها ثم قام بالاعتداء عليّ، كل منهم يروي رواية بمخيلته، جاءت والدته تتشاجر معي، ظلَّت تصرخ في وجهي، وتصفني بأقبح الصفات. لا أدري كيف فعلت هذا، ولكن ما أذكره جيدًا أني صفعتها بكل قواي، وقلتُ لها بكلِّ غضبٍ:

- لو كنتِ ضربتِ ابنك القلم دا فيوم كان اتربى ومتجرّأش على بنات الناس.

ثم تركتها، وأغلقتُ باب الغرفة عليّ، ظلَّت تسُبني إلى أن أخرجها الناس من المنزل. لم أتحمّل أكثر من ذلك نظرات الجيران وهمهماتهم وأحاديثهم الجانبية، وضعت أغراضي في حقيبتي وقرّرتُ الفرارَ إلى عمي، فهو أحب الناس وأقربهم إلى قلبي، وتركتُ ورقةً بالمنزل لأخي ليعرف أين أنا. فمنذ أن سافر لا أدرى عنه شيئا وعمي لا يدري شيئًا عما حدث لأمي.

ركبت أول حافلة، وحاولت تذكُّر العنوان، فهو يسكن بمدينة نصر، سألت هذا وذاك إلى أن وصلت إلى المنزل، وضعت يدي على ناقوس الباب حتى فتح عمي، لم أتفوّه بكلمة، ما إن رأيته أمامي حتى سقطتُ مغشيّا عليّ.

فتحتُ عيني لأجد الجميع بجواري فشعرت بالأمان، وأنها ستكون بداية جديدة، هي حقًّا كانت بداية جديدة، ولكن لحياة أسوأ.

** ** **

الفصل الثالث

*****

أفاق من شروده وقراءته لتلك المذكرات حينما سمع عدة نقرات على باب الغرفة، فخبّأ الدفتر مسرعًا تحت حشوة الأريكة، فتح الباب فوجد زوجته تنادي بأعلى صوتها:

ـ أ خيراً فتحت! إيه يا خويا، جافل على روحك ليه؟ روح شوف في حد من السكان عايزك في طلب.

خرج عم فتحي ليرى مَن الطارق وهو يردد:

ـ يا فتاح يا عليم يا رزاج يا كريم.

*****

أشعل سيجارة وارتشف رشفة من كوب القهوة، وتوجّه بالحديث إلى معاونه:

ـ بقولك صحيح.. هو مين اللي بلغ عن حادثة القتل بتاعت البت اللي اسمها زهرة.

ـ البواب يا فندم.

ـ وهو اللي دخل أول واحد وشاف الحادثة، وهو اللي بلّغ، مش يمكن هو اللي خد الأجندة؟! ويمكن وراه حاجة وخاف حد يعرفها.

ـ كل شيء جايز.

وحينها أمر المعاون باستدعائه وتفتيش شقته جيدًا.

*****

بعد برهة نادت زوجة فتحي ثانيةً على ابنتها ندى:

ـ إنتِ يا بت.. إنتِ يا زفتة، ربنا ياخدك يا شيخة، أنا جولتلك ألف مرة متطلعيش تلعبي فوج، إنزلي تعاليلي، إلهي تنزلي متجطعة ماحد يعرف يلمك.

تركت ندى لعبتها مع صديقتها وهبطت لتلقنها أمها درسًا وتُسمعها وابلًا من التَّوبيخ، وفي النهاية طلبت منها إحضار بعض من الأكياس لوضع الخبز. أخذت ندى تتمتم بكلامٍ غير مفهوم، ولكنها معترضة على تلك المعاملة وتتساءل في

صمت: ألا تستطيع أمها جلب الكيس البلاستيك من الغرفة المجاورة؟! مدَّت يدها الصغيرة وجذبت الأكياس، وهى تتمتم ربنا ياخدني! ثم أعطت والدتها الأكياس وصعدت خفية لصديقتها مرة أخرى لاستكمال اللعب.

*****

اقترب د. آسر من زهرة وجلس أمامها، رفع وجهها لتكون في مستوى بصره، وركَّز عينيه على عينيها علَّه يجد إجابة، ثم حدَّثها:

- زهرة أنا عارف إنك سامعاني وحاسة بيّا، أنا عايزك تفوقي وتتكلمي، أنا عايزك ترجعي زي الأول، احكي لي عن اللي حصل، إنتِ كلمتيني وقولتيلي إنك عارفة مكان "نادين"، قوليلي هي فين؟! احكي لي اللي تعرفيه، ومين اللي قالك على مكانها؟! ومين اللي بهدلك كدا؟! أرجوكِ انطقي وقولي حاجة، متفضليش ساكتة، إنتِ عارفة نادين غايبة بقالها قد إيه؟ دي حبيبتك.. لو عارفة حاجة اتكلمي وساعديها عشان خاطري، إنتِ سامعاني.. صح؟!

بدأت الدموع تنهمر من عينيها وهي شاردة. لم تعبأ بحديثه، ولم تعطِ أيّ ردٍّ أو إجابة.. أصدر زفرة تنم عن ضيقٍ وخيبةِ أملٍ، ضمَّ شفتيه ووضع يده على جبينه، حدَّثها أن تهدأ وأنه لن يضغط عليها مجددًا، ثم تركها وذهب.

*****

أغلقت نيرة باب شقتها بإحكام، أمسكت الدفتر وفتحته ببطء، تعجّبت من تلك الصفحة المطوية، وكأن أحدهم كان يقرأ، ووضع علامة ليعرف أين انتهى، حدَّثت نفسها.. من يكون؟! ثم هاتفت زوجها وأخبرته أن يصل في الحال، فقد وجدت مذكرات زهرة وها هي بين يديها، سألها كيف حصلت عليها ومع من كانت لكنها لم تعطه إجابة شافية وأنهت حديثها

- لما تيجي هحكيلك كل حاجة بالتفصيل

ثم وقعت عيناها على تلك الكلمات:

((كثيراً ما نظن أن الهروب وتغيير المكان بداية جديدة تجعلنا نتناسى الماضي ونبدأ صفحة جديدة، ولكن بعد فوات الأوان نكتشف أننا بدأنا صفحة أسوأ من الماضي)).

فحينما يعمي الكره أعيننا تنعدم الإنسانية من قلوبنا، يحق لنا أن نفعل ما يحلو لنا، وهذا ما فعلته زوجة عمي بي، فقد ألقتني في النار. لم تستمع لي يومًا، عمي من أطيب الناس خُلُقًا وعلمًا وأدبًا، ذلك الرجل تمنيت يومًا أن يكون محلَّ والدي أعشق حبه واحتواءه لأبنائه، كيف يعاملهم، كيف يودهم، لا ينهرهم، فهو يعلم جيدًا أن الأبناء كالنَّبتة الصغيرة، إذا اعتنيت بها وسقيتها ورعيتها ستتفتح وتنبت لك أجمل الثمار، لكن زوجته لا أدري لماذا تكرهنا؟! ولا تتمنى لنا الخير يومًا، وبعد وفاة والدي ازدادت العداوة أكثر.

يقولون لا تقل أنك تعرف إنسانًا قبل أن تقتسم معه إرثًا، وهنا ظهرت زوجة عمي على حقيقتها. فحينما توفِّي جدي وتمَّ توزيع الإرث، لم يعبأ عمي كثيراً، ولم يشغل باله ماذا سيرث، وأصبح كل همه أبي ونحن، ماذا سنرث؟! فهو يعلم جيدًا أن حالنا يُرثى له. وهنا وقفت زوجته وناصبتنا العداء، وافتعلت المشاكل، ووضعت معيشتها معه أمام ذلك الإرث، وإن ترك شيئًا لأخيه أكثر من حقه فلن تنتظر في المنزل يومًا واحدًا.

قبعتُ في ذلك المنزل سنتين من أجمل أيام عمري، لم أعبأ كثيراً بمعاملة زوجته، والتي كانت تعتبرني كخادمة لا بدَّ أن تعمل بلقمة عيشها، وأمام عمي تعاملني بلطفٍ شديد. قضيتُ فترة كبيرة حتى استعدتُ حياتي مرة ثانية بعد صدمتي بوفاة أمي وأبي، ذلك الوغد أخذ جزاءه وقُبِض عليه وحُوِّلت أوراقه للمفتي، تمنيت أن أقتله بيدي جرّاء ما فعل. حينما عاد أخي إلى المنزل أتى مسرعًا إلى بيت عمي، نهرني ووبَّخني، فقد تملَّكه الغضب مما سمع من أهل المنطقة، جاء ليستجوبني، لكن عمي قام بحمايتي من بطشه، وجعله يذهب ويتركني وشأني.

عمي -أكرمه الله- علّمني الصلاة، وحببني في الحجاب، واشترى لي ملابس جديدة تليق بي وبأنوثتي وبكياني الجديد، فلأول مرة أشعر أني ملكة متوّجة بحجابي، تقرّبت من بناته الثلاثة.. أحببتهن كثيراَ.

جلستُ معه أحكي عن ذنبي الكبير، والذي تسبّب يومًا في موت أمي، اعتقدتُ بأنه سيجلدني بكلمات، لكنه ابتسم لي وحدَّثني:

ـإن للتوبة روحًا وجسدًا، فروحها استشعار المعصية، وجسدها الامتناع عنها، والاعتراف بالخطيئة والذنب هو نصف التوبة، أوعى تيأسي مهما بلغت أوزارك، ولا تقنطي مهما بلغت خطاياكِ، وما سمَّى الله تعالى نفسه الغفار التواب العفو الكريم إلا من أجل أن تخطئي فيغفر لكِ، استغفري ربكِ كثيراً، تقرّبي إليه، فالله سبحانه وتعالى يَفرح بعبده العائد، ويحب سماع توبة المسيئين.

وأنهى حديثه معي بعدة كلمات:

ـ أنا مش هقولك تاني إنك غلطانة، أنا عارف إن البنت في المرحلة دي بتبقى عايزة تحس بأنوثتها وكيانها، بس الغلط إنك تسلِّمي قلبك لأي حد، كلمة بحبك دي مش كلمة سهلة، بس الشباب بيستخدموها لأنهم عارفين إن الكلمة دي أكتر كلمة بتجذب البنت قوي. مش عيب إن يكون نفسكِ تسمعي كلمة حلوة، بس العيب إنك تسيبي نفسك للشيطان يوديكي للطريق الغلط، وإنتِ شوفتي النتيجة إيه، الولد مبيهموش غير نفسه وبس، وإزاي يحقق متعته سواء بالكلام أو بالنظرات.. إلخ، الولد اللي بيحب بجد هو اللي يحافظ على البنت، وميجرّهاش للممنوع، فهمتِ يا زهرة، بُكره هتكبري وهتقابلي الإنسان اللي يغنيكِ ويسمعك أحلى وأجمل كلام، وكل ما حافظتِ على قلبك، كل ما ربنا هيعوضك.

ثم قبّل جبيني، مسح على رأسي وقال بلهجة حانية:

ـ قومي بقى شوفي مذاكرتك، الامتحانات على الأبواب.

فقد ذهب عمي لمدرستي بالمنطقة التي كنا بها وحوّل أوراقي إلى المدرسة الثانوية المجاورة لمنزله. في بادئ الأمر كنت أجد صعوبةً في التعامل مع زميلاتي، كلهن في مستوى إجتماعي واحد يتحدثن بلهجة واحدة، كثيراَ ما شعرتُ بالنّقص

بجوارهنَّ، وخصوصًا حينما كانت تسخر مني إحداهن عندما أتحدث بلهجتي، فهي تنتمي للطبع الريفي تأثرًا بلهجة أمي، ولكن بعد عدة أشهر وصلت لمكانة متميزة بالمدرسة، وأثبتُ للجميع أن الإنسان لا بلهجته أو بمظهره، لكن باجتهاده وعمله وتميّزه.

كلما ضاق صدري أطلب من عمي أن يأخذني لقبر أمي، أظل بجوارها أبكي وأسرد لها الحكاية، علَّها تسمعني وتسامحني، ثم أتلو بعض السور، وأدعو لها، وفي النهاية أعود مجددًا لمنزل عمي.

انصلح حالي كثيرًا في السنة الأولى من وجودي بجوار عمي، صبرت على معاملة زوجته من أجل تلك الضمّة الحانية التي يضمها لي بعد عودته من عمله، فتنسيني ذلك الألم الذي سبّبته لي طوال اليوم.

بنات عمي ثلاث؛ فالأولى في درجة الامتياز بكلية الطب جامعة القاهرة، والثانية بالصف الثالث الثانوي، والثالثة في الصف الرابع الابتدائي.

تقربتُ من أمنية وأحببتها، فهي الابنة الكبرى، أكثرهن فِهْمًا لي ولمشاعري، أما آلاء لم أشعر بالراحة معها، وكأنها تشربت من والدتها، ولم أتعامل معها كثيرًا، والصغرى كنت ألعب معها وأحببتها، فأقضي معها معظم الوقت.

الخطأ الأكبر الذي ارتكبه عمي أنه سرد لزوجته ما حدث لي، وما سبب وفاة أمي، ولماذا أعيش معهم. فمجيء أخي والشجار الذي دار بيننا وخروجه بدوني كفيل بأن يثير التساؤلات، وبعدما عَلمتْ تشاجرت معه، وقد سمعتُ بعض الكلمات التي آلمتني كثيرًا بأني فتاة عديمة الحياء، تخشى على بناتها منِّي، وتخشى على ابنها، فبعد أيام سيعود من عمله، أما لي أن أغويه هو الآخر.

حينما سمعت تلك الكلمات وهي تسردها لعمي لم أتمالك دموعي، وجلست بالغرفة أبكي وأتساءل، لماذا تكرهني إلى هذا الحد؟ لماذا تراني قبيحة إلى تلك الدرجة؟ ولكن لا إجابة..

اجتمعت ببناتها وأمرتهن بعدم الاختلاط بي أو السماع لأي حديث أسرده، وإلا عاقبتهن. لم يعجب عمي ذلك الخطب وثار عليها كثيرًا، لكنني قررت الفرار من

ذلك المنزل قبل أن أكون السبب في إفساده، رفض عمي وأقسم عليّ أن خروجي من ذلك المنزل في حالة واحدة وهي الذهاب لعش الزوجية، ابتسمتُ وفرحتُ كثيراً أن لي ظهر، وأن زوجته لن تستطيع إيذائي مادام عمي على قيد الحياة. حمدت الله، وذهبت لغرفتي وخلدتُ إلى النوم.
لم يهدأ لها بالٌ، وضعتني تحت المجهر تنتظر أي خطأ لتحوِّله إلى جُرم أعاقب عليه، وخصوصًا بعد عودة كريم.
قبل عودته، علّمني عمِّي آداب التعامل مع الآخرين، والحدود التي نتعامل بها، وما يُقال أن ابن العم والخال وغيرهم: (دا زي أخويا مافيهاش حاجة) من أكبر الأخطاء. علمت أنه لا يصح السلام عليه، ولا يصح أن أجلس أمامه بملابس النوم، أو بدون حجاب، أتحدث معه ولكن بحدود، لا داعي للثرثرة أو الحديث الخارج أو الضحك بصوت مرتفع أو الجلوس بمفردنا. لم أتضايق من تلك النصائح لأنني على يقين أن عمي يتمنى لي الخير دائمًا، ونفَّذت ما قاله لي بالحرف الواحد.
لم يكن ذنبي أن ظروف نشأتي جعلتني أتعدَّى فترة طفولتي سريعًا، كثرة جلوسي مع سيدات الحارة وكثرة الاستماع إلى أحاديثهن فتحت لي آفاقًا كثيرة من الأسئلة. وخصوصًا بعد دراستي في المقرر بعض الدروس بمادة الأحياء، وفي يوم جلست أمنية بمفردها فلجأتُ لها أسألها، تعجبتْ في بادئ الأمر ثم ابتسمتْ ورحّبتْ، فهي على علمٍ تامٍّ بتلك المرحلة التي أَمُرُّ بها، ولا بدَّ من الاهتمام بي واحتوائي، ولكن ما إن همّت بالحديث معي حتى وجدتُ أمها أمامي، وكانت عيناها تطلق النار كالرصاص، حدَّثتْ أمنية بغضب:
ـ كانت عايزة تعرف إيه؟! ماهي ما شاء الله عنيها مفتحة وفاهمة ومجربة، ولا ابن الجيران نسي يعلمها حاجة، ولا هو خلاص بقى الكلام في قلة الأدب داء.
لا أدري كيف استجمعت قواي وأجبتُها:
ـ لا، مش قلة أدب ولا داء، ما هو أنا عشان أمي كانت زيك كدا معقَّدة ملقتش اللي يفهمني ولا يقولي عيب، ملقتش اللي يعرفني الصح من الغلط، مانت طول ما بتتعاملي كدا هتفضلي تشرّبي بناتك الخوف في إنهم يتكلموا، مفكرتيش مرة إن

ممكن واحدة فيهم اتعرّضت لمضايقة زي اللي إتعرضتلها وخافت تحكيلك عشان إنتِ مبتتفاهميش، وفضَّلت إنها تسكت وتتألم عشان متقوليش عليها إنها قليلة الأدب؟! مش عيب أبدًا إني أسأل، لكن العيب والغلط اللي إنتم بتعملوه فينا، أنا مش فاهمة إنتِ بتكرهيني وعايزة توصلي لإيه.

صفعتني على وجهي ثم قالت:

- مش عايزاكِ هنا، وخايفة على عيالي، وعايزة أحافظ عليهم.

وهنا لأول مرة يتدخَّل كريم في أي حديث بيننا أو مشاجرة، وقف أمام والدته وأمسك بيدها، وقال بصوت كله احترام:

- لو سمحتي يا أمي سيبيهم، همّا بنات، وأمنية مش صغيرة ولا عيَلة عشان تخافي عليها، مش عيب إنها عايزة تعلِّمها الصح من الغلط.

ثم همس:

- زهرة مالهاش علاقة بأي مشاكل بينك وبين بابا، وياريت تعامليها كويس.

تملَّكها الغضب أكثر وأخذت تصرخ وتتشاجر بمن في البيت أجمعين. جلستُ على الأرض أبكي وأتألم، لا أدري ماذا أقول، وماذا أفعل؟! هل سيظل ذلك الماضي شبحًا يطاردني في كل مكان؟! ظلَّت أمنية تطيِّب خاطري بكلماتها الرائعة.

جلس كريم بجواري ثم قال بصوتٍ هادئ:

- متزعليش منها، وإن كان بابا رجع شغله وإنتِ مبقتيش حاسة بالأمان فمتخافيش.. إحنا كلنا جنبك وكلها يومين وهيرجع من المؤتمر.

عمي رئيس قسم الجراحة في مستشفى القصر العيني ويذهب كثيرا لإلقاء المحاضرات وحضور مؤتمرات. الفارق بين عمي وأبي أن احدهما أهداه الله حب العلم والطموح، والأخر لم يشغل باله يومًا بالمنصب العلمي واختصر الطريق بعد المرحلة الإعدادية وقرر العمل من أجل لقمة العيش وكسب المال.

لم أنظر لكريم وقررت الصمت، لكن شعوراً بالراحة سرى بجسدي.

معارك الكلام المنتصر فيها هو الأقوى بحُجته، لكن مع صَفية زوجة عمي المنتصر لا بقوة حجته ولكن بنفوذه التي يستخدمها بعد تلك المعركة.

بعد عدة أيام عاد عمي من عمله، وهنا قامت زوجته بدورها المشهود، ظلَّت تسرد له ما فعلت من أخطاء حتى تسرب إليه الخوف للحظات، ولكنه لم يُظهر لي هذا.
اعتدتُ على عمي أنه يوجِّه ويصحح الخطأ، اعتدت عليه يسدي النصيحة بهدوء، والتي تجعل النفس تتحلى بالصفات الحميدة، ولكن في تلك المرة لم يتحدث أو يتكلم، ولكني رأيت العتاب في عينيه، ولكن عتاب عن ماذا؟! ماذا قالت له تلك الحية عني، وبأي شكل بثَّت السم في رأسه؟! لماذا لم يواجهني؟ بأي اتهام اتَّهمتني؟! أملتزم هو الصمت من أجل أن أراجع نفسي؟! أو أن أشعر بذنبي؟! ولكن أي ذنب اقترفته!! فقط أردتُ معرفة إجابات لبعض الأسئلة التي تراودني، لماذا يرغب الرجل في المرأة بهذا الحد؟ وماذا يريد؟ وكيف تشعر المرأة بأنوثتها؟ وماذا عن الحب الحقيقي؟ ما الدافع لذلك الشاب الذي يخدش حياء الفتاة بكلماته القبيحة أو بأفعاله الوقحة؟ أردتُ معرفة تفسير لبعض النقاط التي قمت بدراستها ولم أفهم معناها، ماذا؟ وماذا؟ وماذا؟
وفي النهاية لم أعلم أي شيء، وأصبحتُ متَّهمةً وأريد تلويث أخلاق الفتيات.
لم يبقَ على الامتحانات سوى سبعة أيام، أصبح الكتاب صديقي ولم أعبأ بأحد، أقوم بواجباتي المنزلية التي فرضتها زوجته عليّ ثم أخلد للغرفة أستذكر دروسي.
حتى انتهيت وحصلت أنا وابنتها على أعلى الدرجات، فرح عمي لي كثيراً وأهداني ثوباً أنيقًا، ووعدني بيومٍ ترفيهيَ خارج المنزل، ثم بارك لابنته بعد مجيئها من الخارج، فقد حصلتْ على مجموع يُلحقها بكلية الصيدلة، وأنا حصلت على تقديرات عالية تلحقني بالصف الثالث الثانوي، لم تبتسم لي زوجته أو حتى أرسلت أية تهنئة أو مباركة، وكأنني عديمة الوجود بالمنزل، تحمّلت كثيراً من أجل عمي ومعاملته اللطيفة معي، حتى جاءت الإجازة الصيفية واشترك لنا في بعض الأنشطة، كلٌّ حسب اختياره، وحدَّثنا كثيراً عن أهمية إشغال وقت الفراغ، وأن النفس إذا لم تشغلها بشيء مفيد ستشغلنا هي بمعاصٍ كثيرة حتى نصبح غارقِّين فيها.

أحببتُ كرة التنس واستمتعت بها، ولم يمر ثلاثين يومًا حتى جاءت لعمي فرصة سفر مميزة للخارج، فرح الجميع، وظلوا يهنئون ويباركون، إلا أنا، شعرت أن الدنيا أسودت في عيني.. إلى من ستتركني؟! وكيف لي أن أتحمّل بعد ذلك؟ ومن سيخفف وجعي بعده؟ قبل مغادرته قبّلني وعبّر لي عن حبه، وأوصاني بنفسي ومذاكرتي، وإن احتجتُ شيئًا أهاتفه دون تردد، ثم ضمَّني إليه بشدة، وعلى قدر ما كانت ضمّته قوية على قدر ما قست الدنيا عليّ فانقلب الحال رأسًا على عقب.
وجدتُها تحدثني بقسوة وأنها لن تقدر على دفع مصاريف دراستي بتلك السنة، فتكاليفها باهظة.. وأصبحتْ تشكو من كثرة الحمل وكثرة الأشغال والأعمال المنزلية، اعتذرتُ عن الذهاب لدروس التنس وجلستُ معها في المنزل أساعدها، نفَّذت ما قالته لي حينما كنَّا بمفردنا، وجدتها تحدِّثني بِحِدَّة:

ـ ان كنتي عايزة تقعدي معانا يبقى تشتغلي بلقمتك. هو عرض واحد ومالوش تاني، هتشتغلي فالبيت تطبخي تغسلي تمسحي ودا مقابل انك تكملي دراستك.

لم أستطع الرد عليها، هي تعلم جيدًا أن لا مأوى لي غير ذلك المنزل، مسحت دموع ضعفي وقلت بصوتٍ خالٍ من أي انفعال:

ـ حاضر تحت أمرك.

تنهَّدتْ ورسمتْ ابتسامةً هادئةً على شفتيها، لكنها تحمل كثيراً من الوعيد، لا أدري لماذا؟! ثم حذَّرتني أن يعرف أحدهم ذلك الاتفاق وإلا كان جزائي أعظم، مضت خطوتان ثم أضافت وهي تسير للباب:

ـ اغسلي الأطباق اللي فالمطبخ وجهزي العشا لغاية ما استريح شوية، وعندك هدوم إكويها وبعد كدا امسحي الشقة، ومن بكره إن شاء الله هحطلك نظام تمشي بيه على كيفي أنا. هتروحي السوق وهتجيبي طلبات البيت كلها .

أومأت برأسي في تسليم تام وقد علمتُ أن مرحلة جديدة في حياتي قد بدأتْ. ألقيتُ بنفسي على السرير واحتضنت وسادتي، بكيت كثيراً، فكرت بالعودة لمنزل أمي، ولكن كيف لي أن أنظر في وجوه الجيران؟ من المؤكد أنهم سردوا القصص

والحكايات، وكيف لي أن أجلس أنا وأخي في بيت واحد؟! وكيف لي أن أشعر بالأمان!! استعنت بالله ودعوته أن يعينني على تلك المهمات.
تعبتُ كثيراَ وأنهكت، لم أستطع التحمل، فكل يوم تزيد المهمات، وتختلق لي الأعمال حتى تعجّب الجميع وتساءلوا، ولكنها كانت تجيب:
ـ دي رغبتها، أعملها إيه، دا أنا بتحايل عليها تقعد شوية مبترضاش، طالعة لمامتها بتحب الخدمة قوي.
وهنا لم أتمالك نفسي وانفعلت عليها وأنا أدعوها للكف عن تلك المعاملة، وعن تلك الإهانات التي تلحقها بي كل حين وآخر، لم تعبأ بحديثي وقامت من مجلسها، بدَّلت ملابسها وهمّت للخروج للقاء صديقاتها. جلستُ وانهرتُ كثيراَ لم يستطع أحد إيقافي أو تهدئتي. في تلك اللحظة وصل كريم من الخارج وتفاجأ بما حلَّ بي، حاول تهدئتي ولكن بلا جدوى، تمتمت بكلمات غير مفهومة ثم دفنت رأسي بالوسادة، حاولت أمنية إقناعي بأن أبدِّل ملابسي وأخرج للتنزه معها، لكنني رفضت، عرض عليّ كريم الجلوس على الحاسوب ومشاهدة الأفلام أو سماع بعض الموسيقى أو من الممكن أن تعلمني أروى قوانين بعض الألعاب.
ولكن لا فائدة من الحديث معي، تركتهم جميعًا وذهبت لدورة المياه، وسكبتُ ماءَ باردًا على جسدي، علَّني أطفئ النار التي اشتعلت فيه.
وحينما هدأتُ ذهبتُ لغرفة كريم، طرقتُ الباب وفتح لي مبتسمًا، سألته هل لي أن أقتطع من وقتك دقائق، رحّب كثيراَ، جلسنا في غرفة الاستقبال وسألته:
ـ هي مامتك بتكرهني ليه، أنا سمعتك بتقولها زهرة مالهاش ذنب في أي مشاكل بينك وبين عمي.
صمتَ كثيراَ ثم أجاب:
ـ موضوع يطول شرحه وخلاص انتهى، بس أمي معرفش مزوداها ليه، الغيرة مُرّة يا بنتي.
تعجبتُ وتساءلتُ:
ـ غيرة إيه؟! ومن مين؟! منِّي أنا؟!!!!

ضحك ثم أجاب:

ـ لا، من والدتك طبعًا.

وسرد لي الحكاية..

عمي كان يحب والدتي كثيراً وعلى وعد بالزواج، لم يعلم أحد بتلك العلاقة سوى صديقتها صفية (زوجة عمي) وحينما هَمَّ عمي بخطبة والدتي طلبها أخيه الأكبر للزواج، رحّب جدي كثيراً، وعمي لم يستطع الحديث، ولم يتفوّه بكلمة، فإن علم أحدهم سيقتلها. صمتَ وتألم وتزوج صفية ومن تلك اللحظة أنهت علاقتها بأمي، وانقلب الحب لعداوة شديدة، وأصبحت تغار علي عمي كثيراً وتتشاجر معه كلَّما علمتْ أنه قام بزيارتنا. وازدادت المشكلة تعقيدًا بعد موت أبى، كرهتنا لأن عمي يحبنا ويفضلنا أحيانًا علي أولاده، اتَّهمته بالخيانة وأنه لم يحبها، وأن قلبه مازال ينبض بحب والدتي.

حينما سرد لي الحكاية وضحت رؤية كل شيء، ولكن ما ذنبي؟!!

شكرتُهُ على ذلك الحديث وهممتُ بالوقوف لاستكمال مهامي حتى لا تتشاجر معي، أصبحت الأيام متشابهة، كل يوم كسابقه.. لا جديد.

سرى بداخلي شعورٌ غريبٌ، كلما نظرت إلى وجهه كريم.. لا أدري ما هو، ولكنه مختلف تمامًا عن ذلك الشعور الذي كنت أبحث عنه في عين ذلك الوغد صديق أخي، فشتان بين المشاعر التي تمس الروح، والمشاعر التي تسري في الجسد.

أحببته كثيراً، أصبح يطل عليّ في أحلامي، ينير عتمة قلبي فأسبح معه في فضاء السعادة، يعانق روحي فتغمض جفوني وتطمئن بسلام، أتمنى لو تقبَل الأفراح جبيني، تهديني الأبيض ليلة ربيع بنسمات الياسمين، تتساقط قطرات الندى على وردات الأمل فتهدئ لهيب الوجدان، ليته يعلم فتصبح الحياةُ مشرقةً بهيةً كبهاء القمر ليلة الرابع عشر.

لكني سأكتفي به حلمًا وحزنًا ناعمًا وذكرى أعلم جيدًا أنها لن تتحقق، فلقلبي هو كحلمٍ بعيدٍ، فـكيف لي أن أظل بجوار أمه؟ أأحكم على نفسي بالإعدام مرتين؟

عانيت كثيراَ كي أخفي ذلك الحب الذي سرى سريعًا في قلبي، لكنَّ العيون فضَّاحة، حتى هو أصبح اهتمامه بي أكثر، ابتسامته الهادئة حينما أقدم له مشروبًا، مساعدته لي خاصة في تلك الشؤون التي تخصّه، سواء كي ملابسه أو ترتيب غرفته. لم يحمِّلني مسؤوليته بالمرة، يعمل ذلك بكامل الرضا على غير عادته، وحينما أرفض خوفًا من زوجة عمي يقول بصوت مهموس:

ـ راحتك تهمني.

سرى القلق داخلي بعدما شعرت بذلك الاهتمام، لا بدَّ لتلك المهزلة أن تتوقف، لا بدَّ أن أذبح الإحساس بقلبي، وألا أجعله يستمر، حدثتُ نفسي كثيرَا، أنه مثل أخي وأتمنى أن يظل هكذا يؤازرني ويحميني من بطش والدته.

ولجت لغرفة كريم أكثر من مرة، فقد سمح لي بدخولها إذا ما أحببت، وعلَّمني بعض الإجراءات وكيفية التعامل مع الحاسوب حتى لا يصيبني الملل من الجلوس بمفردي.

وذات مرة جلستُ على الكرسي ولفتت انتباهي ورقة صغيرة موضوعة بجانب الحاسوب مدون بها بعض الكلمات الرقيقة، تسارعت دقات قلبي وشعرت وكأن تلك الكلمات لي أنا، وأبَى قلبي وعقلي أن يفكرا في غير ذلك، حتى ولو كانا يخدعاني، فبالنسبة لي كانت أحلى خديعة تجعلني أسافر إلى مدينة الأحلام، ولا أملك أكثر من ذلك سعادة عارمة، لحظات لا تُنسى، أيام لها في القلب مكانة.

أصبحتْ غرفته كواحةٍ أتنزَّه فيها، ملجأ للأوقات السعيدة، عشقت تفاصيلها، أحببت كل ركن فيها، فهي مدينة الأحلام، أعشق خروج الجميع لأدخل إلى عالمي ومسكني. تفاصيلها الكثيرة الدقيقة أحيا بداخلها، ترفرف أجنحة أحلامي داخلي، أسبح بينها، أشم عبيرها، أقصّ حكاية حنين للروح. ارحم قلبي يا الله، أشعر بالحب في عينيه، لكنه يأبَى الإفصاح، لماذا كل هذا العذاب، كم من مرة رمقني بسهام عتابه، حاولت أفهم ما يجول بخاطره، لكني لم أعِ، لا أدري إن كان يحبني أم أني أعيش بوهم صنعته لنفسي، سعدتُ بهذا الوهم مسبقًا، ولكن لم أعد

أطيقه الآن، ليت الحب لم يُصِب قلبي، أنا من عذبت نفسي، خطئي من البداية أني سمحت لذلك الإحساس أن يتملّكني.

عدة أشهر وأنا على هذه الحالة، أعمل وأستذكر دروسي وأخلد للنوم مُنهكة من شدة الشقاء. الجميع يخرج للتنزّه وأبقى أنا وحيدة في المنزل، ألِجُ إلى غرفة كريم، أجلس وأفتح الحاسوب أو أقرأ كتابًا أو أجلس أمام التلفاز.

رغبتي في المعرفة لم تهدأ بل ازدادت ولو أعلم أن تلك الرغبة ستهلكني لما فكرت يومًا في اللجوء لتلك الفكرة.

فالنار إما أن تحرق الشيء وتحوِّله إلى رماد، وإما أن تصقله وتجعله ذا قيمة ووزن، ورغبتي التي ازدادت شيئًا فشيئًا، ألقتني في النار، لكنها نار باردة تحرق على مضض، وفي النهاية حوّلتني إلى رماد، فلا شيء يخيفني أو يرعبني قدر الرغبة، وإن كانت غير مشروعة. ثمة رغبات تسبح في محيط العمر دون مرسى، وبين الرغبة وانتظار المرسى تظهر اللعنة، ما يميز الرغبة أنها مرتبطة بقرار، ولكن هل هذا القرار صائب؟ أم أنها قرارات طائشة تَبِعَت تلك الرغبة، والعقل دائمًا تابع وخادم لها.

إن تحقيق الرغبة هو أن تخطوَ خطوتك الأولى نحوها، فهل ستخطو بحكمة؟ أم ستسبح في بحر اللعنة؟

ذات يوم خرج الجميع ولم يبقَ سواي بالمنزل، كل منهم توجّه لأشغاله، حتى زوجة عمي أخذتْ ابنتيها وذهبت دون أن تحدِّثني بكلمة، لم أعبأ بهم، ولكن ظلت الوساوس تراودني أن أجلس وأفتح الحاسوب الخاص بكريم. وقفتُ أمام الغرفة أقدِّم قدمًا وأُرجع أخرى، حتى استجمعتُ قواي وفتحت المصباح، وكأنها أول مرة ألِجُ إليها، ولأول مرة أفتح الحاسوب وأجلس أمامه، حقًّا لم أكن صاحبة خبرة جيدة للتعامل معه لكني حاولت استدعاء بعض المعلومات التي تعلمتها من المدرسة. تصفحت على موقع جوجل، وكتبت ما يدور برأسي، تصفحت مواقع عدة، أخذت أقرأ وأقرأ، وكل موضوع يستهويني ويفتح لي مجالًا جديدًا من الأسئلة التي أبحث عنها، وفي النهاية وجدتُ نفسي أمام أحد المواقع الإباحية!

سحبت يدي ووضعتها جانبًا وأصبحت ما بين رغبةٍ وامتناعٍ، أكمل بحثي وأشاهد، أم أستغفر الله وأخلد إلى مذاكرتي ودروسي.. حقًّا إنها لحظة فارقة، أيهما سيتغلب على الآخر؟ هل سيسير عقلي بلا وعي وراء تحقيق الرغبة، أم سأمتنع حتى لا تصيبني اللعنة، وقد زين لي الشيطان المشاهد وأصبحت أحدِّث نفسي.

ـ إيه اللي هيحصل، الصفحة دي وبس، المرة دي وبس.

ولم أشعر بنفسي، ظللتُ أقلِّب الصفحة تلو الأخرى والصورة تلو الأخرى، والمشهد تلو الآخر حتى غدت تلك الصفحات مسيطرة على ذهني بدرجة كبيرة. أصبحت كالمدمنة أنتظر خروجهم بفارغ الصبر، أسير بلا وعي، أجلس أمام الحاسوب أشاهد وأستمتع كمن يتعاطى مخدرًا، فلا أستطيع الاستغناء عنه وإلا أصاب بالجنون. سرتُ على خطوات الشيطان هذه لمدة عام كامل، عام كامل ستر الله عليّ كثيرًا، وعلى الرغم من ذلك كان باعتقادي إنهم لم يعلموا شيئًا لشطارتي ولحنكتي في إخفاء وحذف الصفحات والمشاهد. لم أفكر لحظة أن الله الستير الذي يستر العبد ويتمنى توبته يومًا، هو الذي حماني طوال تلك الأيام، لم أفكر لحظة أني أخفيت كل شيء ولم يعلم أحد ما أفعل، ولكن هل يخفى على الله شيء، سُجلت خطيئتي بصحيفتي، اعتادوا على كتابة أوزاري، حتى أصبحتْ الصحيفة سوداء، بل أشد سوادًا من شعر الرأس.

حتى نتيجتي في الاختبار كانت سيئة جدًّا، وكيف أريد النجاح والتفوق وأنا أسير في هذا الطريق، حتى جسدي أصبح هزيلًا، ولم أستطع استذكار دروسي كالمعتاد، ابتعدت عن طريق الله.

تذكرتُ حينها كلام أستاذ اللغة العربية بالمدرسة حينما كان يذكِّرنا كثيرًا بقول الإمام الشافعي:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي

فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال لي أن العلم نور

ونور الله لا يُهدى لعاصي

رحمكِ الله يا أمي، لو جلستِ معي يومًا وحدثِتني عن الله والخوف منه واستشعارهِ في كل صغيرة وكبيرة لما كان هذا حالي الآن، ولكن أمي كحال معظم الأمهات، تربي أبناءها على الخوف من الناس لا من رب الناس، حتى اعتدتُ على ذلك، وأصبح خوفي من أن يعلم أحدهم أكبر وأعظم من أن الله السميع البصير يراني ويسمعني، ويعلم كل أخطائي. درست كثيراً في المدرسة عن الخوف من الله لكن حفظت تلك الكلمات لتذكرها يوم الامتحان، ولم أستشعر معناها يومًا، حتى تلك الحصص التي يسمونها تربية دينية وأخلاقية لم أذكر يومًا أنها حدثتنا أو حببتنا أو جعلتنا نستشعر وجود الله. كل ما كان يهمها إفراغ ما بجعبتها، وتصحيح الدفاتر، ثم الالتفات لإنهاء باقي مسؤولياتها في دفتر اللغة العربية، ونحن نجالس لنتسامر ونضحك، ولم نستشعر يومًا عظمة الدرس الديني.

السير وراء رغبة غير مشروعة لا بدَّ أن يصحبها يومًا لعنة، وهذا ما أصابني، فلعنة المتعة ضريبتها كبيرة، ولم أعرف هذا إلا بعد فوات الأوان، أخطأت في حق نفسي كثيراً حينما اعتقدت أن تلك المشاهد وتلك العادة اللعينة التي تتبع المشاهدة تجعلني في أقصى سعادتي، فالسعادة الحقيقية في الاستغناء عنها لا في الاعتياد عليها. لم أصَب يومًا بتأنيب ضمير، فقد أخذ الشيطان يغزل برأسي خيوطَ العنكبوت التي تجعل القلب مهجوراً أجوف، النور الذي أضاءه عمِّي داخلي بكلماته الحكيمة، واعتياده على تحفيظي بعض آيات القرآن، أطفأته أنا بالسير في طريق الظلمة والوحشة، طريق ليس به سعادة كما اعتقدت أو توهمت، لم أفق إلا بعد فوات الأوان، وندمت حينها أشد الندم، ندمت ولكن بعد أن أدميت براءتي، وأقحمت نفسي في الوحل، وسرت في طريق الظلمات، حتى جاءت تلك الليلة اللعينة، شاهدت بها الكثير من اللقطات والمشاهد وخلدت إلى النوم.

لم أشعر بالراحة في تلك الليلة، أتقلَّب يمينًا ويسارًا، ظلَّت تلك المشاهد الساخنة والقطات تمر أمام عيني، لم أستطع منعها، شعرت بقشعريرة تسري في جسدي، حتى تسرّب إليّ شعور غريب، والذي ازداد بتزايد وتسارع الصور أمام عيني.

تبّا لي! ماذا حلَّ بي؟!

اشتدت سخونة جسدي حتى شعرتها وصلت للأربعين، لا أدري ماذا حدث، وماذا فعلت ولكني أفقتُ على صوت مكتوم بجواري، إنها أروى، تلك الطفلة البريئة، ماذا فعلت بها؟!! أيعقل أني حاولت استغلال ضعفها.

ياللهول.. اللعنة عليّ، ليتني متُّ قبل هذا، ذلك الشعور اللعين الذي شعرته يومها، شعرت بذنب كبير، إنه جرم قبيح، هل فقدت آدميتي لتلك الدرجة؟!

انتفض جسدي، وكأن أحدهم كمّمني وألقى بي في بئر معبأ بالأسياخ الحادة، شعرت وكأن جسدها يصرخ من الخوف، ورأيت في عينيها نظرة قاتلة.

قمت مسرعة إلى دورة المياه، كدت أتقيأ، فتحت الماء البارد على أشدَّه، رميت بنفسي تحته، لا أستطيع تصديق ما حدث، وكزت نفسي ولكمت وجهي، علّني في كابوس وسأستيقظ منه، ولكن ما حدث حقيقة لا محالة، غريزة فطرية حوّلتها إلى غريزة بهائمية، ماذا استفدت؟! وماذا جنيت غير أني فقدتُ إنسانيتي؟ متعة شيطانية ما إن تنتهي حتى تشعر وكأنك عريت جسدك أمام العالم أجمع، ماذا صنعت بنفسي؟! لو أني وضعت الله أمامي يومًا لما حدث كل هذا، مضى كثيرٌ من الوقت وأنا تحت الماء، والذي يتدفق بشدة ظنًّا مني أنه هكذا سيمحو ذنبي، سأزيل آثار جرمي الشنيع، اعتداء على طفولة بريئة، أتساءل.. ماذا حلَّ بها؟! بماذا تفكر الآن؟ وبمَ تشعر؟ لماذا صمتت؟ ولِمَ لم تصرخ؟! يالله كيف سأنظر إلى وجهها بعد اليوم!! شعور الخوف شعور سخيف يفقدك لذة الحياة، خوف امتلكني حينما تسللت إليّ أصابع ذلك الوغد صديق أخي، وها أنا أعيد الكرّة مرة أخرى، ولكن الآن أنا الجانية، بعدما كنت المجني عليها. أفقت من شرودي على صوت صياح زوجة عمي، أنصتت لأجدها تنعت وتسب وتتوعد لأروى، يالله ماذا حدث؟!

صعقت وارتعد جسدي حينما علمت من حديثها أن أروى تبولت على نفسها، لطمت وجهي، ارتديت ملابسي مسرعة، خرجت وإذ بها تُلقي بأروى أمام أقدام أمنية وتقول بصوت حاد:

ـ شوفيلها بامبرز تلبسه.. أصلنا بنصغر مش بنكبر.

من أين أتت بكل هذه القسوة؟ أين التربية؟ وأين الاحتواء؟ أليست أروى طفلة، ماذا حدث إن أخطأت، وأي جرم ارتكبته كي تعلق لها المشانق؟!
تلك المشانق يجب أن تعلق لي أنا وحدي. اقتربت منهم أكثر، رمقتني أروي بنظرة لم أنسها حتى الآن، نظرة كالسيف شقت جسدي نصفين، وإذ بأمنية تمسح على رأس أروى بحنان، وبصوت أموي رقيق:
- إيه اللي حصل بس، دا إنتِ أشطر بنوتة في البيت كله، وبرضه لسه شاطرة، اعتبري مافيش حاجة حصلت. روحي خدي شاور وغيري هدومك، ويلا عشان تفطري وهوديكي النادي تلعبي مع أصحابك.
ثم قبّلتها. لم تحرك أروى ساكنًا ولم تنطق، الدموع تنهمر من عينيها كالسيل، والتي تحكي قصة ألم منذ أن تنبت من عينيها مرورًا بوجنتيها إلى أن تنتهي على شفتيها المرتعشتين، ثم اقتربت مني وقالت:
- إنتِ ما اتربتيش.. أنا كنت هقول لماما على كل حاجة، بس صدقيني مش هعديهالك أبدًا.
اقتربتُ منها أكثر وقلت لها:
- أروى إنتِ عارفة أنا بحبك قد إيه، صدقيني مكنش قصدي أأذيكي والله، أنا آسفة بجد، ومن النهاردة مش هضايقك أبدًا ومش هنام جنبك تاني، هنام على الأرض بس سامحيني.
ثم حدثتها بصوت حازم:
- إوعي تسمحي لحد يعمل كدا فيكِ تاني مهما حصل، ومهما كان مين، ومهما كنتِ بتحبيه، إوعي تسكتي، أقل حاجة إضربيه بالقلم واجري صدقيني مش هيكررها معاك.
وقبل أن أنهي كلامي إذ بها تصفعني على وجهي بكل قواها، ثم هرولت سريعًا للخارج. لم أغضب منها مطلقًا، بل ابتسمت وفرحت من ردة فعلها، وقبل أن تخرج هتفت بصوت مسموع:
- برافو عليكِ يا أروى، إنتِ أجدع بنت شفتها، وهفضل أحبك.

لكن بداخلي يرتعد، كيف ستكون ردة فعلها، هل ستخبر أحدًا؟ أم ستصمت؟
عدة أشهر وأنا أحاول منع نفسي عن المشاهدة، أشغل نفسي بأي شيء آخر، أغلق غرفة كريم، أفتح التلفاز، ولكن حقًّا لم أستطع، لجأت لأمنية.. لم أحدثها، ولكنني سألتها كيف لي أن أشغل نفسي عن فعل المعاصي، أجابت:
ـ إشغليها بالطاعات، اتقربي من الله أكتر، وكتري من الرياضة، وكمان الاستغفار.
حدثتني بأروع الكلمات التي مسّت قلبي، ثم مسحت على رأسي وقبّلتني ولكني ارتميت في أحضانها وبكيت كثيراً. لأول مرة ينشرح صدري لهذا الحد، لأول مرة أشعر بأن أحدهم يخشى عليّ ويحبني لتلك الدرجة.
كأن أمنية كانت تعلم خطبـي وتعلم ما بي، ولكن لم تحب أن تفشي سري أو تحرجني، لكن أنا لم أستطع كتم ما بداخلي وسردت لها قصتي وإدماني لتلك اللقطات والمشاهد. أريدها أن تعينني أكثر حتى لا أذهب وأتابعها مرة أخرى، ابتسمت لي وأمسكت بيدي وقالت:
ـ أنا كنت عارفة على فكرة إنك مش هتسكتي غير لما تدوري على اللي فدماغك، وكنت خايفة عليكِ جدًّا، وخصوصًا لما لقيتك بتقعدي كتير على اللاب بتاع كريم، حسيت إن فيه حاجة بس محبتش أحرجك. إنتِ عارفة إن إدمانك للمشاهد دي هتأذيكِ وهتضرك أكتر ما تنفعك، وإنتِ بنفسك مشيتي في الطريق دا وحكمتِ إنه طريق للظُلْمَة والبُعد عن الله، اسمعى الآية دي كدا: بسم الله الرحمن الرحيم: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً} صدق الله العظيم.
الشيطان أسرك بشهوة، حولتِ فطرة ربنا خلاها جوانا عشان نعمَّر الكون دا، وننتج أجيال صالحة لشهوة تطفيها بمشهدين مش هيبجي من وراهم غير الهم والنكد والإحساس بالذنب. ربنا ميزنا عن سائر المخلوقات بالعقل، يبقى إياكِ تكوني في يوم زيهم وتلغي عقلك، الغرب بعتولنا المشاهد دي عشان نبعد عن دينا، عشان نخسر آدميتنا، إنت بجد لازم يبقى عندك عزيمة قوية تبعدي عن أي طريق يوصلك للطريق دا، تستغفري ربنا كتير، أوضة كريم متدخليهاش تاني، كل

ما تحسي إن عندك رغبة إنك تتفرجي وتشوفي أخرُجي إتوضي وصلي، وصدقينى ربنا ما بيحبش يعذب عبده، ولو فعلًا لقاكِ صادقة في التوبة، وعندك عزيمة، هيبعدك. وخلي بالك طالما إنتِ قررتي تجاهدي نفسك فإعرفي إنك داخلة حرب مع الشيطان، هيحسسك إن ربنا مش قابل طاعتك ولا توبتك، وإنك غلطتي غلط عمره ما بيتغفر، إوعي تيأسي،لازم تقاومي، جاهدي نفسك، وصدقيني هتقدري.
ثم قبّلتنى بعدما اغرورقت عيناي بالدموع، وشعرت بمدى قبح ذنبي ومدى ضعفي كيف سمحت للشيطان يومًا أن يحكمني.
اهتمّت بي أمنية بعد ذلك الحديث، كانت توقظني لصلاة الفجر، تساعدني في متطلبات المنزل دون علم أمها حتى يكون هناك متسع من الوقت للخروج والتنزه. حرّمت غرفة كريم على نفسي، بدأت أقرأ معها كتاب الله، لم أكن على قدرٍ كبيرٍ بمعرفة أحكامه وكيفية التلاوة، لكن كنت أجلس معها تقرأ وأنا أردد وراءها، أيام لم أنسها، وليتني سرت على ذلك النهج وفي ذلك الدرب طويلًا. إعتمدت على أمنية في إعانتها لي وسعيها الدائم لتغييري، لكن ما إن أصبحتُ بمفردي حتى توقفت عمّا كنت أفعله مسبقًا، وعلمت حينها ولكن بعد فوات الأوان أنك حينما تقرر التغيير تتغير من أجل نفسك، لا من أجل أحد، كن عونًا لنفسك ستكن من السعداء.
لا أحد يعلم قدر سعادتي حينما سمعت كريم يخبر أمنية يومًا أنه يحبني وشغلت فكره وأصبح يشعر أن وجودي شيء مهم في حياته، لكن اجتاحني قلقٌ عارمٌ، ووجدت نفسي تقول: لا.
أمنية حدَّثته أني مازلت صغيرة، ولا يصح أن يصرح لي بهذا مهما كان، إلا بعد ارتيادي الجامعة، وعودة عمي حينها هو من يقرر.
علمت أمنية أني سمعت حديثهما وحدثتني:
ـ شايفاكِ مبسوطة وفرحانة.
ابتسمت وصمتُ ولم أجب، ثم قالت:

- عارفة إنك سمعتِ كلامي أنا وكريم، يا ستي ربنا يسعدك ويبسطك، بس هقولك كلمتين تحطيهم حلقة فودنك، قلبك لسه وردة مغمضة، والورد اللي لسه مفتحش لما نحب نفتحه بنلاقي الورق إتقطع في إيدينا، عشان خاطرى ما تخليش وردة قلبك تفتح قبل أوانها عشان ما تدبلش منك.
رفعت حاجبي وابتسمت، ثم سألتني:
- وإنتِ إيه رأيك فالكلام اللي دار بيني وبينه.
- كريم أخويا وهيفضل أخويا، ومهما كنت بحمل من مشاعر ليه فصدقيني مينفعش أخليه يبقى في مكانة أكتر من كدا، وإنتِ عارفة طبعًا أنا قصدي إيه. كريم أي بنت تتمناه، لكن أنا آخر واحدة يفكر يرتبط بيها مهما كنت بحبه، ومهما قلبي دق له. أنا وطنط لا يمكن نجتمع في بيت واحد تاني، ولا عمري فيوم هرضى إنه يرفع صوته عليها بسببي، ولا هقبل إنها تعاملني بالأسلوب دا تاني. أرجوكِ يا أمنية متعذبوش قلبي أكتر من كدا، والموضوع منتهي لحد ما يشاء ربنا، بس أمانة عليكِ متقوليله إني قولتلك حاجة، ولا تعرّفيه إني سمعت حاجة، عايزة أفضل حاسة باهتمامه وخوفه عليّ.
من أجمل المفاجآت التي أعدَّها كريم لي بالاتفاق مع أمنية هو الاحتفال بيوم ميلادي. بالطبع لو كان الاحتفال بالمنزل لهدَّت زوجة عمي المعبد بما فيه. في ذلك اليوم أنهت أمنية معي متطلبات المنزل، وأعلنت قرارها الحاسم أني سأخرج معها اليوم للتنزه، وحينما علمت والدتها أصرت أن نأخذ أروى. بدا الضيق على وجه أمنية، ولكني لم أفهم السبب حتى وصلنا إلى ذلك الكافيه.. حركة غريبة، أنوار خافتة، إبتسامة أمنية والتي ملأت وجهها قبل دخولنا. وما إن وضعت قدمي على باب الكافيه حتى وجدت صوت الموسيقى تدوي بالأغاني، وبعض الألعاب التي تصدر شررًا بسيطًا. ثم أضيئت الأنوار ووجدتُ كريم أمامي. لم أتمالك نفسي، صرت أضحك بلا انقطاع، وقضينا وقتًا سعيدًا، لم أعِش مثله مطلقًا.

*****

الرغبة في الانتقام كثيراً ما تجعلنا نفقد إنسانيتنا، لكني لم أتوقع أن زوجة عمي ستفقدها إلى هذه الدرجة. لا أدري لماذا فعلت أروى بي هذا، ألمجرد أنها سمعت المكالمة الهاتفية بين كريم و أبيه؟ فما إن سمعت عمي يخبره أنه سيمنحه منزلًا بعيدًا عن أمه، ومن الممكن أن يكون ذلك المنزل قريباَ من مكان عمله، وهكذا ستكون فرصة الشجار ضعيفة ثم قدم له المباركة على خطبتنا مقدمًا، حتى هددتني أنها ستسرد لوالدتها ما بدر مني، وأنها لا تحبني ولا تتمني يومًا أن أصبح زوجة أخيها، ولا يشرفها ذلك بعد ما حدث.

انهمرت الدموع من عيني.. لماذا يقف الفرح على أعتاب بابي؟! لماذا يحدث معي كل هذا؟ أمازلت سأعاقب على ما فعلته؟! وإلى أي مدى سأظل أعاقب؟ لم أستطع التصريح لأمنية أو كريم بما صدر مني، حاولت الحديث مع أروى لكنها مثل أمها، وكأني أتحدث معها لا مع فتاة في الحادية عشرة من عمرها.

حاولت الابتعاد والهروب كلما نظر كريم في عيني، فذكريات الماضي تزكم أنفاسي، تطعن قلبي، لا أدري إلى متى سأتحمل تلك الطعنات، وإلى متى سأظل أنزف دموعًا ودمًا، تغيّرت معاملتي معه كثيراَ.

لأول مرة أمسك قلمي وأخط بدفتري بضع كلمات.

"سأعلنها لك أني هويتك، فأنت من علمتني أن أسمع نبض كلماتك، وأحاول أن أمد يدي وأنعم بلحظة تتشابك فيها أيدينا، فأرحل معك إلى السعادة التي نحلم بها، فأنت كلمة صادقة، ورسالة شوق ظهرت في حياتي، سحر كلماتك وصدى صوتك هما عالمي، أريد أن تبقى بجانبي حتى تستمر حياتنا، ولكن كيف ونحن مثل الشمس والقمر لا يجتمعان!؟"

وفي يوم لم أستطع التحمل أكثر من ذلك، تحدثت مع أمنية علَّ كريم يسامحني إن وشت أروى بأي حديث لأمها. لم أسرد لأمنية الحقيقة كاملة، لكن قلت:

- لما أروى عرفت إن عمو وافق وإن كريم خلاص قرر يرتبط بيّ أول ما ينزل هددتني، وقالت إنها شافتني مرة وأنا بتفرج على مشاهد مش كويسة، وقالت إنها هتقول لمامتها وإني كمان ضايقتها وإتعديت على طفولتها، بس دا ما حصلش

ولا عمري فكرت في كدا. وقالت إنها بتكرهني، وإنها مش عايزاني أكون مرات أخوها، أنا بقولك كدا مش عشان تحكي لكريم حاجة، أنا فعلًا مش عايزة مشاكل، أنا عايزاكِ تقولي لكريم إنه خلاص ينسى إنه فيوم يرتبط بيّا، أنا بقولك بس عشان ميفتكرش إني لعبت بمشاعره، ولا ضحكت عليه. لو سمحتي مش عايزة أخسر أكتر ما خسرت، وخلينا إخوات أحسن.

لم تبالِ أمنية بما قلت لها وسردت لكريم الخطب كله، فتملكه الغضب وقرر صفعها ومعاقبتها، ذهبت لأروى وحدثتها أن تصفح عني وتنسى ذلك الخطب، لكنها نظرت إليّ بعين ماكرة وقالت بلهجة غريبة:

- أنا فعلًا هنسى، وهنساكِ إنتِ كمان.

ثم تركتني وذهبت لتلعب مع صديقاتها، جلست في الغرفة أحدث نفسي ماذا سيحدث، فأنا اعتدت أن القدر يهوي بي كيفما يشاء، ولكن الشيء الوحيد الذي لم يخطر ببالي يومًا أن تتحول زوجة عمي وتصبح بتلك الوحشية.

جذبتني من شعري وألقت بي على الأرض وانهالت عليّ ضربًا وسبّا، لم أحادثها أو أقل لها ماذا تفعلين، فهذا ذنبي ولا بدَّ يومًا أن أكفِّر عنه، وعلمت حينها أن أروى وشت بما أرادت، ولا أدري إلى أي حد تمادت في الحكي.

ثم قالت بعدما أدمت جسدي:

- ربنا يلعنك وإن شاء الله تولعي في نار جهنم، يا اللي كنتِ عاملة فيها شريفة عفيفة، وهييجي الشرف منين وإنت كنتِ بين أحضان صاحب أخوكِ.

لم أتمالك نفسي، انهرت كثيراً وبكيت، صرخت ودعوت الله أن ينتقم منها وأخذت أردد:

- حسبنا الله ونعم الوكيل فيكِ، إنتِ مش بني آدمة.

ولكن قبل أن تغلق باب الغرفة حدثتني بلهجة غليظة:

- مش هستحمل وجودك أكتر من كدا، قدامك خيارين: يا تغوري من هنا ومشوفش وشك نهائي، يا إما إن شاء الله هجوزك، واهو تتلمي بدل ما إنت مش

عارفة تلمي نفسك. ومادام ماجاوبتيش، فالجواز أحسن، وهتفضلي هنا زي الكلبة وعمك بقى سبيه عليّ أنا هعرّفه حقيقتك.

صدمتي من حديثها جعلتني غير قادرة على الحديث أو حتى الصراخ بداخلي، الصداع كاد يهشم عقلي، التصقتُ في الحائط حتى صار جزءًا منِّي، كوّرت نفسي وذراعي، وخبأت رأسي بها حتى وجدت كريم وأمنية أمامي يحاولان هدهدة جراحي. لم أجب على أحد، ولم أتحدث، تركنا كريم ثم سمعت صوت شجار عنيف مع والدته.

أمنية تمسح دموعي وتُعيد ترتيب خصلات شعري، تضع يدها على وجنتي وتحاول معي بكل الطرق أن أتحدث، حتى وجدتُ كريمًا أمامي وهو يقول:

- زهرة إنتِ لازم تمشي، أنا مش هسمحلها إنها تجوزك، زهرة إنتِ سامعاني، روحي بيتك، سافري لحد من قرايب مامتك، بس إنك تقعدي فمش هسمحلك، أنا كلها ساعة وهمشي، لازم دلوقتي أسافر ومش هرجع قبل ست شهور، أرجوكِ إمشي من هنا، واحنا مش هنسيبك. أمنية هتوديكي لحد من صحباتها لحد ما أرجع من الشغل، وهكلم بابا وأحكيله، إياكِ تستسلمي ولا تمشي من غير ما تقولي إنتِ رايحة فين.

غادر كريم وظلت أمنية بجواري تحاول إطعامي، لكن في النهاية لم أتمالك نفسي انهرت بالبكاء، ارتميت بين ذراعيها:

- إهدي يا حبيبتي، طب قوليلي نويتِ على إيه؟

مسحت دموعي حاولت استجماع قواي وأنا أقول لها:

- هتجوز!!

صرختْ بوجهي وتركتني وذهبت لوالدتها، ولم أدرِ ما حدث بعد ذلك، غلبني النوم أم وقعت على الأرض مغشيًا عليّ.

** ** **

الفصل الرابع

*****

صوت شجار اخترق الصمت في البناية كلها، انتفض جسد نيرة زوجة الدكتور مالك، وازدادت ضربات قلبها، فصوت الشجار من منزل عم فتحي. تسرب الخوف إليها خشية أن يكون الشجار بسبب ضياع دفتر المذكرات. أغلقت الأجندة مسرعة وأخفتها تحت وسادة الكرسي الذي كانت تجلس عليه، فتحت باب الشقة بحذرٍ شديدٍ، خرجت على أطراف أصابعها، واستندت بيدها على حافة سور السلم وأمالت رأسها قليلًا علَّها تفهم ما الخطب.

عم فتحي يصرخ بين يدي الضابط:

ـ والله يا بيه أنا ما اعرف حاجـة عن الأجندة، م انتو فتشتوا الدار.

ضربه الضابط على رأسه:

ـ إنتَ هتستعبط!! أومال الحاجات دي جت عندك إزاي، سرقتها صح؟! ما هو مش بعيد كمان تكون إنت اللي ضربتها.

ارتفع نواح زوجته كمن يستنجد بمن حوله، ذلك الصوت المعتاد سماعه في المآتم والشجار، عم فتحي ظلَّ يتحدث بخوفٍ شديدٍ وبلهجةٍ سريعة، وينكر أية تهمة نسبها إليه الضابط، يقبِّل يده تارة ويترجاه تارة أخرى.

ندى خائفة ترتجف، جالسة بجانب كرسي خشبي ضامَّة رجليها إلى صدرها، ممسكة إياها بيديها، والدموع محبوسة بعينيها تريد التحدث والاعتراف، وماذا سيفيد الاعتراف الآن بأن الأجندة كانت معها، ففي كل الأحوال اختفت الأجندة، ففضَّلت الصمت عن الكلام الذي سيُلحق بها العقاب من أمها لاحقا، والتي لطالما تضربها وتسبها وتدعو عليها دائمًا لمجرد خطأ صغير ارتكبته، فكيف سيكون عقابها إذن لو علمت أن الأجندة كانت معها؟!! مر الحدث سريعا أمام عينها فحينما طلبت والدتها الأكياس ثم مدَّت يدها الصغيرة تحت حشوة السرير وجذبتهم، لفت انتباهها تلك الأجندة التي سقطت على الأرض، لم يشغل بالها ما هذا بقدر فرحتها بها؛ فمن البارحة تبحث عن شيء ترسم فيه وتلعب هي وصديقتها،

خبّأته تحت فستانها، وأعطت أمها الأكياس وذهبت خفية مسرعةً لصديقتها في الطابق العلوي، جلست على السلم، فتحت الدفتر قطعت الصفحات الفارغة ثم وضعت الدفتر جانبًا. أخذا تتبادلان الألوان وهما مستمتعان بالرسم. ثم نادت والدة صديقتها عليهم ليتناولوا الشطائر التي أعدَّتها، فرِحوا كثيراً، تركوا الأوراق والألوان على الدَّرج وذهبوا لتناول الطعام، ولا تدرى بعدها ماذا حدث وأين ذهبت الأجندة.

ازداد نواح زوجته وقد سحبه الضابط من ملابسه ووضعه في عربة الشرطة رغمًا عنه.

*****

فتاة في الــ ٢٥ من عمرها، ترتدي ثوبًا أنيقًا فضفاضًا من اللون الأحمر القاني، يتخلله بعض الرتوش من اللون البني ذو الدرجة الفاتحة، غطَّت شعرها بحجاب يتجاوز حدود أكتافها وينسدل إلى ما بعد انحناءة صدرها، بينما يتخفَّى وجهها خلف نقابها الذي تلائم مع مزيج الألوان في ملابسها، تقف أمام باب البناية مندهشة متعجبة، ماذا فعل عم فتحي؟! دخلت مسرعة إلى زوجته:

- إيه اللي حصل يا طنط؟!

لم تجبها، ظلت تلعنهم وتنعتهم وتدعو الله أن ينتقم منهم، ويسلط عليهم من لا يرحمهم.

قرأت الورقة الموضوعة على المصعد أنه معطل، ثم صعدت على الدرج، ومن داخلها تدعو الله أن يفرج همهم.

تنفَّست نيرة الصعداء، ولكن ضميرها دق كجرس ناقوس وداخلها صوت يردد "هيحصله مشكلة بسببك". حاولت كتم ذلك الصوت ورددت " وأنا مالي، ما هو كان مرمي عالأرض".

تذكرت يوم عودتها من الخارج ثم أعطت عم فتحي المفتاح لوضع السيارة بالجراج، حملت حقائبها، واعتذر لها عن العطل الذي حدث بالمصعد، ثم عرض عليها حمل الحقائب، رفضت، فهي ليست بالحِمل الثقيل. صعدت وهي منهكة

من العمل، ثم وضعت حقائبها لتسترح للحظات، لفت انتباهها تلك الأجندة، زادت ضربات قلبها، وسرت رعشة خفيفة بجسدها، فهي تعرف جيدًا تلك الأجندة التي أعطتها لزهرة لكتابة مذكراتها، حملت حقائبها والأجندة وهرولت سريعًا لشقتها قبل أن يرها أحد.

*****

أفاقت من شرودها ولم تكد تغلق الباب حتى وجدت ابنتها أمامها، ابتسمت لها وقبّلتها ثم أخذتها بين أحضانها، أغلقت الباب ورحّبت بها.

سألتها حبيبة عمّا حدث لعم فتحي، أجابتها ألا تشغل بالها بتلك المسألة، فعادت تسألها:

ـ زهرة عاملة إيه دلوقتي يا ماما، أنا فكرت أزورها، صعبانة عليّ قوي.

أجابتها أمها بحزن شديد:

ـ ربنا يقومها بالسلامة.

ـ لسه مافيش أخبار عن نادين؟

تنهّدت نيرة ثم اعتدلت بجلستها قائلة

ـ لا، ربنا يرجعها بالسلامة. بصي أنا شاكّة في حاجة بس عمري ما هقولها لحد ما أتأكد منها الأول عشان معيشهمش في قلق ورعب.

ثم أتبعت:

ـ ربنا يسترها يا بنتي والله، الواحد بقى قلبه يتقطع على الحكاوي اللي بيسمعها.

أخذت تسألها عن حالها وحال زوجها ووالدته، رفعت حبيبة نقابها وقد سقطت الدموع رغمًا عنها وارتسم الهم على وجهها. تسرب القلق إلى قلب نيرة، وشعرت أن هناك مشكلة، اقتربت منها أكثر حاولت معرفة السبب. حاولت حبيبة مسح دموعها ثم قالت بصوت مرتعش:

ـ ماما أنا عايزة أخلّف.

ابتسمت نيرة ابتسامة حانية وقبّلت جبينها، وضعت يدها على خدها وبالأخرى أمسكت يدها:

ـ إن شاء الله بكره هتكوني أحلى وأجمل أم، متستعجليش إنتِ بقالك سنة ونص بس، أكيد ربنا مأخر الحمل لسبب محدش يعرفه، فين إيمانك بربنا ويقينك إنه مش هيخذلك أبدًا؟

ظلت تسرد لها بعض المواقف والمضايقات التي تصدرها والدة زوجها، تلك التلميحات السخيفة وأن من في مثل سنها لديهم ٣ أطفال، وكثيراً ما تشكك بأن سبب التأخير منها.

تضايقت نيرة كثيراً ولكن لم تُبدِ لها ذلك، ابتسمت لها:

ـ متزعليش منها، هي في مقام والدتك، احتسبي كل حاجة عند ربنا، المهم إن زوجك متفهم الوضع، وبعدين إنتو الاتنين كشفتوا والحمد لله، يبقى خلاص بقى نستنى تدابير ربنا. مش يمكن لو حملتِ دلوقتي لا قدر الله ميكملش أو مثلًا يبقى معاق، أكيد ربنا يا بنتي مابيحبش يؤذينا أو يوجع قلوبنا، بس الإنسان دايمًا بيستعجل الأمور، وإنتِ عارفة إن من استعجل شيئًا قبل أوانه عوقب بحرمانه، ادعي ربنا دايمًا بـ {ربِ لا تذرني فردًا وأنت خير الوارثين}، استغفرى، وطلعي صدقة، وخصصي دايمًا إنتِ وزوجك ركعتين في القيام بنية ربنا يرزقكم الذرية الصالحة، ربنا أوقات كتير بيكون مأخر الإجابة لأنه بيحب يسمع صوتنا بالدعاء.

ارتمت حبيبة بين أحضان والدتها، ظلّت تقبلها وتدعو الله أن يديم بينهما المحبة.

طلبت منها نيرة أن تخلع حجابها وتغسل وجهها وتبدل ملابسها، فوالدها قادم وسيتناولون وجبة الغداء سويًّا، اعتذرت حبيبة:

ـ معلش يا ماما والله عادل ما يعرف إني جيت، أنا كنت رايحة أقص شعري وأصبغه، ولما لقيت نفسي قريبة قلت أعدي عليكِ وحشتيني.

قبلتها ثانية، حملت حقيبتها، رتبت حجابها وطلبت منها أن تقبل والدها، ووعدتها بزيارة خاصة، ستجلس معها طوال اليوم، ودَّعتها بقبلات حارة ودعوات رقيقة أن يريح الله قلبها ويديم المودة بينها وبين زوجها.

أغلقت الباب وقررت العودة مرة أخرى للقراءة، ولكنها سمعت الأذان، فتركت الأجندة وقررت الذهاب للصلاة أولًا، وبعدما فرغت شعرت بثقل كبير في رأسها رفعت يدها، سحبت الوسادة ووضعتها على الأرض، ثم مددت جسدها.

*****

أخرجت حبيبة مفتاح شقتها وأصدرت زفرة تنم عن ضيق كتمته بصدرها، فتحت الباب وهي تفكر ماذا سأعد على الغداء، أغلقت الباب لكنها شعرت بشيء غريب في الشقة، تعجبت وسرى القلق بداخلها، مشت ببطء لتجد بعض الورود الحمراء في مزهرية صغيرة على طاولة الطعام، ابتسمت وزادت ضربات قلبها وعلمت أن زوجها في الشقة، ذهبت ناحية الورد ظلت تستنشق رائحته الزكية، خفق قلبها بقوة وكادت الدموع تسيل من عينيها حينما قرأت تلك الكلمات التي كتبها لها:

(بحثتُ في كل قواميس الحب والعشق عن كلمة توفيك حقك فلم أجد سوى كلمة أحبك،

وبحثت في كتب الشعراء والمبدعين عن بيت شعر يليق بك فلم أجد غير كلمة أحبك،

وبحثت عن هدية تعطيك قدرك فلم أجد أغلى من كلمة أحبك،

وسهرت ليلي وأغمضت عيني وخيالي يداعب أحلامي وأنا أهمس أحبك،

وأمسكت قلمي وبدأت أخط عبارات الشوق، عبارات الحب وأنهيتها بـ أحبك.

حبيبتي، ضاعت مني العبارات، ولم تبقَ سوى أحرف كلمة أحبك، فلممتها وجمعتها وكتبتها، وها أنا أرسلها إليكِ أينما تكونين اقرئيها اكتبيها احفظيها، وإياك أن تبددي أحرفها، فهي رباطي بكِ وعهدي إليكِ، إنها أحبك.

(أحبك آسرتي)

خانتها الدموع وتساقطت رغمًا عنها حتى وجدت يدًا حانيةً تحوط خصرها. التفتت إليه فوجدته يبتسم، لم تستطع الحديث، تضحك تارة وتبكي تارة، رفع

يدها وطبع قبلة بداخلها ثم ضم أصابعها لتحتفظ بتلك القبلة فهو يسميها دائمًا قبلة المحبة، مسح دمعاتها وقال بلهجة كوميدية:

ـ بقى أنا جايبلك ورد وعاملك فيها نزار قباني ومألف خاطرة مافيش بعد كدا وبرضو تعيطي، يعني أجيب ورد تعيطي مجبش تعيطي، أنا طول عمري أقول الستات دول نكديين محدش بيصدقني.. بس قمر في كل أحوالك.

لكمته لكمة صغيرة على كتفه، وابتسمت وهي تردد:

ـ ربنا يخليك ليّا وميحرمنيش من مفاجآتك الحلوة دي، ثواني والأكل يكون جاهز.

لم يعطها فرصة للحديث، أمسك يدها وهم مسرعًا ناحية غرفة النوم وهي تحدثه:

ـ رايح فين يا ابني اصبر أغير هدومي، طب أتغدى الأول.

وقفت أمام باب الغرفة وظلت تضحك حينما وجدت طاولة وعليها بعض الشطائر المحببة لها، وبعض الشموع الرقيقة التي أعطت للغرفة منظرًا خلابًا، اقترب من أذنيها وهمس بها:

ـ عرفتِ أنا كنت عايز إيه.. دماغك دي هتوديكِ فداهية.

ابتسمت ثم ضحكت ثم ارتمت في أحضانه وهي تردد:

ـ إنت أحن وأجمل زوج شوفته في حياتي.

بكت لأنها تعلم وعلى يقين أن الله سبحانه وتعالى يعوضها دائمًا كلما صبرت على إيذاء والدته، كم أعطتها من الكلمات القاسية وبكل مرة تحتسب ذلك عند الله، تجد زوجها يعاملها أفضل معاملة حمدت الله كثيراً.

جلسا يتناولا الشطائر، نظرت له برقة وقالت:

ـ بجد متعرفش إنتَ فرحتني قد إيه، مكنتش مصدقة نفسي.

ـ أنا كمان مكنتش مصدق نفسي، تفتكري أنا طبيعي؟!! أنا حاسس إني عيان.

نظرت له بحدة ونقرت بالسكين نقرة صغيرة على الطاولة:

ـ ليه بقى، هو الراجل لما يفرح مراته ويقولها كلمة حلوة يبقى مش طبيعي.

ـ يا سبحان الله، بتتحولوا فثانية، مبيتمرش فيكوا معروف، لا يا ستي بجد أنا حسيت إني قصرت في حقك الفترة اللي فاتت، وإنت مبتمليش يوم إنك تفرحيني، دايمًا مجددة من نفسك وشكلك، عايزة تدخلي السرور على قلبي، بتتحمليني وقت زهقي، بتمتصي غضبي، ملقتكيش مرة بتشتكي، فلما قعدت مع نفسي كدا قولت يا واد يا دولا، إنتَ لازم تفرح حبيبة قلبك، وتستعيدوا يوم من أيام زمان، لكن طبعًا بعد رفعه السكينة دي الصراحة أنا أخاف على حياتي ومش هقصر تاني، وربنا يستر.
تبادلا كلاهما الكلمات الرقيقة والدعوات الحانية أن يدم الله بينهم المودة والسكينة.

*****

جلس على مكتبه أشعل عدة لفافات من التبغ، يربط الأقاويل ببعضها، يحاول جمع الخيوط علَّه يصل إلى الحقيقة، اتصل على معاونه ليعلم آخر الأخبار، دار بينهما حديث طويل، ولا بدَّ من إنهاء قضية مازن، فقد انهالت عليه كثير من الاتصالات لمعرفه أخبار القضية.
ـ يا حسام بيه ما إنتَ عارف إن مازن بيه علاقاته النسائية كتير، وبلاويه أكتر، ياما ظَلَم ناس وبهدلهم، أكيد حد قرر ينتقم منه. والله يا ريس خلاصة الكلام إحنا نقول إن اللي قتله ٢ من الإرهابيين ونخلّص القضية دي ونريح دماغنا، وأهي العيال موجودة ملقحة فالسجون، نقيلك اتنين وإنتَ عارف الإعلام وشطارته.
صاح به في غضب:
ـ شكلك مش هتعمّر معايا يا سامى.. إحنا شغلنا نشوف الحقيقة مش ندنسها، وعمري ما هبقى فيوم من الأيام زي مازن وأمثاله، ولا إني أحط حبل المشنقة حوالين رقبة حد مالوش أي ذنب، فهمت ولا أقول كمان؟!
ثم أغلق الهاتف دون سماع رده، وألقى الهاتف على المكتب أمامه وأشعل سيجارة أخرى، عدة نقرات ثم فتحت ابنته أسيل باب المكتب، اختنقت من دخان السجائر، فتحت زجاج النافذة وهي تحدثه:

ـ حرام عليك يا بابا كل اللي بتعمله في نفسك.
لم يجبها، اقتربت منه أكثر وهي تقول:
ـ عايزة أتكلم مع حضرتك شوية.
أجابها بضيق:
ـ سبيني دلوقتي ونبقى نتكلم بعدين، أنا نازل المديرية دلوقتي.
همست بضيق شديد:
ـ وهو من إمتى حضرتك بتفضى.
ثم أكملت بصوت مسموع لكن ليس بالدرجة العالية:
ـ أنا بنتك، وزي ما الشغل له حقوق عليك، أنا كمان ليّ حقوق، بس أنا عاذرة حضرتك عشان القضية اللي ماسكها.
خرجت من الغرفة وأغلقتها كما كانت، وقفت أمام المرآة التي تجاور باب الشقة ورتبت خصلات شعرها ثم سحبت حقيبتها في عدم رضا وخرجت لمقابلة صديقاتها.

*****

لفت نظر نيرة فتاة بالحديقة تقلم زهورًا، وكل زهرة تقلمها تقطفها فتجرح يدها وتسيل الدماء على يدها، لم تعبأ بما حدث وتكرر هذا مرات، ذهبت لتحدثها فوجئت أنها زهرة، وقفت أمامها وتنصحها أن ما تفعله خطأ فقد أصابت يدها بما يكفي من الجروح، لكنها لم تلتفت إليها ولم تجب، ومضت في طريقها تقلم الأزهار ثم تقطفها فتجرح، صرخت نيرة بأعلى صوتها وهي تقول:
ـ إنتِ ليه بتعملي في نفسك كدا، إنتِ مبتسمعيش نصيحة حد، وآدي النتيجة، إنك مجروحة وموجوعة، ماشية بدماغك وبس، روحي يا زهرة واتحملي نتيجة غلطك. ثم جلست على أقرب أريكة واغروقت عيناها بالدموع.
قامت فزعة من نومها على يد توضع على وجنتها وتردد بهمس:
ـ نيرة إنتِ نايمة على الأرض كدا ليه؟

تلفتت يمينًا ويسارًا وعلمت أن ما مرّ بها كان حلمًا كسابقه، فذلك الحلم تكرر مرارًا معها منذ معرفتها بزهرة.

نظرت لزوجها وقد هدأ من روعها واطمأن قلبها حينما سردت له أنها فرغت من الصلاة واستلقت أرضًا حينما شعرت بإرهاق من كثرة العمل، نظر لها بحنان ودعا الله لها أن يعينها، أمسك بيدها حتى تستعيد نشاطها ثم قال:

ـ هاكل إيه من إيديكِ الحلوين دول، أنا ميت من الجوع، هاخد شاور وأصلِّي.

ابتسمت وهمت بالوقوف وهي تسرد له ما حدث اليوم مع عم فتحي، وابنتها حبيبة، وما قرأته في تلك المذكرات.

سأل على أحوال حبيبة وطلب من نيرة إحضار الأجندة لقراءتها بعد تناول وجبة الغداء، حدثته عما قرأته وأنهت كلامها:

ـ هي فعلًا حكتلي معظم الكلام اللي قريته، أنا مكملتش قراية بسبب اللي حصل، بس أنا بجد نفسي أعرف مين اللي عمل فيها كدا؟

ـ خلينا ناكل بس وبعدين يحلها ربنا، وإن شاء الله هروح أزور زهرة، محتاج أتكلم معاها شوية.

خلد لغرفة المكتب الخاصة به، فتح دفتر المذكرات وبدأ يقرأ:

(مرت ساعات العرس كأنها سنوات، تمنيت أن أصحو من ذلك الكابوس، زوجة عمي تتفنن في إتقان دورها بأنها الزوجة الحنون التي تتمنى السعادة لغيرها، تضحك وتطلب من الجميع الفرح والمرح والتصفيق والتهليل، فهو عرس زهرة ابنتها الرابعة. أما أمنية، فقد احمرّت عيناها من كثرة البكاء، ولم تخرج من غرفتها، ولم أرها في ذلك اليوم. عمي حدثني هاتفيّا وأعاد عليّ السؤال مرارًا وتكرارًا:

ـ إنتِ موافقة على الجوازة دي، ولا حد أجبرك عليها، وليه مش هتتجوزي كريم؟

لكنني أجبته بالموافقة، وحاولت إطلاق بعض الضحكات التي تنم عن خجل فتاة في مثل موقفي. أخي بارك لي ذلك العرس ودعا لي كثيراً وأخبرني بأنه سيسافر بعد

غد للعمل بالخارج، حينها لم أتمالك نفسي وقد سالت الدموع، ولأول مرة بدون شعور مني، وجدت نفسي أحتضنه وأقول له بصوت مرتجف:

ـ متنسانيش ولا تنسى تسأل على أختك، أنا ماليش غيرك.

حاول تهدئتي قليلًا وقد أمرته المسؤولة عن تزييني بالخروج، فقد أفسد ما فعلته، ظلت تثرثر كثيراَ عن فتى الأحلام ثم قالت:

ـ إنتِ مستعجلة ليه، عيشي شبابك.. من حلاوة الجواز يعني!!

ثم تحدثت عن يوم البناء، ولكنها كانت تتحدث بلهجة سوقية أغضبتني كثيراَ، انفعلت عليها ولم أتمالك نفسي حتى وبختها وصرخت بوجهها أن تصمت نهائيّا.

أعطاني أخي كثيراَ من النقود، نصيبي، فقد طلبت منه بيع المنزل فأنا سأتزوج وهو سيسافر ولن يعود أحد للمنزل مرة أخرى. جلست شاردة أتذكر تلك الأيام التي سبقت العرس، ذلك السيد الذي أحضرته لي، لا أدري من أين، لكنني علمت أنه تقدم لخطبة ابنتها الكبرى، ورفضت رفضًا تامًّا، فمن الطبيعي أن تأتي لي به، أكنت أعتقد يومًا أنها ستزوجني من حسن الخَلق والخُلُق؟

أتت لي يوم مجيئه وحدثتني أن العريس المنتظر قد حضر، ولا بدَّ من استقباله أحسن الاستقبال، وإن خالفت أمرها أو اعترضت أو تحدثت بما ليس لي، ستوبخني وتفضح أمري لعمي. ارتديت ملابسي وأمنية تمنعني وأنا لم أبالِ بأي حديث، خرجت لأجد ذلك السيد يجلس على الكرسي المقابل لباب الغرفة، لم أتمعن بأي تفاصيل، ولا أدري إن كان وسيمًا أم لا؟ أنيقًا مرتب الثياب أم لا؟! شعرت في تلك اللحظة كمن أصابها العمى، رسمت الابتسامة على وجهي وكنت أبتسم كلما وجهت زوجة عمي لي الحديث، ولم أتفوه بكلمة واحدة وأنا أسمعها تبيع وتشتري في اتفاقنا على كل شيء، وحينما هموا بقراءة الفاتحة وسمعت أن عقد القرآن والزفاف بعد عشرة أيام فقط، حينها علمت أن الدنيا اسودت، قتلتني بسكين بارد، مرت ذكرياتي معه في العشرة أيام مرور الكرام، أبكي فقط على حالي وما آل إليه.

حتى يوم العرس شعرت بعدم توازنه، كمن تعاطى شيئًا قبل مجيئه، ينظر إليّ ونظراته كلها تشتهيني، وقد سال لعابه كلما تمعن النظر فيّ. تذكرتُ أمي وأخي، تذكرت عمي، ليت أحدهم بجواري الآن.. لما حدث لي كل ذلك.

فرغ العرس وحملني مسرعًا إلى المنزل، وكالمعتاد تهنئة وتبريك وارتفع صوت الزغاريد، أصدقاؤه يصفقون، وكل منهم يردد:

ـ ارفع راسنا يا بطل.

لا أتذكر تلك اللحظات التي تبعت إغلاق باب الشقة، ولا أريد تذكرها. عيناي يملؤها الفزع، تتحدث عن طفولة قُتلت وبراءة سُلبت في ظلام تلك الليلة البائسة التي سطرت لحظات الألم والرهبة، كتبها هو بعنف الجسد وسطو الروح، أخذني عنوة كفريسة اشتاق لها الذئب بعد سنوات الجوع والحرمان. لم أتمكن من السيطرة على دمعاتي، بتُّ ليلتي ولسان حالي يقول: يا ليتني مت قبل هذا، قبل اغتصاب الروح بالنظرة، واغتصاب الجسد بالقوة. أصابه الجنون، فخدش حياء النفس بكلماته وتمتماته، امتلكني بغير سلطان لإثبات رجولته، أي رجولة يتحدث عنها، أما كان أولى بك أن تحتويني؟! تحتوي عقلي النامي، تأسر قلبي بالكلمات، تجعلني أنا من أرغب بتلك اللحظات؟ ورغم الرغبة التي كانت تعترينى سابقا وحلمت يوما بلحظة كتلك، إلا أنها قد تمزقت وانتُهكت تحت غلظته وقسوته وحيوانيته المفرطة، وبات الحلم كابوسا.

كف اللسان عن النطق، العقل يقظ من الهول، القلب ينكر كل ما حدث، النفس مذبوحة، إنه الكابوس اليقظ.

ألن تمضِ تلك الليلة؟ لماذا تأخر الفجر؟ كيف فعل بي هذا؟

تغيرت معاني الرجولة، تبدل الحال، تشوّه الأمان، فتعرى الإحساس من ثوب الإنسانية، وتوشح بوشاح المادية، سيطر شيطانه عليه، لم يدرك بشاعة ما حدث.

مزق قلب طفلة لم تع حقيقة الوحشية إلا بين يديه، وحشية أبشع من تلك المشاهد التي ترسخت في قلبي وعيني، تتوالى بذاءاته، أيصر ألا يُبقي شيئًا بريئًا بداخلي.

أيعقل أن يكون قد تناول ما يُذهب عقله؟ ألا يكفي رعشتي وانتفاض جسدي ليتركني، ربما أنسى ما حدث، أذهب في سبات فتوقظني إحدى زميلاتي، لقد كنت بحلم أليم.

مرت تلك الساعات حتى طلوع الفجر كالكابوس، وانتهى الأمر حينما جذبني من شعري واقترب وجهه من وجهي أكثر وهو يقول وكأن اليقين ملأ قلبه:

- إنتِ مش بنت.

رباه.. ما الذي أرى وأسمع؟ وبعد كل ما حدث.. أيتهمني في شرفي؟ ولم يمسه أحد!! عيناي الحمراوتان، شعري المبعثر، جسدي المنهك، أكُلُّ هذا ليس بدليل، لابدَّ أن ما سمعته مستحيل، هل يطعن القلب العليل؟ يتركه يحتضر ثم يطلب التعليل عن أوهام برأسه لمجرد انحباس الدم القليل، تبّا لهذا العقل الذليل المسيطر عليه تلك الأقاويل.

هاتف زوجة عمي وقد طلب منها أن تحضر فوراً، وهو يقول لها بكل غضب أن ابنتهما المصون ليست ببكر، وظلَّ يطعن في شرفي، ثم أغلق الهاتف في وجهها. لا أدري كم مر من الوقت جالسة على السرير، جسدي يرتعش، عيناي لا تكف عن الدموع، وهو كالثور الهائج يدخل الغرفة يصفعني على وجهي ويلعنني، ثم يخرج ويغلق الباب بقوة وراءه، حتى وجدت أمنية أمامي، صرخت بأعلى صوتي وارتفع صوت نحيبي، وارتميت بين أحضانها أرتعش وأردد:

- والله ماحد لمسني، والله ما عملت حاجة غلط.

دخلت زوجة عمي وقد امتلكها الغضب وانطلقت من عينيها نظرات مزرية مقيتة، وأشارت إليّ بأصابع اتهام باطلة وهي تتحدث عن الشرف والعفة التي كنت أتفنن بصنعها، وأعادت فتح ذلك الموضوع اللعين وما فعله صديق أخي بي وكان سبب موت أمي، ثم صفعتني على وجهي وهي تقول:

- جبتلنا العار، والله تستهلي قتلك.

صاحت بها أمنية وصرخت بوجهها لأول مرة، وظلت تجادلها وتسب ذلك الثور القابع بالخارج، وأن كليهما لا يملك أي ذرة من الرحمة أو الإنسانية. فكيف حكم

عليها ذلك الحكم اللعين! وكيف يعاملها بهذا الشكل الوحشي! أليثبت لنفسه أنه رجل، فهو بفعلته هذه لم يصل إلى حد الذكورة من الأساس، ألهذا الحد عَمِيَ عقله وقلبه، ألهذا الحد يخدش حياءها ويكسر قلبها، ألم يشعر وهي بين يديه إن كان أول رجل اختلى بها أم أنها عديمة الشرف، إنه أغبى رجل رأيته في التاريخ.
نظرت لها والدتها بكل احتقار:
ـ إنتِ بتدافعي عنها كدا ليه؟ مش إنتِ دكتورة.. شوفيها بقى إن كانت شريفة ولا لا.
صرختْ بأعلى صوت لها:
ـ شريفة ومحدش لمسها، ودي حاجة أنا متأكدة منها.
لم تتمالك نفسها واغرورقت عيناها بالدموع، أغلقت الباب خلف والدتها، حاولت أن تتمالك نفسها. تمنيت أن تصرخ بي، توبخني، أنا من فعلت بنفسي هذا، وافقت على تلك الزيجة التي بددت كل شيء جميل داخلي. حاولت أمنية تهدئة ملامحها، والتفتت إليّ، ابتسمت واقتربت مني تحاول تهدئتي، مسحت دمعاتي وحدثتني بكل حب وثقة، أعادت الطمأنينة إلى قلبي، وأنها بجواري ولن تتركني مهما حدث، وشرحت لي كيف أتعامل وأتفهّم الوضع. احتضنتني بقوة، وتساقطت الدموع رغمًا عنها، خرجت وأغلقت الباب ثانية، قمت مسرعة وأغلقته بإحكام بالمفتاح وقد تعالى صوت شجارهما.
ـ مش عارفة أقولك إيه؟ إنتَ متصلحش تكون زوج ولا تنفع، كل اللي تقدر عليه إنك تجمع شوية بهايم تسوقهم وتربيهم، دول الفئة الوحيدة اللي تعرف تتعامل معاها، إنتَ مش متخيل عملت إيه في البنت دي، إنت فاكر كدا إنك أثبت رجولتك ورفعت راسك، طب وهي بالنسبالك إيه؟ مفكرتش فيها؟ دي مراتك يعني كان لازم تحتويها.. تفهمها.. تهدي من خوفها. اليوم دا اللي أكتر زوجين بيكونوا في قمة سعادتهم، إنتَ خليته أتعس يوم فحياتها. البنت اللي جوه دي كانت بكر ومحدش لمسها غيرك، ولو مش مصدقني روح لدكتورة غيري، بس

أقولك.. لك حق تشك فيها لأن العيب مش عليها، العيب على اللي باعتها ليك وخليتك تفكر إنها رخيصة.

نال من أمنية قدرًا لا بأس به من التوبيخ، لا أدري إن كان مباليًا بما تقول أم ضرب به عرض الحائط، لكن ما أعرفه جيدًا أني سأسير بطريق مظلم كعادتي، لا أدري أين نهايته، سأعيش بغرفة وأربعة حوائط ورجل يمقتني، كلما أراد سيطوق عنقي بطريقته ويجعلني كالأسيرة حتى أختنق. أحطت نفسي بذراعيَ في حضن، حاولت تهدئة نفسي، ثم قمت وأنا أرتجف ألملم ملابسي بأطراف مرتعشة وأنا أنظر لفراش بعثرت شراشفه، وأحاول ألا أتذكر ما حدث منذ لحظات. ولجت مسرعة لدورة المياه، مددت يدي فتحت الصنبور، ونزلت تحته علَّ زخات المياه تسكن رجفتي أو تطفئ نار جوفي.

ذهب الجميع، ولم يبقَ سواي أنا والخوف متلازمان، ماذا سيفعل بي بعدما ذهبوا؟ لكنني سمعت هاتفه يدق، صمت قليلًا ثم سمعت صوتًا خافتًا يقول:

ـ يخرب بيتكم ويخرب بيت اللي يعرفكم، ياريتني لا أخدت الحباية اللي إدتهالي واتنيلت شوفت الفيديو اللي فرجتوني عليه، بهدلتوني الله يلعنكم. ثم تبادلا الشتائم القذرة وظلا يضحكان طويلًا، ثم أغلق الهاتف.

جلس خلف الباب يحدثني ويعتذر إليّ ويسألني أن أسامحه. وضعت يدي على أذني حتى لا أستمع لأي صوت له، فقد كرهت سماع صوته. مضت الأيام كل يوم كسابقه، لا فارق بينهم. مضت الأسابيع الأولى يدللني ويضحك، ثم عاد كل شيء برمته كالماضي، يسهر بالخارج مع أصدقائه على القهوة، يأتي ليلًا يستلقي بجانبي، أظل أكلمه وأحاكيه لأفاجأ بصوت شخيره المتصل الذي يضج مضاجع الموتى، وقد ذهب في سبات عميق وتركني أناجي طيف رجل أطفأ بداخلي كل نور أردت أن أضيئه. أمسح عبراتي، أكتم أنَّاتي، وأغرق في مخاوفي وأحلامي الواهية، أحاول أن أرسو بخيالي إلى بر الأمان، حتى وإن لم أجده في الواقع.

لم أنسَ ذلك اليوم حينما عرضت علينا زوجة عمي الذهاب لتناول وجبة الغداء معها كنوع من إكرامنا بعد الزواج. تغيرت كثيراً بعد زواجي، وكأن همّا أزيح من

على عاتقها. لم أبالِ بالذهاب، وخشيت أن ألتقي بكريم، فقد حدثت له مشكلة بعمله ثم تم تحويله بنفس الشركة لكن في القاهرة، وبالتالي أصبح متواجدًا طوال الوقت.

أصر سيد على الذهاب، من المؤكد أنه لن يفوّت فرصة كهذه، ستوفر عليه مبلغًا من المال في إعداد الطعام. ذهبت وأحاسيس متناقضة تعتريني، أصبح ذهني مشتتًا، دعوت الله كثيراً ألا ألتقي بكريم، لكن لسوء حظي أنه مَن فتح لي الباب أو بالمعنى الأصح تعمد فتح الباب، لا أدري أليرحب بنا أم ليرمقني بنظراته الغاضبة التي تهوي بي وتجعل النار تشتعل بي فتحرقني؟

ما إن رأيته أمامي حتى شعرت أنني أترنح، وكأن عقلي المسكين أصبح دون ثقل يُذكر فشعرت بدوار. تمالكت نفسي، حاولت الابتسامة، كانت ملامحه جادة، ابتسم لسيد ثم عادت لجديتها مرة أخرى، لكنها أكثر حدة. مددت يدي لأسلم عليه، لا أدري لماذا فعلت هذا؟ هل لأنني اشتقت أن تتلاقى روحي به؟ أم لأنني أريد أن أشعر بشيء من الأمان الذي طالما فقدته مع ذلك السيد.

لم يبالِ بيدي ولم يلتفت لها، رمقني بنظرة حادة، شعرت كأنه إنسان آلي حين حدثني قائلًا:

- شرفتِ مدام زهرة.. اتفضلوا فالصالون.

خنجر اخترق قلبي، حتى أنت يا كريم ستتخلى عني؟ لا أريد منك سوى الأمان، أما وعدتني أن تكون محل عمي، لست تشبهه في شيء بعدما كست القسوة قلبك.

حاولت ا لإفلات من حبس سيد وتسلطه عليّ بحجة مساعدتهم في ترتيبات الغداء، وولجت مسرعة لأمنية، شهرين كاملين لم أرها، ارتميت بأحضانها وبكيت كثيراَ، شكوت لها غدر الزمن بي، ومعاملة سيد، حتى كريم أصبحت القسوة جزءاَ لا يفارقه أمامي، لم أفكر مطلقًا أن نعيد ذكريات الحب تلك، ولو رجعت يومًا للوراء لم ولن أرتبط به بسبب زوجة عمي، لكن كنت أريد الأمان الذي حدثني ووعدني كثيراَ به، وأنه سيكون لي ظهراَ مهما حدث.

حدثتني بلهجة حانية:

- زهرة إنتِ واحدة متجوزة، خلاص كريم لازم يحط حدود بينك وبينه، زهرة الصغيرة اللي كانت بتتنطط قدامه كبرت وبقت عروسة وعلى ذمة راجل، يستحيل إنه هيعاملك زي الأول، لكن في نفس الوقت صدقيني لو حصل أي حاجة هو أول واحد هتلاقيه في ظهرك.

- هو عمل إيه لما رجع وعرف إني خلاص إتجوزت.

- دا ماضي متتكلميش فيه، حتى لو قولتلك هيفيد بإيه، لو عشتِ طول عمرك تفتكري اللي ضاع منك عمرك ما هتشوفي اللي بيستناكِ.

- شوفتي حرمني إزاي من إني أنزل الجامعة أو حتى أروح على الامتحانات، هو ليه مُصِر يقهرني ويقتل طموحي.

- معلش حاولي معاه تاني وربنا يكرمك، متزعليش ربنا هيعوضك خير.

- تعرفي إني ندمت على قراري دا، كنت فاكرة إني بكدا ههرب من الهم مع مامتك، وإن الجواز هو اللي هيخلصني، طلعت غلطانة، عمر الجواز ما كان فرصة إن الواحد ما يصدق ويهرب ليها، أو إني أوافق على أي حد والسلام، عشان فاكرة إني هعيش فأرض الأحلام معاه. كل الحكاية إني إتحولت من إنسانة صغيرة شايلة هم على قدها، لإنسانة كبرت قبل أوانها وشالت هم أكبر منها.

- بصي يا زهرة خديها مني نصيحة، مافيش حياة جميلة مية في المية، ولا حياة وحشة مية في المية، مهما كانت الحياة وحشة لازم تدوري على الحاجات اللي تسعدك. السعادة مش فراجل، لو بسط الواحدة تفرح ولو مبسطهاش نورها يطفي.. غلط وألف غلط، منكرش إن الراجل هو أهم حاجة في حياة الست، ومن غيره تحس إن حاجة نقصاها، لكن مش هو محور السعادة بالنسبة لها، شوفي حاجة إنتِ بتحبيها واعمليها، غني إرقصي إرسمي إطبخي إكتبي إلعبي رياضة، إقرئي كتاب إفردي شعرك واتنططي، إضحكي وخلي الضحكة طالعة من قلبك، دوري على سعادتك جواكِ، ومتستنيش حد يسعدك، إلبسي عشان نفسك، إتزوقي عشان نفسك، عشان إنتِ كيان جميل تستحقي إنك تكوني سعيدة. جوزك إفهميه

وشوفي بيحب إيه وإعمليه، كل راجل وله مدخل يخليكي تأسري قلبه وتاخدي عنيه، إوعي يا زهرة الهم يملا قلبك، لو زهرة قلبك ماتت يستحيل تنبت من تاني.

صمتُ كثيراَ وترددت في الحديث في ذلك الأمر لكنني في النهاية حدثتها بصوت متردد:

ـ أنا عرفت إنه بيتفرج على مشاهد إباحية، وبيكلم بنات في كلام مش كويس، واتصدمت وبقيت مش عارفة أعمل إيه، ولقيت نفسي مبقتش طايقاه أكتر من الأول، تخيلي مش محترم إنه لسه عريس، ولا فارق معاه إحساسي.

ساد الصمت لبرهة، وما إن أتت لي بالنصيحة حتى سمعنا صوت زوجة عمي تنادى عليها ولم نستطع استكمال حديثنا، لكنها وعدتني أنها سترد عليّ في هذا الخطب ولن تنساه.

قبّلتها واحتضنتها وذهبنا سويّاً كي نساعد زوجة عمي، والتي قبّلتني ورحبت بي على غير عادتها، ثم قالت بلهجة غريبة:

ـ مالك يا بت كدا مش حساكِ مبسوطة ولا فرحانة، هو مزعلك ولا إيه؟

وجدت نفسي أضحك بطريقة هستيرية ثم أجبتها:

ـ لا دا أنا دايخة حبتين، شكلي حامل، أنا مش مبسوطة إزاي دا أنا بدعيلك كل يوم إنك جوزتيني سيد، دا أنا من كتر انبساطي هيغمى عليّ.

لاحظت أمنية الدموع التي نبتت بعيني حاولت تغيير الموضوع وظلت تضحك وتصدر النكات والفكاهات. أعددنا الطعام، وقمنا بترتيب الأطباق على المائدة، وما إن جلسنا سويّاً على الطاولة حتى شعرت بصداع غريب ينقر برأسي، كمن يضع مسماراً على رأسي ويدق بمطرقة. قمت مسرعة ووضعت رأسي تحت صنبور المياه، قامت أمنية مسرعة ولم يتحرك ساكنٌ لأحد، حتى سيد لم ينتبه لي من الأساس، فتلك الوجبات الدسمة جعلته ينسى حتى من يكون، إلى ان حدَّثته أمنية وطلبت منه إحضار دواء مسكن، لم يبالِ وقال بعدم اهتمام وفمه ممتلئ بالطعام:

ـ اديها كوباية شاي بإسبرينة وترتاح، وبعدين دا دلع بنات، مانت عارفه اللي فيها.

تعمدت أمنية جمع الأطباق التي بجوارهِ من الطاولة، وهمست له:

ـ حتى لو الواحدة بتدلع بتبقى عايزة تشوف الاهتمام في عين جوزها وخوفه عليها.

لم يجبها سوى صوت هرس الطعام بين فكيه وهو يتمتم بعبارات مكتومة غير مفهومة. جلست وحيدة بغرفه الاستقبال، يمر أمامي شريط ذكرياتي أضحك تارة، وأبكي تارات أخرى، حتى أتت أمنية مرة أخرى وحدثتني:

ـ متزعليش، فيه رجاله كدا فاكرة إنها لما تحسس اللي قدامها بالاهتمام يبقى بتقلل من نفسها، كفاية إني جنبك ولو احتجتِ حاجة أنا تحت أمرك، وزي ما اتفقنا. وبخصوص الموضوع اللي قولتيلي عليه، أنا مش هقولك إنت السبب إنه يبص برهِ وكلام من دا لأنك يادوب بقالك كام شهر متجوزة، لكن هقولك قربي من جوزك قوي، غيّري من نفسك وطريقتك، شوفي إيه اللي جذبه للبنت دي، كلامها وطريقتها قلديها. إنتِ قريتِ المحادثة وعرفتِ هي بتتكلم إزاي، وجوزك حابب يسمع منها إيه، الصح بقى إنك تعملي زيها، ومش عيب لأن دا جوزك، مادام هو بيحب كدا يبقى لازم تشبعي عندهِ النقطة دي.. إدمان الأفلام زيه زي المخدرات، الصح بقى إنك تبعدي وتفضلي ترمي اتهامات وتزودي مشكلة، ويمكن يتمادى أكتر ولا تساعديه على العلاج، إنتِ بإيدك ترجعيه، وخلي الدعاء سلاحك، خصصي دايمًا ركعتين مخصوص، وادعيله ربنا يعافيه، ويربط على قلبه. وعلى فكرة كونه مخبي وبيداري إنه بيتفرج وبيتكلم أهون بكتير من إنه يجاهر، فدا معناه إنه عارف إن دا مش صح، ويمكن نفسه إنه يتوب ومش عارف.. فحاولي إنك تشبعي الفراغ اللي عندهِ، عشان ميلجأش لأي حاجة، اتكلمي معاه واعرفي بيحب إيه ومبيحبش إيه، نفسه يسمع منك إيه، مش يمكن عايزك تتعاملي معاه زي البنت اللي بيكلمها؟ دا جوزك لازم تحافظي عليه، ومافيش إحراج بينكم،

استعملي ذكائك وأنوثتك هتقدري ترجعيه ليكِ تاني واصبري ومتتضايقيش إنه يكرر.

ثم أتبعت بحماس:

ـ قومي بقى كدا وبطلي نكد وروحي خدي شاور وفكي واعملي حاجة بتحبيها، واللي عايزة تحافظ على بيتها وجوزها تتقل وتصبر وتحتسب كل حاجة عند ربنا.

لم أعلق على ما قالت أمنية فلم يشغل بالى يومًا أن أغير حياتي من أجله. كان غرضي من سرد تلك التفاصيل لها أن توبخني لأني وافقت على تلك الزيجة اللعينة، لا من أجل سماع النصيحة. مضى الوقت في الثرثرات والأحاديث الجانبية، وأنا لم أنطق بكلمة واحدة، أراقب الجميع في صمت وأراقب حالي وأدعو الله أن يهبني الفرحة من عنده.

عامين مضوا على زواجي، لم تكن تلك الحياة التي حلمت بها، أو حتى رسمتها على صفحات السماء وزينتها بأحلى النجمات، فأضحت كما الوردات تزينها بالندى قطرات كما اللؤلؤ لامعات. الحياة معه رتيبة، يكاد يطعنها الهم بخنجر من ملل يقضي عليّ ويخلصني من آلام الوحدة والغربة، يخلصني من كائن يرى كل جميل في الحياة إلا جمالي، خبأني عن أعين الناس، دفنني في قبر رغباته من أعين الحياة، كيف نحيا هكذا صامتين دائمًا، مرغمين على التعايش، كيف لي أن أتخلص مما أنا فيه؟ أبدأ من جديد، بنفْسٍ جديدة، وأيام جديدة، ولكن هل تلك الجديدة سيُكتب لي فيها السعادة أيضًا؟ لم يعد بمقدوري أي شيء سوى انتظار قدري بلا مقاومة، فأنا مغلولة اليد والقلب والتفكير، كئيبة تلك الحياة، منعني من ملذات الحياة، لا شيء سوى رغباته.

عامان كاملان لكنهما أعوام وقرون من الكبت والأوامر والديكتاتورية، سلبني كل شيء، حتى أحلامي حرمني من مجرد التفكير.. منعني من جامعتي، صديقاتي، والجيران وأهلي، احتكرني كما السلعة، وليس هناك مقابل، ما الثمن الذي أتقاضاه على تضحياتي.. لا شيء.

ما علته في هذا؟ الغيرة؟ لا أظن، فالغيرة يسبقها حب، حنان، تدليل، لا أجد من هذا شيئًا، لا أجد سوى الإهانة. مات كل شيء بداخلي تجاهه، لا أحيا أية لحظات سعادة، ثابتة هي الحياة عند تلك اللحظات التي أحياها معه، لا تتحرك ولا تتغير، مازلت في عمر الزهور لكنني كما العجوز، لم أعد أهتم بنفسي.. بجمالي.. بأنوثتي.

أين قلبي منه؟ دفن أنوثتي في قبر شيخوخته، هو لم يصل عمره إلى الأربعين لكنني أشعر بأن عمره فوق الستين، شخص ليس جدير أن يحتل عرش أي امرأة، رجل قليل العطاء، رجل صغير الفؤاد، رجل ليس أهلًا أن يحتل قلب أي امرأة.

كيف أقضي عمري؟ كيف أحيا بلا هدف؟ حتى كلية الألسن التي طالما حلمت بها، ضاعت مني في مهب ريح الزواج. تعبت كثيراَ، وبذلت كل ما لديّ، وهبته الحب والحنان والعشق، ولم أجد مقابلًا يشفي قلبي، الجفاء أصبح جزءاَ ملازمًا لحياتنا. كثيراَ ما تو ددتُ له، ولم أجد غير اللامبالاة، ليس له إلا وكران؛ القهوة والجلوس منفردًا بغرفته، لم يلتفت يومًا إليّ وكأن الدور الرئيسي للزوج أن يتخذ من زوجته أمةً له يمكنه إهانتها وكسرها طوال الوقت، ومن الخطأ أن يرضى عنها يومًا أو حتى يُسمعها كلمة طيبة ظنًّا منه أنها هكذا ستتمرد.

لم أتذكر يومًا أنه ابتسم في وجهي عند عودته من عمله، أو جاء ليرتمي في أحضاني فيرمي حمله الثقيل بها، حتى وإن قابلته بصدر رحب قابلني بوجه عبوس بحجة أنه منهك من العمل، دفن البهجة والأمل سويًّا في مقبرة واحدة من اليأس والإحباط.

أصبحت امرأة بلا كيان، جسدًا بلا روح، حتى قررتُ يومًا الجلوس على الحاسوب على الرغم من أنه منعني وحذرني، لكن لم يعد لديّ ما أخسره، ماذا سيفعل بي أكثر مما فعله طوال العامين؟ جلست ولم أبالِ، قررت أن أطالع بعض الصفحات، أكثر ما كان يشغل بالي أن أعرف أكثر عن كلية الألسن التي أحببت كثيراَ ارتيادها، لكن ذلك الوغد الذي منعني وحطم طموحاتي وأحلامي ولم يسمح لي الخروج يومًا أو حتى التقديم والذهاب للامتحان فقط، كان يردد دائمًا:

ـ ما إنتِ إتجوزتِ خلاص، شهادة إيه وكلام فارغ إيه؟
وكأن الفتاة حينما تتزوج تنقطع عن تحقيق أهدافها وحلمها، وكأن الفتاة تذاكر فقط من أجل الحصول على زوج، وبمجرد الحصول عليه تنتهي مهمتها لتخلد إلى مهمة أخرى وهي الشؤون المنزلية، وكأن الفتاة لا يحق لها الجمع بين الأمرين.
أتابع موقع الجامعة وقد اغرورقت عيناي بالدموع حسرة على حالي وما وصلت إليه.
أصبحت الحياة بيننا رتيبة فما أقسى أن تصل الحياة بين اثنين إلى حد الانفصال الروحي والنفسي والجسدي، حقًّا أصبحت أشعر أننا كشخصين منفصلين، كل فرد يعيش حياته منفردًا ولكننا مجتمعين في بيت واحد خلت منه لغة الحب، وخلا منه جو التفاهم، وجف من دفء الحنان. ما أقبح أن تصبح العلاقة الزوجية مجرد صورة تعلق على الحائط، يراها الآخرون رائعة لكنها في الحقيقة ساكنة، ليس بها روح ولا حياة.
حرّضني شيطاني يومًا على الذهاب لتلك الصفحات الخليعة التي يتصفحها زوجي وأطالعها كشيء ينسيني همي، لكني أبَيت أن أفعل ذلك، ليس لأنني تُبت، فلم يشغل بالي يومًا أن أتوب عما فعلت من ذنوب، ولذلك كانت المعاناة ملاحقة لي، والشقاء حليفي وطريقي، لأني أنا من وضعت قدمي على ذلك الطريق. ولكن ما منعني أني خشيت أن تصيبني لعنة تلك الصفحات ثانية، فتلك المشاهد هي سبب الإلقاء بي في تلك الهاوية، ولو شعرت لبرهة أن الله يراقبني، وأنه ظل يسترني لعلي استحي، ما كنت تماديت حتى فُضح أمري.
وما أقبح أن تترك الذنب لأنك زهدته لا مخافة من خالقك.
ما شغل بالي حقًّا تلك الآلاف المؤلَّفة التي تشاهد تلك المشاهد وتعلق بأقبح وأقذر التعليقات.. حزينة على ما وصلوا إليه من إدمان، لا يدرون أن وجوههم وقلوبهم شاخت، لا يدرون أنهم يتجرعون كل يوم كأس اللعنة، والتي ستصيبهم حتمًا في حياتهم، سيصلون يومًا إلى عدم اكتمال نفسي وروحي، سيفقدون الثقة في كل من حولهم، سيسيرون كالعميان تسيرهم رغبتهم فقط، ولن يشعروا بأي

شيء حتى يستيقظوا ويزيلوا تلك الغشاوة عن أعينهم. ما إن ينظروا من أعلى ويضعوا تلك الرغبة تحت أقدامهم، سيعلمون كم كانوا كالمسحورين، لا يعترفون بأي شيء سوى إشباع تلك الرغبة التي ستذبحهم يومًا. حتى زوجي هذا لم يسلم من تمحيص عينيه طوال الليل أمام تلك الشاشات، المشكلة حقًّا أن زوجي كان يقارنني دائمًا بأولئك العاهرات، ويريدني مثلهم، ولذلك لم أرَ في عينيه الرضا أبدًا، مهما فعلت.

أصبح يغلق على نفسه ويخلد إلى كهفه المهجور المليء بأعشاش العنكبوت، أسمِّي تلك الصفحات بالكهوف المهجورة، فهي حقًّا ليست بها أي متع أو زينة، مزينة من الخارج، لكن إن دخلت، إن دققت النظر بداخلها لعلمت كم الظلمة والوحشة، وكم عاش بقبر رائحته نتنة.

أغلقت الحاسوب وأعدتُ ترتيب كل شيء كما كان، وخلدت لترتيب منزلي وإعداد الطعام، واعتدتُ كل يوم على ذلك، أن أتصفح بعض الموقع والصفحات في أي مجال، حتى وجدتُ يومًا أمامي ما يسمى بـ الفيس بوك، وعلمت أنه موقع تواصل اجتماعي كبير، ومن خلاله أستطع الوصول لأكبر عدد من الأشخاص. اتبعت القوانين وسجّلت بإسم همس القلوب، وجمعت عددًا ليس بقليل من الأصدقاء، وتبادلنا التعارف والكلمات الرقيقة. في ذلك اليوم نسيت الوقت لم أشعر بنفسي، فقد كانت سعادتي بتلك الصداقات فوق الوصف، حتى فوجئت بأن سيد سيعود بعد خمس عشر دقيقةز أغلقت كل شيء وقمت مسرعة أقلب في خزانتي بالمطبخ، ماذا سأعد على الغداء، وأنا أحدِّث نفسي: تبًّا لكِ، سأسمع اليوم من التوبيخ والإهانة ما يكفي، ولكن لم يعد يهمني.

لم أفكر فيما سيحدث عند عودته ولن يجد الغداء على قدر سعادتي أني وجدت منفذًا آخر أتنفس الصعداء من خلاله، أصبحت أغني وأتناول الأواني وأنا أتمايل وأرقص، أعيد على نفسي تلك الرسائل والكلمات التي سمعتها منهم أني رقيقة وذوقي رفيع، ومنهم من أرسل لي بعض كلمات الشعر التي تأسر القلب، كم شعرت بكياني وأنوثتي حقًّا.

عاد من عمله منهكًا، لم يلتفت إليّ وارتمى على سريره، حتى لم يغير ملابسه، تنفست الصعداء، انتهيت من إحضار الغداء وخلدت للنوم أنا أيضًا.

شهرين على ذلك الحال حتى شعرت أني كعصفور كناري استعدت روحي من جديد. أحببت الرقص والغناء، وأصبحت أضحك بلا انقطاع، كل يوم أذهب لمرآتي التي كرهت الوقوف أمامها بسبب إهماله لي، فقد أشعرني حقًّا أن الأنوثة والجمال ليسوا لأمثالي، أخلع رابطة الشعر أبعثره وأفرده وأظل أتحسسه، وأخلخل أصابعي بين خصلاته، وأنا أحاول إحياء ما دفنه داخلي من سنوات مضت. تحسستُ وجهي، وضعت الزينة وبعض مساحيق التجميل الصارخة وارتديت بعض الحلي. فتحت خزانتي واستخرجت منها فستانًا قصيراً ذا لون أحمر به بعض النقوش السوداء، وارتديته وفتحت المذياع على محطة الموسيقى وظللت أرقص وأضحك وأتمايل وأدور، لم أدرك كم مضى من الوقت حتى وجدت نفسي بين أحضانه، انتفض جسدي، نظرت في عينيه وجدتُ بهما رغبة عارمة.

حاولت إطفاء رغبته وهممت به مخافة منه أن يقرأ ما بعيني أو يعلم شيئًا عمّا أخفيه، فشكه الدائم يجعلني أشعر أنه يعلم الصغيرة قبل الكبيرة، ولكني لم أستطع التمادي أكثر، وظلت الدموع تنهمر من عيني دون أن يشعر بي. فقد سئمت أن أكون كدمية بين يديه يقلبها كما يشاء.

أما عن تلك الفطرة التي تتمناها أية فتاة أن تسمع يومًا كلمة (ماما) فدفنتها بداخلي، كيف لي أن أرتبط أكثر بذلك الرجل؟ حقًّا أكرهه كل يوم بما يفعله معي، داس بأقدامه على كل شيء جميل بداخلي، مزقني وحطمني وأهانني، وفي بالنهاية يطلب أن يكون أبًا. كيف لمثله أن يلقب بأب، وكأن ذلك اللقب يعطى لأي شخص. أما كان الأولى به أن يكون زوجًا؟ فإن كنتَ زوجًا صالحًا، حينها ستصبح أبًا مثاليًا. ليتني لم أعرفك وليتك لم تعترض طريقي يومًا.. سامحكِ الله يا صفية.

انقطعت الاتصالات بيني وبين عمي، فقد منعني سيد من امتلاك أية وسيلة إتصال، فمخيلته الشيطانية سوّلت له أنني في غيابه سأتحدث مع غيره أو أنشئ أية علاقة حب، أي تفكير عقيم هذا؟!

لم يرد ببالي يومًا أني سأفعل شيئًا مثل ذلك وأني سأقع في شباك الحب الإفتراضي أو أني سأسلك طريقَ الشيطان الذي أغواني وأشعرني أن ذلك هو أول طريق السعادة. حتى ذلك الشاب الذي بدأت أتحدث معه وأسرد له عن كل كبيرة وصغيرة في حياتي، كان في البداية ينصحني ويعينني أن أصلح علاقتي بزوجي، ولكن يومًا بعد يومٍ أصبحت أشتاق لحديثه، أحب سماع كلماته، وجدت نفسي يومًا أكتب له كلمة "أحبك".

ترددت كثيراَ قبل أن أرسلها، وارتعدت أكثر وأنا أقترب من زرِّ الإرسال، وشعرت وأنا أضغط عليه كأنما صُب على هذا الزر من مادة أسمنتية صلبة، لا تقبل التحرك، ولكن أخيراَ تم الإرسال، وهممت أن أمد يدي أمسك تلك الرسالة اللعينة التي هوت بي في بحر الظلمات، وقد تراجعت عما كتبت، ولكن لا فائدة، فقد تم الإرسال كالرصاصة التي خرجت ولم تعد. شعرت بالندم وتوقعت كل شيء سيء قد يحدث لي جراء تلك الفعلة الشنيعة، ماذا سيقول عني، وكيف لامرأة متزوجة أن تخون زوجها وتلجأ لفعل المراهقات؟

حتمًا سيقول عني أني من ضمن الساقطات والتي توقع بالشباب، بين حين وآخر يتملكني الندم حقًّا، ولكن فجأة وجدت نفسي أصاب باللامبالاة، وأقول لنفسي:

ـ طظ فيه، يقول اللي يقوله، خليه يتكلم وأنا همسخر كرامته.

وجدته يكتب ويمسح، يكتب ويمسح، ثم ظلَّ صامتًا فترة طويلة، وحينها النار اشتعلت بداخلي وعلمت أني سقطت من نظره ولن يحدثني ثانية.

أغلقت وأنا كالطير الجريح يتأرجح يمينًا ويسارًا وبّخت نفسي كثيراَ، أعددت الطعام وخلدت للنوم، وحينها شاهدت سوطًا من نار يجلدني حتى يهري لحمي، وينخر عظمي.. ثعبان من نار يخرج من باب الغرفة وينتهي برأسي، قمت من نومي أصرخ كملسوعة، ظللت أنظر يمينًا ويسارًا حتى علمت أن الأمر برمته

أحلام مفزعة، وأي حلم كهذا يشيب الرأس وترتعد له كل أوصالي، وحينها قررت أن أنقطع عن ذلك الشاب للأبد.
امتنعت يومًا.. يومين.. عشرة.. ولكن لم أستطع، كمن أدمن مادة مخدرة، تناسيت ذلك الحلم المفزع، وذهبت بلا وعي لجهاز الحاسوب، فتحته متلهفة كمن ضاع عنه حبيبه.
جلست على مقعدي أمام الحاسوب، زفرت زفرة حارة تحرق صدري، أصبحت أتنفس بعمق وبقوة حتى أستطيع السيطرة على دقات قلبي المتسارعة.. فتحت الحاسوب متلهفة لأجد رسالة واردة، حملقت كثيراً، كانت اللهفة نحو محتوى الرسالة تدفعني بقوة لفتحها، والخوف من محتواها أن يكون بها كلمات توبيخ أو لوم. وأصبح الصراع الدامي بين اللهفة والخوف، ضغطت لفتحها لأجد المفاجأة التي هزت كياني، شعرت أن البرد يحتويني، ابتسمت ثم ضحكت ضحكة هستيرية ثم أدمعت عيني، فبكيت.. وإذ به يرسل رسالة أخرى، من كثرة قراءتي لمحتواها حفظت كل حرف بها:
ـ بصراحة أنا مش عارف أرد أقول إيه، أنا فوجئت برسالتك، لخبطتيني وخلتيني أفكر فيكِ طول الليل، أنا فعلًا كنت مشدود ليكِ وخايف أصرح عشان معذبكيش معايا، بس مكنتش متوقع إنه كمان تبادلينى نفس الشعور، إنتِ مش متخيلة حجم سعادتي قد إيه، لكن برضه عارف ظروفك، ومقدرش أقولك حاجة أكتر من إنك فعلًا بقيتي أحلى حاجة فحياتي، تعرفي أني بجد نفسي أشوفك وأسمع صوتك، نفسي أقولك كل كلام الحب اللي فالدنيا.
ثم أرسل لي بعض كلمات لا أدري إلى أي من الشعراء تنتمي، فلم أكن على علمٍ كافٍ وقتها بأي شيء يخص الشعر أو غيره ولكن بعدها علمت أنها لنزار قبانى:
أريد أن أهديكِ كنوزًا من الكلمات لم تُهْدَ لامرأةٍ قبلك.. ولنْ تُهْدَى لامرأةٍ بعدكْ.
يا امرأةً.. ليس قَبْلَها قَبْلْ وليس بَعْدَها بَعْدَ.. يا سَيِدتي.
أنتِ خلاصةُ كلِّ الشعرِ.. ووردةُ كلِّ الحرياتْ
يكفي أن أتهجى إسمَكِ.. حتى أصبحَ مَلكَ الشعرِ.. وفرعون الكلماتْ..

يكفي أن تعشقني امرأةٌ مثلكِ.. حتى أدخُلَ في كتب التاريخِ.. وتُرفعَ من أجلي الرايات.
لحظة ضعف تنتاب الأنثى عندما تمر بآذانها تلك الكلمات السحرية، ويظل قلبها يطرب ويهلل لتلك الأحرف الحمقاء، وكأنه عاد على قيد الحياة من جديد.
ظللت ممسكة بذلك الخاتم الذي يدور حول إصبعي، شعرت وكأنه يضيق أكثر فأكثر حتى آلمني، أصبحت في عذاب، لا طاقة لي أن أتحمله، تداخلت مشاعري وتضاربت بعنف، أزعجني ذلك كثيراً، ماذا فعلت بنفسي؟
فقد أصبحت الآن بين عالمين؛ عالم مظلم قاس لا أطيقه بالمنزل، وآخر به تحليق في سماء العشق والمحبة، مجرد الحديث معه ينسيني كل ما يثقلني من آلام وأحزان، كلماته تمحو في ثوان كل عوالق الظلم التي تغمرني بالهم والضيق.
وضعت الخاتم أمامي، أنقل عيني بين الرسالة وبينه بصمت، وأتساءل بحيرة عن الخطوات القادمة. نهرني عقلي أن أعيدي الحلقة مكانها، والقلب يردد اصمت، لكن بالنهاية لا مفر، فقد أرتديته ثانيةً، لكن بداخلي يردد: عساي أن أجد مخرجًا يومًا ما.
سيطر على تفكيري واقتحم أحلامي، كان يجالسني ويحدثني، بعد وجوده بحياتي لم أغضب يومًا لإهمال زوجي أو حتى تقصيره بحقي، فكلماته تصعد بي إلى الآفاق وتطوف بي بين السماوات مستكشفةً ما وراء الغيم بأعالي الكون.
عام كامل أحادثه، يرسل لي قصائده، جعلني ملكة على عرشه، أصبح التحرر بحديثنا أكثر كما المتزوجان، كثيراً ما كان يردد:
- إنتِ المفروض تبقي مراتي لولا الظروف.
تمنيت حقًّا أن يكون زوجي، أصبحت غير قادرة على العيش مع سيد أكثر من ذلك.
بدأت أفتعل المشاكل، أقارن بينه وبين سيد، كثيراً ما تمنيت أن يكون هو بجواري، حلمت وتمنيت، حتى هو بنى لي قصوراً من الأحلام ويالروعة حديثه الأخَّاذ. علمت عنه كل شيء، حتى هو علم عني الصغيرة قبل الكبيرة. أقضي

يومي على الشات أحادثه، وأحيانًا أتمادى وأقوم بتشغيل مكالمات صوتية، وبعد محايلات أصبح الحوار أكثر تحررًا بعدما أصبح الاتصال دائمًا فيديو. في البداية كنت أجلس بحجابي وبعد فتره تحررت منه، خلعته وخلعت معه عباءة الحياء، زين الشيطان لي ذلك الطريق اللعين، طرت بلا حياء للهوى أخطو خطاه، ينقضي نهاري بذنب ولا أبالي في حمى الشهوات، ضعت.. سرت في درب الغواه.

كنت أظن أني على علم بكل صغيرة وكبيرة في حياته، حتى أتى ذلك اليوم المشئوم، فتحت رسائلي الواردة وجدت رسالة من شخص لا أعرفه:

ـ بصي يا اسمك إيه، أنا عارفة إنك على علاقة بجوزي، واللي متعرفهوش إنك مجرد نزوة، تضييع وقت يعني، ومن غير لو سمحتِ إبعدي شَرِّك عننا، لأني مش هسمح إن واحدة زيك تهد البيت. وان كنتِ صدقتِ كلامه أو فاكرة إنه بيحبك، ولا هيموت ويتجوزك أقولك تعيشي وتاخدي غيرها، هههه دا لو سمحتلك إن يكون فيها غيرها، وإنت لو فعلًا محترمة مش هتسمحي لنفسك تكملي معاه بعد ما عرفتِ حقيقته.

كل حرف بتلك الرسالة اخترق قلبي كالسهم ومزّقه إربًا، ماذا تقول تلك الغبية وماذا تعني أنني كنت لعبة في يده؟ أمخادع هو.. بنى لي قصورًا من الرمال، وزينها بكثير من الوعود والأحلام ثم هُدمت بثانية؟ لم يخبرني يومًا أنه متزوج، شُلَّ عقليّ من التفكير حينها وددت لو كسرت ذلك الحاسوب، صداع كاد يهشم رأسي، ثورة عارمة داخله وكثير من التساؤلات. وضعت يدي على رأسي وصرت أضغط علَّه يتوقف عن الثرثرة.

حاولت الإرسال له أكثر من مرة.. فكان يرى الرسالة، ثم لم يجب إلا بجملة " إنسي اللي بينا".

شعرت بدمائي أوقدت على نار باردة، تحرق على مضض، سال دمعي، كم كنت رخيصة بلا قيمة تذكر، ولكن كيف له أن يخدعني طوال تلك المدة؟ أدمية أنا بين يديه؟! ما باله الآن وهو يعلم أن قلبي يحترق، قبلت أن أعيش وهمًا صنعته

لنفسي.. حبّا زائفًا يستنزف مشاعري وطاقتي، وفي النهاية ألقيت بنار أحرقت آمالي.

لم أستطع الاستسلام أكثر من ذلك أو الصبر وانتظار رده عليّ، لم أذكر ماذا قلت لتلك الغبية ردًّا على رسالتها، لكنني أطلقت عليها سيلًا من كلمات الإهانة والتوبيخ، وكيف لامرأة تترك زوجها يعبث مع الأخريات وبالنهاية تتهمهن بخطف زوجها، أما أولى لها أن تكون لخدمته وراعية له.

أغلقت الحاسوب وعقلي كقنبلة أزيح فتيلها، وسينفجر في أية لحظة، حملت حقيبتي، بدلت ملابسي وقد قررت الذهاب له بمقر عمله، نظرت للساعة لأحسب الوقت المستغرق لذهابي وإيابي فلا بدَّ أن أعود قبل سيد.

أعلم مدى الجرم الذي ارتكبته بمغادرتي وأعلم أنني سأسمع وابلًا من الإهانة، فمن المؤكد أن جارتي ستسرد له متى خرجت ومتى رجعت كما أوصاها، فهي بالنسبة له مرشد يرصد له جميع أخباري، ولكن لم يعد يهمني تلك المعيشة السوداء، فليذهب الجميع إلى الجحيم.

ذهبت لمقر عمله كما حدد لي، سألت على اسمه لم أجد أحدًا بذلك الاسم، طلبت من أحدهم استعمال الهاتف وهاتفته، أغلق الخط حينما سمع صوتي، خرجت من بناية الشركة، كدت أصرخ لأخرج القهر الذي حلَّ بي، ولساني يردد لماذا فعلت هذا؟!

يا آدم نحن لسنا بدُمى تلهو بها وتتركها مادام لديك أخريات.. قلبي يئن وينزف، مشاعر مضطربة انفجرت في أعماقي، صراعٌ مستعر نشب بداخلي كحريق اندلع، فجأة شعرت أن خدرًا يسري بجسدي ويسدل ستارًا على عقلي، حجب عنه صفاء التفكير، سرت بلا وعي وبلا هدف، لا أدري أي وجهة أوليها، أنهكني السير، افترشت أحد الأرصفة، جلست أراقب المارة بلا وعي، دموع كالشلال.. لا تنضب، قلب مليء بالعجز والقهر.

صرت أحدث نفسي:

ـ إنت عملتِ في نفسك كدا ليه، ليه جريتِ ورا سراب، وإنتِ عارفة آخرة الحكاية، إنت تطلعي مين عشان يفضَّلك عن مراته، بالعكس إنتِ رخصتي نفسك، وقللتي كرامتك، وحللتيله كل حاجة، لازم كان ييجي يوم وتفوقي من الوهم دا، كان لازم من الأول تعرفي مقامك عنده. الراجل عايز يتسلى وإنت فتحتيله سكة وطريق ليه يقول لا؟ محدش خسر قدك، محدش إتوجع قدك، محدش هيدفع التمن قدك، أنا كرهتك، وكرهت كل عمايلك، وكل طريق بتمشي فيه أسود من اللي قبله.

حدثت نفسي طويلًا، وأنا أسير بالطريق كعمياء صماء بكماء. فوجئت بسيارة مسرعة بجواري وأنا أمرّ للجانب الآخر بالطريق، لم أدرِ بأي شيء بعد ذلك سوى تلك اليد الحانية التي وضعت على خدي وتهمس:

ـ حبيبتي إنتِ سامعاني.

صداع رهيب كاد يهشم رأسي، حاولت جاهدة أن أفتح عيني، صورة غير واضحة، ثم بدأت الرؤية في الوضوح إلى أن وجدت أمامي امرأة كالملاك، ضحكتها صافية، البراءة مرتسمة على وجهها، يالله ما أجملها وأحلاها، حينما رأتني وقد فتحت عيني ابتسمت لي وحدثتني:

ـ إنتِ كويسة.

ظلت تمسح على رأسي وترتب خصلات شعري المبعثرة وتضعها تحت حجابي، ما أثقل لساني في تلك اللحظة وما أسرع دموعي، لم أتذكر آخر مرة سألني أحدهم عن حالي أو حتى همه أمري، ولكن أين أنا؟ ومَن تلك السيدة؟ حاولت جاهدة التجول بعيني لمعرفة أين أنا، حتى وقعت عيني على ذلك الشاب الذي يجلس على الكرسي بجواري والابتسامة أيضًا مرتسمة على وجهه، وما إن نطقت بجملة:

ـ أنا فين.

حتى وجدته يجيب بلهجة حانية لم أسمع تناغم حروفها من قبل:

ـ حمد لله على سلامتك، بجد كنا قلقانين عليكِ، بس الأول قوليلي حاسة بإيه؟

حاولت استرجاع ما حدث، فأزداد الألم برأسي، فزعت فجأة واضطربت ضربات قلبي حينما تذكرت سيد، ماذا حدث؟ وماذا قال؟ وماذا سيفعل بي عندما أعود؟ حاولت القيام لكني لم أستطع، فثقل رأسي أقوى مني، بلا وعي انهمرت الدموع من عيني، ابتسم ثانية وقال:

ـ طب بتعيطي لي دلوقتي بقى، إنتِ لازم تهدي تمامًا عشان صحتك تتحسن.

ـ أنا هنا من إمتى، أنا لازم أروّح.

ردت تلك السيدة

ـ حمد لله على سلامتك.. أنا مسبتكيش لحظة، معرفش خبطتك إزاي.. أنا فجأة لقيتك قدامى بس انتِ لازم تستريحي.

دخلت إحدى الممرضات مجددًا تحمل بيدها صينية بها بعض الفاكهة وشوربة الخضار، وقطعة دجاج ثم أكملت على حديثها:

ـ وطبعًا عشان صحتها تتحسن لازم تاكل، على فكرة إنتِ بقالك يومين لا عارفين نكلمك ولا نفهم منك حاجة، مبتبطليش عياط وتنامي من غير ما تحسي بحد، يعني لازم تاكلي، بجد خفنا الحادثة تكون أثرت عليكِ، بس د. آسر ربنا يحميه ويحفظه ما هديلوش بال غير لما اطمن عليكِ.

شهقت ورددت:

ـ يومين؟!! أنا لو رجعت هيقطعوني.

ـ أنا حاولت أشوف معاكِ أي رقم تليفون ملقتش.. كنت عاوزة أبلغ أهلك عشان يطمنوا.

أدرت رأسي للجهة الأخرى وقد اغرورقت عيني بالدموع، وأنا أردد: أهلي، فقد رحل الأهل والأحبة ولم يبقَ لي سوى الألم.

وضعت يدي على رأسي، فذلك الصداع اللعين كأنه مسامير تدق في رأسي، شكوت له ذلك ووعدني أنه سيعطيني مسكنًا، ولكن أمام ذلك لا بدَّ أن أعطيه وعدًا بتناول تلك الوجبة كاملة. ابتسمت ووعدته وطلبت أن يعطيني المسكن مسرعًا كي أتخلص من تلك الدقات السريعة والمتتالية.

وضع بجواري قرصًا من الحبوب المسكنة وقال قبل أن يخرج:
- عايز أرجع ألاقيكِ بقيتي أفضل عشان عايز أتكلم معاكِ كتيير.
تعجبت، ودار برأسي ألف سؤال، لكن لم أجب إلا بابتسامة وإشارة من رأسي تعني الموافقة. حاولت حبس دموعي لكنها خانتني وسالت.. انهرت في البكاء كلما مرت عليّ ذكرياتي المؤلمة. اقتربت مني تلك السيدة وأمسكت بالصينية مجددًا ورفعتها على الطاولة، اقتربت مني كثيراً حتى ارتميت بأحضانها، عناق يهدهد الجراح ويداوي الآلام ويملأ القلوب بالدفء والأمان والحنان والسكينة.
حاولت مسح دموعي وسألتني عن حالي، تنهدت بقوة ثم زفرت بكلمة: آه، بقوة تنم عن الوجع الذي أحمله بداخلي، ثم قلت:
- أنا تعبانة قوي وحاسة أني وحيدة، لا حد حاسس بيا ولا عالم باللي جوايا، كل الناس عمّالة تدبحني وأنا معملتش في حد حاجة، أنا بجد نفسي أموت عشان أخلص، قوليلي.. إنصحيني.. خففي عني.
مسحتْ على وجهي وأمسكت يديّ بقوة، شعرت أن الدفء الذي بيدها تسرّب إلى يدي وإلى سائر جسدي، حتى شعرت بالسكينة ثم ابتسمت، أرسلت لي كثير من الدعوات.
دواء كلماتها يضمد الجراح، رقراق يجلي صدأ القلوب، سحر يزيل الهموم، يبعث في النفس الراحة والسكينة. كلماتها أعادت إليّ الأمل، لكن حينها ارتعد جسدي حينما تذكرت أني ابتعدت كثيراً عن طريق الله، تكاسلي عن الصلوات، وابتعادي عن قراءة القرآن منذ أن كان يحفظني عمي، تلك الذنوب، والتي تعتبر إحدى الكبائر، دفعتني بعد ذلك لكل الموبقات، وقد أصبح من المستساغ لي بعد ذلك أن أفعل أي شيء. ارتعد جسدي مجددا حينما مرّت من أمامي تلك المشاهد التي رأيتها، وخيانتي لزوجي.. كم كنت غافلة لا أبالي بالمعاصي لهذه الدرجة، وأن النار مصيري.

حاولت معي كثيراَ لتناول وجبة الغداء، أغمضت عيني وأنا أفكر ماذا سيحدث لي بعد؟ وكيف لي أن أعود للمنزل مرة ثانية بعد أن غبت يومين، والآن أصبحوا ثلاثة أيام.

ستقتلني صفية وسيدفنني سيد بلا واجب عزاء.. عرضت عليّ الذهاب معها للمنزل، ترددت كثيرا ورفضت تمامًا بعدما سمعت د. آسر يتحدث معها بشأني. اعترض في بداية الأمر، لكنه وافق أمام إصرار والدته. لم أصدق أنها ستؤويني، ليس بالطبيعي ان تفعل ذلك، لكن جنود الله كثيرون يبعثهم لعباده وقتما يشاء.

أنهيت حديثي معها:

ـ ربنا يستر عرضك.. هكون خدامة تحت رجلك.

أغلق دكتور مالك الدفتر وأعد نفسه للذهاب للعمل، ولكنه احتفظ به علّه يجد متنفسًا للقراءة بعيادته. كان على علم ببعض الخطب القادم، فتلك السيدة التي أوت زهرة بمنزلها أخت نيرة زوجته، وهي مَن أوصتهم عليها وجعلتها تسكن جوارهم، علهم يؤنسوا وحدتها بعدما علمت خطبها. لكنه أصر على القراءة، فهو على علم تام أنها سردت لهم ما أرادت، وأخفت بدفترها ما تريد، علّه يصل لخيط يُعلمه ماذا حدث لها ويعلم شيئًا عن حالتها غير المستقرة في الفترة الأخيرة.

** ** **

الفصل الخامس

*****

فتحت خزانتها، أمسكت بعلبة زجاجية، ثم تحسست ألبوم زفافها، التقطته بأصابعها، أغلقت الخزانة ووضعت الزجاجة والألبوم على السرير، واستلقت جوارهم. ارتسمت الابتسامة على وجهها، وقد لمعت عيناها، مرت أمامها أجمل لحظات حياتها مع زوجها، وأرق المواقف وأنبلها. فتحت العلبة واستخرجت أوراقها وظلت تقرأ وتبتسم، تقرأ وتضحك، وقد نبتت دمعة من عينيها حتى شعرت براحة كبيرة، تلك الطريقة تستخدمها دائمًا وتلجأ إليها حينما ينشب بينها وبين زوجها خلاف، تكتب في ورق صغير موقفًا طريفًا أو كلمة غزل أو ما شابه ذلك، تكتب صفات زوجها الأكثر من رائعة كل يوم على ذلك الحال، تسجل في ورق صغير موقفًا صدر من زوجها وجعلها في قمة سعادتها، ثم تضعها في تلك الزجاجة، كانت تسميها كبسولة العشاق، وفي أي وقت تشعر بضيق تفتح تلك الزجاجة لتبتسم وتضحك حتى تهدأ تمامًا وتقفل باب الشيطان نهائيّا.

لم تنسَ حبيبة يومًا تلك الذكريات الجميلة التي جمعتهما سويًّا في إحدى المستشفيات الخاصة بعلاج الأطفال. حاول كثيراً التقرب لها، لكنها أخذت عهدًا أن تحافظ على قلبها. حينما صرح لها بحبه وأنه يريد خطبتها، طار قلبها فرحًا، لكنها لم تبدِ ذلك على تقاسيم وجهها. كانت تعامله بكل جدية واحترام، لم تتمايع يومًا كونه يحبها، أو سمحت لنفسها أن تقلل من كيانها وتخطو بخطوات الشيطان، وأن تبدأ حياتها بخطوة قد لا يبارك الله بها زواجهما للأبد. لم تستمع إلى نصيحة زميلاتها، حينما قالت إحداهن:

ـ أنتِ معقدة.

أو رددت الأخرى:

ـ عيشي حياتك يا بنتي.

كانت هي تردد دائمًا:

ـ كلما حافظت على قلبي كلما رزقني الله بأجمل حب في الحلال.

حتى بعد خطبتهما لم تصرح، وإن تحدث بكلمات الغزل والحب كانت دائمًا تتحدث على استحياء. ولكن حالها كحال أية فتاة لها قلب ومشاعر تحب ويخفق قلبها بمجرد سماع صوته وحديثها معه، كانت تخشى كثيراَ من أن تفعل شيئًا أو تتلفظ قولًا لن يرضى الله عنه، وحينها خطرت ببالها فكرة. أحضرت دفتراَ صغيراَ زيّنته، وضعت بأول صفحة صورة له، كتبت تحتها أجمل وأروع كلمات الغزل، وقد قررت تدوين كل ما يجول بصدرها، تلك المشاعر والأحاسيس والذكريات الجميلة، وتلك الكلمات التي تريد يومًا أن تنطق بها، لكن حياؤها يمنعها حقًّا. سطرت وأبدعت أجمل وأروع وأنبل الكلمات التي أبهرته حينما قرأها بعد عقد القران، فقد أهدته إياه، علم حينها أنه اختار الزوجة الصالحة التي ستخشى الله بالغيب. فتاة بالعفاف تجملت، وعن فعل الحرام تمنعت، حافظت على نفسها، وصانت قلبها - وأخيراَ- أهدته لمن أحبت وهوت، فقد صرحت وأبدت وكشفت له عن تلك المشاعر الرقيقة والكلمات الساحرة التي تمنى يومًا سماعها.

تذكرت يوم زفافها حينما قررت ارتداء النقاب، لم يجادلها، فقد طار قلبه فرحًا بطلبها، وأهداها واحدًا ذا لون أبيض.

ما يحزنها حقًّا الآن أن والدته تتدخَّل كثيراَ في شؤونهما، تفتعل المشكلات لتوقع بينهما، تضغط عليها دائمًا وتصدر تلميحات بأن لديها مشكلة بالإنجاب، ومن كثرة المشكلات وضغط العمل أصبح زوجها ينفعل عليها كثيراَ، لكنها دائمًا تتخذ أسلوبَ الصمت الحكيم، لا شجار لا نقاش لا جدال، تظل صامتة أمام ما يقول، فهي على يقين أنها إن جادلته وهو غاضب لم تُصب، وإن عاتبت وهي غاضبة أخطأت.. لذلك تفضل الصمت.

ما إن ينتهي من شجاره حتى تتركه وتذهب تتوضأ وتصلي وتدعو بالهداية لزوجها ولوالدته، وأن يديم المودة والرحمة بينهما. تظل تبكي وتناجى ربها حتى يستريح قلبها، ثم تشغل بالها بأي شيء آخر، كتاب تقرأه، قرآن تسمعه، رياضه تمارسها، ترتيب المنزل أو ذكر تكرره، كل ما يهمها أن تشغل نفسها بشيء يلهيها عن

التفكير، حتى لا تسمح للشيطان أن يكون له حظٌ، ويجد مدخلًا لزيادة فجوة الخلاف.

زوجها على يقين تام أن ما تفعله ليس ضعفًا منها ولا تهاون في حقها أو كرامتها، لكن ما تفعله يجعلها تكبر أكثر وأكثر بنظره.. يقدرها ويحترمها، وحينما يهدأ يذهب لإرضائها والاعتذار لها.

يردد دائمًا: جعلتني سيدها فوضعتها تاج على رأسي.

مرت تلك الذكريات سريعًا أمام عينيها، لم تشعر بنفسها وقد سالت دموعها، ابتسمت ومسحت دمعاتها ثم أعادت كل شيء كما كان، وقامت كي تعد وجبة الغداء لزوجها، فمهما كان الخلاف لم تقصِّر يومًا في حقه. توقفت قليلًا ثم ابتسمت وقد قررت إعداد مفاجأة لزوجها تنهي بها ذلك الخلاف.

*****

أمر الضابط حسام بإحضار عم فتحي وقد تم التعامل معه بحدة وحزم، فوجئ حينما وجد آثارًا لضرب على وجهه، صرخ بأعلى صوته مناديًا معاونه وأسمعه وابلًا من التوبيخ على فعلته هذه.

ـ يا بهايم أنا قولت استجوبوه مش تفحتوه، يلعن أبو الشغل معاكم.

ـ يا باشا ما هو مش راضي يتكلم ولا يعترف بحاجة، وكل اللي على لسانه أنا معرفش حاجة يا بيه.

أمر معاونه بالانصراف ثم نظر لعم فتحي وسأله ثانيةً ولكن بأسلوب أقل حدة:

ـ ها يا عم فتحي، أنا عايزك كدا تحكيلي واحدة واحدة من الأول إيه اللي حصل.

ـ والله يا بيه أني كل اللي أعرفه جولته، وكتاب الله أني ما عملت في الست هانم حاجـة، زى ما جولت لسيادتك، أني سمعتها بتصرخ فضلت أخبط على الباب محدش رد، أنادى محدش رد، والصريخ شغال. بلغت البوليس بسرعة وفضلت أرزَّع في الباب أني والـچيران لحد مالجيناها سايحة فدمها، چرينا بلغنا الإسعاف الكل خاف وچري، وأني دخلت أشوفها صاحية ولا إيه، بس خوفت ألمسها لتلبسني تهمة، لجيت صندوج عامل زي بتاع المـچوهرات، أخدته جولت أني أولى

بيه، بس الدفتر وربنا كان موجود، أني معرفش راح فين ولا مين خده، وكتاب الله، وبعدين أني هعمل بيه إيه يا باشا؟ أنا كان كل اللي يهمني الفلوس والمچوهرات، لكن ملجتش حاچة فالصندوج غير شوية إكسسوارات وبس وما نابني غير الفضيحة والبهدلة، الشيطان شاطر يا بيه، وأنا مشيت وراه وأخدت چزائي أبوس ايديكم خلوني أروّح لعيالي، ولو لجيتوا عليا أي دليل اسچنوني بعدها.

مسح جبينه بأصابعه ثم حك أنفه بظهر كفه صمت لبرهة ثم أجاب:

ـ طب يا فتحي تقدر تروح دلوقتي بس أكيد لو عندك أي معلومة كدا ولا كدا مش هتخبيها عشان عارف اللي هيجرالك.

اقترب منه أكثر وجسده النحيل يرتجف من الخوف:

ـ أجول الصراحة.. أني اللي حطيت لحضرتك الورجة على العربية لما جَريت شوية في الدفتر وعرفت إن د. مالك هو اللي كان متابع حالتها ونادين صحبتها اختفت، جولت يبجى أكيد دول اللي يعرفوا حكايتها من طجطج لسلامو عليكو. أني لما لجيت حكاويها كلتها نصايب وبلاوي خفت افتح خاشمي. شفت سعادتك بتركن عربيتك تحت بيتكم جريب من العُمارة حدانا... چيت متسحب وحطيت الورجة عالعربية جبل ما تروح الشغل.

عضَّ على شفتيه بغيظ شديد ثم خبط بكفيه على المكتب وقال بحدة:

ـ وقريت إيه تاني يا عم فتحي.

ـ والله يا بيه حكايتها كلها تجطع الجلب. أني جريت چزء منها وتنيت الصفحة عليه وبعد كدا بدأت أفر في الكشكول يمين وشمال وكل ما تجع عيني على اسم اجرا تحته حبه وبعد كدا اجلب تاني، اللي خلاني احطلك الورجة إنى..

وظل يسرد له ما قرأه في الدفتر والكاتب يدون أقواله.

*****

(أخبرتني تلك السيدة أن حفل خطبة آسر اليوم، ولا بدَّ من بعض التجهيزات للحفل. صرت أعد وأرتب المنزل، والهم والحزن مرسومان على وجهي، شعرت بالغضب حينما سمعت إحداهن تحدث الأخرى ويعتقدان أني الخادمة الجديدة

التي أحضرتها نوال لخدمتها ومساعدتها. سرت قشعريرة غريبة اجتاحت جسدي كله.. شعور بالخزي والدناءة واستصغار النفس أمامهم، كيف لي أن أحضر حفل كهذا؟ من المؤكد أن مكاني بالمطبخ لخدمتهم، فليس من المعقول أن تجعلني بين الصفوف لأستمتع معهم بتلك الحفلة الرائعة.

وبعد الانتهاء من ترتيب كل المستلزمات وجدتها تنادي عليّ وتعطيني فستانًا أنيقًا ذا لون ذهبي به بعض الحلي باللون الأحمر القاني عند الخصر ويعلوه معطف صغير لا يتعدى طوله ٢٠ سنتمتر أسفل الكتف باللون الأحمر القاني وطلبت مني ارتداؤه.. ما أروعه وكأنه معد لي خصيصًا ومفصل على مقاييس جسدي. شكرتها ووضعته جانبًا وبين حين وآخر ألقي نظرة عليه وأبتسم وأشعر أني سأكون ملكة بارتدائه، فلا أذكر يومًا أنني ارتديت ثيابًا ذات قيمة.

هيأت نفسي وبدلت ملابسي وارتديت ذلك الفستان، قامت إحداهن بترتيب حجابي ووضع بعض مساحيق التجميل الخفيفة والتي لا تكاد تُذكر، ارتديت الحذاء، لم أشعر بالراحة بعد ارتدائه، فلم أعتد ارتداء حذاء بكعب، حاولت المشي بالغرفة مرارًا والتعود على طريقة المشي.

ظل آسر ينادي على الجميع، لا بدَّ من الاستعداد، فجاء موعد الرحيل. خرجت من الغرفة وأشعر أن الجميع ينظر لي، وددت لو خلعت ملابسي وظللت بالمنزل، فليس لأمثالي الحق بالاحتفال، أو أن يصبحوا يومًا مثل أصحاب الطبقات العليا.

أسير ببطء شديد، أنظر لحذائي خشية الوقوع، لكني حاولت الاستقامة، أقمت ظهري، رسمت الابتسامة على وجهي، وفعلت مثلما يفعلون. وجدت آسر أمامي، ابتسم وظلَّ محدقًا بي، ورفع حاجبيه وهو يحدثني:

ـ تحفة.

ارتبكت ولم أستطع الرد، وماذا أقول؟ حاولت استجماع قواي وقلت:

ـ متشكرة، ألف مبروك.

ـ لا بجد قمر ما شاء الله، ربنا يسعدك، ويفرح قلبك، أنا عايزك تحسي إنك صاحبة الفرح، يعنى تتعاملي زي ما الكل بيتعامل، ومتحسيش أبدًا إنك أقل من حد هنا.

ثم همس:

ـ الكل هنا بيتمنظر وبيحبوا المظاهر، وكله بيضحك على كله، فاهماني خليكِ جنب ماما دايمًا ومتسبيهاش، وعارفة لو ماهيصتيش في الحفلة شوفي هعمل معاكِ إيه.

ضحكت ثم سمعنا صوت والدته تنادي. خرج الجميع من المنزل، أغلقت الباب بإحكام، عربات فارهة بجميع الأشكال والألوان، شردت قليلًا، ليت لي واحدة مثلهم، ثم أفقت على صوت نوال تدعوني للركوب معهم.

مرت ذكرياتي في ذلك المنزل أمامي، لم أشعر بالتقدير والاحترام إلا معهم، عاملتني كابنتها. حتى بعدما سردت لها حكايتي كلها، أشفقت عليّ، وضعت يدها على جرحي وحاولت مداواته. حتى آسر كان كثير الجلوس معي يسرد لي الحكايات، يستمع لي ويعلمني. سألني يومًا عن دراستي، والتي منعني سيد من استكمالها، عرض عليّ يومًا أن أكملها، وشجعني كثيرًا، وأخذ وعدًا مني أن أقوم بتجديد التقديم بالكلية في العام الدراسي الجديد. ثلاثة أشهر مضت من أروع أيام حياتي. كثيرًا ما كنت أريد معرفة أخبار زوجة عمي وسيد بعد رحيلي، ولكن فضلت البعد وتناسيهم للأبد.

وصلنا لمكان الحفل، الكل جلس على الطاولة المخصصة له وانتظرنا قدوم العروسين، فقد ذهب آسر لمركز التجميل لإحضار عروسه. لم أقم من مجلسي، تعرفت على أخت آسر، والتي تزوجت بالإسكندرية، أتت خصيصًا لحضور حفل الخطبة، حاولت عدم التحدث معها، فهي كثيرة الأسئلة والتي أكره الرد عليها أو تذكر تفاصيلها، ثم همست لوالدتها:

ـ إنتِ ليه خلتيها تلبس فستاني، وبعدين تطلع مين دي عشان تخليها في بيتنا وتعتبريها واحدة مننا.

ـ ريم لو سمحتي دي حاجة تخصني، ولو سمحتي كمان مرة ماتضايقيش زهرة إحنا جايين نفرح.
ثم عرفتني على أختها نيرة وزوجها د. مالك وابنتها حبيبة. جلسنا سويّاً نتسامر ونضحك، سرت راحة غريبة بجسدي برؤيتي لحبيبة، لم أحدثها كثيراً فقد أتت مع خطيبها للاستمتاع بالحفل وجلست معه معظم الوقت.
وصل العروسان وبدأ الجميع بالتهنئة والمباركة، وارتفع صوت الموسيقي. الجميع ذهب لاستقبالهم إلا أنا، التزمت مكاني لحين مجيئهم وجلوسهم بمقاعدهم، وحينها أقوم بتهنئتهم.
الشباب يصفقون ويتمايلون على وقع أنغام الموسيقى، أطفئت بعض المصابيح القوية وبقيت الملونة وتطاير الشرر من كل مكان والتي تتطاير في الهواء مصدرة فرقعات مبهجة، اقترب العروسان أكثر.. وقفت والتفتت لأنظر لهما، وقد أحاطتهما هالة من السعادة. أخذا يتراقصان ويصدران الضحكات ثم اقتربا أكثر، تسمرت مكاني وهمست:
ـ نادين.
خفق قلبي بسرعة كبيرة لم أستطع السيطرة عليه وازدادت أنفاسي، ولم أتمالك نفسي للوقوف أكثر من ذلك جلست على الكرسي ولسان حالي يردد:
ـ أنا مش مصدقة نفسي، للدرجة دي الدنيا صغيرة قوي، بقي أنا هموت وأقابلها وعمالة افتكر فرقمها وحسيت ان خلاص ولا عمري هشوفها تاني ولا هكلمها، وتلف بيا الأيام والسنين وأشوفها هنا.. يالله!!
استعدت بعض الذكريات رغمًا عني.. مرت أمامي صورة لأمي وأخرى لذلك الوغد وثالثة لسيد ورابعة للشاب الذي أدمى قلبي.. نبتت من عيني دمعة حاولت حبسها وصرت أوجه رأسي يمينًا ويسارًا وهي تتحرك معي عل نسيم الهواء يأخذها معه ولا تنحدر لتسير على وجنتي. ابتسمت وهممت بالوقوف استأذنت للذهاب لدورة المياه، حينها همت حبيبة بالوقوف وذهبت معي تحدثنا ببضع كلمات وأبدت إعجابها بفستاني الأنيق.

أعدت ترتيب حجابي وأزلت آثار السواد القليل الذي انشق عن مساره بعدما التقى بتلك الدمعة الحائرة، أعدت الابتسامة لوجهي فرحة برؤية نادين. وما إن اقتربت منها حتى هدأ الصخب وبدأت الموسيقى الناعمة البطيئة في الانسياب. وقفت وسط ساحة الرقص وقد دعا المسؤول عن الموسيقى الجميع للرقص، وبالفعل أخذ كل اثنان وضع الاستعداد وأخذا يتمايلا ويستمتعان، وقد ارتفعت الموسيقى عازفة بأروع لحن سمعته، وأنا أمتع عيني بهم وبجمال تناغمهم. شردت بذهني، فلطالما تمنيت أن أرقص مثلهم وأن أجد من يحبني ويحتويني ويُسمعني كلمات الغزل فتخرج الضحكات من قلبي مزغردة فرحة، أفقت من شرودي على صوت أحدهم يقول:

ـ واقفة لوحدك ليه، تحبي ترقصي؟

رفعت حاجبي بدهشة ناظرة للجهة الأخرى ولم أعره اهتمامًا، أعاد السؤال ثانيًا، ثم لحقه بطلب وأنه يريد الرقص معي، أجبت بهدوء:

ـ حضرتك فاكر نفسك فين إحنا في مكان محترم.

أصدر ضحكة ثم قال:

ـ وهو إيه المشكلة إننا فمكان محترم وبقولك تسمحيلي ارقص معاكِ، مكسوفة ولا خايفة؟

ـ لا مبعرفش أرقص ومش عايزة.

ـ بس أنا متابعك من زمان وشايف عيونك بتقول هموت وارقص.

ـ طب وإيه المطلوب مني؟

ـ نرقص.

أشار بعينيه أن أترك نفسي لتحلق بأعالي السماء، شرع في الحديث عن نفسه، وأنه رئيس جريدة عيون الحقيقة، علمت بعدها أنها نفس الجريدة التي تعمل بها نادين. أبدى إعجابه بي وبأنوثتي الصارخة وسألني أن أزوره يومًا بالجريدة، فمن المؤكد أني سأمضي معه عقد عمل. ابتسمت ولم أجب وقد حاول الاقتراب مني، أكثر شعرت بضيق شديد لبرهة، ولم أشعر براحة لذلك الحديث وابتلعت

ريقي بصعوبة بالغة. نظرت باتجاه آخر وقد تغيرت ملامح وجهي، باحثة عن مخرج يجعلني أستأذن بلباقة دون إحراج أو افتعال مشكلة.. أنظر تارة لنوال وأخرى لحبيبة، علَّ أحدهم ينجدني لكن الكل غارق في حديثه، ولم يبالِ أحد بالآخر.

أعاد عليّ سؤاله:

ـ ها تحبي ترقصي؟

ولم يعطني فرصة للرد، وقد تناول كفي بين يديه. شعرت نفسي فجأة كحجر تجمد جسدي سحبت يدي مسرعة ووبخته ثم رمقته بنظرة غضب.

توقفت الموسيقى لتهديني الحل السحري وقد انسلخت من مجاله وخطوت بخطوات واسعة ناحية نادين. تسمرت مكاني حينما رأيت ريم تنظر لي بحدة وتنقل النظر من أعلى لأسفل، لم أعرها اهتمامًا وتوجهت ناحية نادين، وقفت أمامها لبرهة، لم تتعرف عليّ، ابتسم آسر وهم أن يعرفها عليّ حتى ارتميت بأحضانها وأنا أهمس لها:

ـ أنا زهرة يا نادين نستيني ولا إيه؟

لتصدر ضحكة وهي تقول:

ـ زهرة واااو أنا مش مصدقة عنيا وبعدين إيه الحلاوة دي!! كنتِ فين المدة اللي فاتت دي كلها.. أنا قلقت عليكِ بجد.

ارتسمت الدهشة على وجه آسر وتوجه بالحديث إلينا:

ـ إنتو تعرفوا بعض؟، ثم ضحك.

تبادلت نادين وآسر التعجب والاندهاش فكيف لنادين أن تعرفني:

ـ دي حكاية طويلة، هبقى أقولهالك بعدين.

نظرت إليّ نادين:

ـ أنا لازم أقابلك تاني.

ـ انتِ هتقابليني كتير لأني قاعدة عند طنط.

الآن فهمت الخطب، فقد تحدث عني آسر كثيراَ وتأثر بحالي، نظرت لي ثانياَ وقد رسمت الابتسامة مرة أخرى على وجهها، تعالت وارتفعت أصوات الأغنيات مرة أخرى، وقام العروسان للرقص مجدداً. جلستُ على الطاولة المخصصة لنا وقد بدت على ريم علامات الغضب والاستياء حينما علمت أني صديقه نادين.

انتهى د مالك من قراءته.. . . صوت نقرات على الباب وقد أخبره السكرتير الخاص به أن أحد المرضى ينتظره بالخارج.

** ** **

الفصل السادس

*****

استأذن الضابط حسام من د. آسر أن يلقي نظرة على زهرة، وأن يسمح له بالاستجواب. أخبره آسر أن زهرة ليست بصحة جيدة وأنها تحتاج لطبيب متخصص في العلاج النفسي لمباشرة حالتها، وقد هاتف د. مالك لمتابعة حالتها، فهو على علم أنها كانت من ضمن الحالات التي يباشرها. لم يعر حسام كلامه اهتمامًا، فدلف إلى الغرفة وجلس أمامها، عرّف نفسه، وأنه المسؤول عن التحقيق في قضيتها، وسألها عن علاقتها باللواء مازن. لم تجب، ظل يكرر عليها الأسئلة حتى زاد غضبه وانفعل عليها، أخرجه د. آسر خارج الغرفة وأخبره أن تلك الطريقة لن تأتِ إلا بنتيجة عكسية، وأن د. مالك على وشك الوصول، وهو الوحيد الذي يستطيع استجوابها بطريقته الخاصة.

اعتذر الضابط عمّا حدث وعن انفعاله غير المقصود وتركهما وذهب.

*****

جلست أسيل، ابنة الضابط حسام، بالمنزل تنتظر والدها، تريد أن تخبره بذلك المشروع الذي أعدته هي وزملاؤها. فقد قرروا افتتاح مقهى خاص بالفتيات، سيقدم به وجبات شهية ومشروبات، وسيكون هناك جزء مخصص كمكتبة صغيرة بها كتب للقراءة داخل المكان، وسيخصص أيام لإعطاء دروس في الجيتار والكمان، وبعض دروس في التنمية واللغة. صممت أسيل الديكور والأخرى ستكون مسؤلة الدعايا، والثالثة أعدت دراسة جدوى لذلك المشروع، الجميع متحمس جدًّا للفكرة وقد قرروا التنفيذ.

عند عودة أبيها من العمل كعادته منهكًا وعلى ملامحه آثار التعب والإرهاق، قررت عرض الموضوع عليه. أعجب بالفكرة وقد استهوته، ظل يتخيل معها بعض الديكورات والتصميمات وبعض العروض والتي سوف يتم تنفيذها، لم تصدق أسيل نفسها وقد امتلكتها سعادة عارمة لأن أباها لأول مرة يشاركها في أمر ما دون مشاجرة أو اعتراض، لكنه أنهى كلامه:

ـ الفكرة تحفة وأنا معنديش مانع وهساعدكم فيها، بس تفتكري حال البلد يسمح إنكم تعملوا فكرة زي دي؟
ـ أنا لو هستنى حال البلد يتصلح عشان أنفذ يبقى عمري ما هنفذ، لأن الحال مش هيتصلح إلا بينا إحنا، وطول ما إحنا حاطين ايدينا على خدنا يبقى مش هنشوف إصلاح.
ـ أنا خايف عليكم مش اكتر.
ـ متخفش.. انت بس ادعيلنا وساعدنا إننا نخلص الإجراءات وادعيلنا ان ربنا يكرمنا ونخلص المشروع.
ـ وطبعا نهلة معاكم صح.
أومأت برأسها ورفعت حاجبيها وهي تعلم الرد:
ـ أسيل أنا قولتلك ميت مرة ابعدي عنها.. إحنا مش ناقصين مشاكل، وخلى بالك مادام هي معاكم اعرفي واتأكدي ان الكافيه دا هيتقفل قبل ما يتفتح. انتِ عارفة باباها وانتماؤه وإنه مطلوب!
ـ بابا لو سمحت انت اكتر حد عارف نهلة وعارف أهلها، ماليش دعوة بالسياسة القذرة دي، ومش عشان شوية كلام أنا هخسر صحبتي اللي أكلت وشربت في بيتها.. آسفة.. نهلة مش وحشة ولا أهلها وحشين، وحضرتك متأكد من دا كويس. أتمنى إن شغلك ميأثرش على إنسانيتك. هي كان ممكن كمان تقطع علاقتها بيا وحضرتك عارف هتقول عليا إيه لكن هي معملتش دا عشان عارفاني على إيه، وعارفة أنا هخاف عليها قد إيه.
لم يعقب على أية كلمة ثم قبّل جبينها، أرسل إليها الدعوات أن يحميهم الله ويحفظهم من كل شر، هاتفت زميلاتها وخرجت مسرعة فرحة وقد قررت البدء في تنفيذ المشروع.

*****

جلس كريم بجوار أبيه، وكل منهما شارد الذهن مستاء لحال زهرة. وضع كريم يده على وجهه وقد أصدر تنهيدة تنم عن قلة الحيلة ثم أتبعها بـ آه.. ثم نظر لأبيه:

ـ وبعدين هنفضل قاعدين كدا؟

أغمض والده عينيه لبرهة. أخذ نفسًا عميقًا:

ـ حزين قوي عليها ومش مصدق إن غيرة أمك توصلها لكدا.. المشكلة إنها مش شايف نفسها غلطانة.. يا ترى إيه اللي حصلك يا زهرة؟ وأخوها كمان لو عرف حاجة دا ممكن يطب ساكت ولا يدبحها..

رد كريم بشيء من الغلظة:

ـ أخوها دا ما صدق جوّزها، ومن ساعتها لا سأل عنها ولا حتى نزل أجازة من بره يزورها ولا يشوفها عاملة إيه، فأعتقد إننا منعرفوش أحسن.. وجوده من عدمه سيان.

*****

ذهبت حبيبة لزيارة والدة زوجها، لكنها قابلتها بوجه عبوس وأخذت كعادتها تتهمز وتتلمز ثم وجدت بعينها كثيراً من رسائل العتاب.. إهمال، معاملة رتيبة، أسلوب ممل، تلميحات جارحة كل هذا جعل حبيبة تخرج عن صمتها وقد نشب بينهما شجار عنيف أدى بحبيبة لإتخاذ قرار الانصراف فورًا والذهاب لبيتها لحين عودة زوجها وإيجاد حل جذري لتلك الحياة.

ولكنه حينما عاد من عمله لم يتحمل سماع الشكاوى وترك المنزل لحبيبة وذهب خارجا.

في تلك اللحظات التي عقبت خروج عادل من الغرفة شعرت أن الدنيا ضاقت بها.. فقد تركها ولا يبالي بما ستفعل بها الأيام. دارت التساؤلات بعقلها بينما هي تبكى بصمت حتى لا يشعر بها ويصفعها بضحكاته على وجهها بقوة، كاد قلبها تتوقف نبضاته، أنفاسها تحرقها من شدة لهيبها.. احمرت عيناها وزاد بريقها، وقفت فجأة والتقطت أنفاسها بقوة واحتضنت وسادتها وقد منعت بكاءها، ثم

جففت دموعها. تنهدت بحزن وأغمضت عينيها بهدوء وهي تتذكر تلك الأيام التي كانت تجمعهما سويًّا، كل ما كانت تريده هو قلب رجل يعشقها. سقطت دموعها على خديها فمسحتها وأخذت تلتقط أنفاسها بهدوء والذكريات تتوالى سريعًا أمام عينيها، ولم تملك إلا أنه هاتفت والدتها لتحضر على الفور وتنهي تلك المهزلة.

*****

فتح د. مالك الدفتر مرة أخرى ليجد أنها سطرت آخر صفحتين بهما، تعجب فتلك ليست النهاية، وعلم أنه سيبذل جهدًا مع زهرة من أجل معرفة أهم التفاصيل. هاتفته زوجته أن حبيبة اتصلت بها وهي تبكي وقد قررت ترك المنزل، لكن والدتها منعتها وأوصتها أن تهدأ لحين مجيئهم. ارتسم الضيق على وجهه وقد بدت على نبرات صوته وهو يحدثها:

ـ حاضر يا نيرة هخلص شغلي وتعدى عليكِ نروحلها.. ربنا يهديهم. قولي لبنتك مادام جوزك مهانكيش إياكي تسيبي بيتك، وإلا صدقيني لا هسأل فيها ولا هتدخلها في موضوع وبلاش شغل العيال بتاعهم دا.. عيال آخر زمن مش قادرة تتحمل مسؤولية.

أغلق هاتفه، واستدعى سكرتيره الخاص يستعلم عن آخر حالة والتي لم تحضر بعد، قرر الانتظار قليلًا وبعدها سيغلق العيادة.

فتح الأجندة ليقرأ ثانيةً:

(أغلقتُ صفحات الماضي نهائيّا وقررت البدء من جديد بصفحة بيضاء جديدة أسطر فيها إنجازاتي التي حُرمت من تحقيقها يومًا. قررتُ الذهاب للجامعة وإعادة القيد فيها، قابلتُ نادين بعد حفل الخطبة، تحدثتُ معها كثيراَ، سردتُ لها ما بجعبتي لكنها لم تنصفني، هي الوحيدة التي صرحت لي أني المذنبة والمخطئة من البداية، ونصحتني ألا أعلق أخطائي على شماعة غيري، فكثيرون مثلي يعانون ويرون الويل لكن هيهات أن يخطئوا أو يسيروا في طريق الظلمات،

لكني استسغت طريق الشيطان، وفي النهاية خسرت كل شيء، سمعتي وحياتي وأهلي وأصبحت وحيدة أحاول شق طريقي مرة أخرى. وعدتني أنها ستساعدني، اعترفتث لها أني أريد مغادرة منزل نوال بعد مجيء ابنتها والعيش معها بعد سفر زوجها، فقد أصبحت المضايقات أكثر ولا أريد إزعاج أحد. أخبرتني أن نوال سوف تسافر لأداء العمرة، وبالتالي سيكون من السهل الخروج من المنزل بحجة عدم العيش بمفردي مع آسر، وهذا سبب مقنع ولا يد لابنتها فيه. سألتها عن ذلك الشخص الذي يُدعى نبيل، رئيس الجريدة وأخبرتها بما حدث، حذرتني منه ومن العمل معه، قالت إن أردتِ العمل فسيري ورائي فقط، وإياكِ والاختلاط بنبيل، فليس لديه أي ذرة احترام ولا أخلاق، وكل ما يهمه مصلحته ورغباته فقط. فهمت الخطب الآن وعلمت أنه حاول استدراجي بكلماته الرقيقة وإعجابه بي ليوقعني في شباكه.

نوال لم يطمئن قلبها إلا حينما هاتفت نيرة أختها وسألتها عن الشقة التي بجوارهم، هل استأجرها أحد أم مازالت فارغة؟

عرضت عليّ نادين العيش معها في نفس المنزل ولكني لم أشعر بالراحة، فمعها أكثر من ست فتيات ولا أريد الاختلاط بأحد يظل يسألني عن كل كبيرة وصغيرة بحياتي.

قررت العيش بمفردي أستذكر دروسي بهدوء أخرج للتنزه أو العمل دون تدخل أحد، فالشقة أمام نيرة فسيحة، تحتل الطابق الثالث في بناء من تسعة طوابق. أغلقت الباب خلفي بعدما رحبت بي نيرة وأعطتني بعض الأغراض والطعام، تفحصت المكان رغم الغبار وخيوط العنكبوت فوجدت أثاثها ذا ذوق رفيع، حاولت ترتيب المكان وتنظيفه حتى امتلكني التعب، ألقيت جسدي على الفراش ودفنت رأسي بالوسادة وغصت في نوم عميق).

*****

قلب عم فتحي البيت رأسًا على عقب، ظل يصدر السباب بمن في المنزل أجمع ويكرر:

ـ أنا كنت سايبة هنا تحت المرتبة دي.. أي عفاريت خدته ولا كلته العته؟
بينما يرتجف جسد ندى النحيل خوفًا من فضح أمرها ولكن لا مفر، فقد تذكرت أمها أنها طلبت منها إحضار الأكياس ليلة الحادث، حينها زاد ارتجافها وبدأ بكاؤها ونحيبها وقبل أن تصدر أي تبرير لفعلتها انهالت والدتها عليها ضربًا، ظلت تلعنها، تسبها وتتمنى موتها.
ـ ما هو انت اللي مدلعها، اديها جلمين عشان متمدش اديها على حاجة اللي تتشك في جلبها دي، داهية تسد نفسك وتعكنن عيشتك زى ما انت عكننتي عيشه أبوكي وجطعتي رزقه يومين.
ثم لكمتها ثانية:
ـ انطقي يا بت وديتي الأجندة فين؟
ظلت تسرد لهم ما حدث ثم تركتها لأبيها والذي أشفق عليها بعد تلك اللكمات والوكزات التي نالتها من أمها. ظل يصرخ بوجهها لكنه لم يضربها على رغم من أن الدم يغلى في عروقه بسببها.

*****

جلست نيرة مع ابنتها حبيبة، والتي لم تستطع تمالك نفسها أمام والدتها، وقد سالت دموعها بلا انقطاع، وبعد محاولة نيرة لتهدئتها، مسحت أنفها بمنديل ورقي وحاولت تمالك نفسها وهي تردد:
ـ خلاص يا ماما، أنا ماليش مكان هنا، عادل رمى عليّ يمين طلاق.
وبالغرفة المجاورة يتحدث د. مالك مع عادل عما حدث، فيروى له تلك المشادة التي حدثت بين حبيبة ووالدته، هو على علم أن والدته المخطئة، لكنه غضب من حبيبة لأنها تحدثت معها بطريقه غير لائقة. صمت لبرهة ثم شرح له أن أمه كأي أم تريد أن ترى أحفادها قبل وفاتها، وتفكر بطريقتها الخاصة التي لا عتاب عليها، فهي امرأة كبيرة بالسن، ولا بد من احترامها مهما حدث. لم ينكر أنها جرحت مشاعرها حينما أقسمت أمامه أنها ستزوجه غيرها، وأنها اختارت بالفعل العروس، هنا استشاطت حبيبة غضبًا وقامت بالرد عليها بأسلوب غير لائق،

وحينما عاد من العمل من الطبيعي أن يستمع إلى وصلة من الشكاوى التي لا تنقطع، وقد علم من والدته الخطب كله وعاتبها كثيراً عما بدر منها. صعد لأعلى وبداخله قرارات لتطييب خاطر حبيبة، ليجدها ولأول مرة منذ زواجهما تقابله بوجه عابس، وحينما حاول مداعبتها انفجرت كقنبلة موقوتة تنتظر أحدًا لنزع فتيلها، وظلت تتهمه أنه يريد تركها وأنه سئم العيش معها مادامت لم تنجب وأنه من طلب من أمه تزويجه بأخرى. ظلت تتحدث بلا انقطاع حتى احتد الحديث بينهما ووصل الأمر بحبيبة لأول مرة ـ وهذا ما جعله في قمة تعجبه ـ أنها طلبت الطلاق، وقد أصرت عليه، فما كان منه إلا أنه كتب لها ورقة بما تريد وخرج من المنزل ولم يعد إلا الآن حينما هاتفه مالك. استمع د. مالك وظل يتحدث معه.

ـ برضه يا ماما انتِ مغلطاني؟ بقولك من ساعة ما نزلت عندها ومافيش على لسانها غير سيرة الخلفة، تخيلي متهماني أني باخد حبوب منع الحمل عشان مجبش منه عيال، وأخرة الكلام ألقاها مدياني حجاب تقولي بليه في ميه واستحمي بيه لتكوني مكبوسة ولا معمولك عمل، ولما اعترضت فضلت تحلف إنها هتجوزه وإنها خلاص شافتله عروسة، وعادل كمان لما اتناقشت معاه لقيته ما صدق وفضل يقولي وفيها إيه لما الواحد يتجوز وفضل يغيظني. فاض بيا يا أمي قولتله خلاص طلقني، ما صدق وفضل يزعق وكتبلي ورقة وقالي أهو دا اللي إنت عايزاه أديني كتبتهولك في ورقة وطبقها ومشي، سابني في عز ما أنا محتجاله.

خرجت نيرة دون أن تعقّب على كلام ابنتها، وبعد بضع دقائق من إنهاء الحديث كانت المواجهة، ظل كل منهما يسرد ما لديه، أنهت حبيبة حديثها قائلة:

ـ وما صدق أني قولتله ننفصل راح كاتبلي فالورقة إنتِ طالق.

سألها والدها عن الورقة، أجابت بأنها ألقتها في القمامة، وهنا عاتبها مالك قائلًا:

ـ لا يصح علاج المواقف بالانفصال، ولا يصح تكرار الكلمة دي على اللسان، فلو اعتاد اللسان قولها هتنتهي الحياة بين الزوجين قبل ما تبدأ، والزوجة الحكيمة

هي اللي تصبر وتحتسب. والدة زوجك زي والدتك، كرامتها من كرامته واحترامها من احترامه.

عاتب حبيبة كثيراً على طلبها للطلاق، فأجهشت بالبكاء وهي تقول:

ـ والله يا بابا أنا ولا في دماغي موضوع الطلاق دا أصلًا وحضرتك عارف كدا كويس، أنا كل الحكاية أني حسيت أن كرامتي اتجرحت قوي وكنت موجوعة وخايفة قوي إن عادل يسيبني فيوم. لقيت نفسي بقوله خلاص أنا همشي ولو مش عايزني طلقني. والله أنا كل اللي كنت محتاجاه إنه يطيب خاطري، كل اللي كنت مستنياه منه إنه يحضني وبس، يحسسني بالأمان أنا بني أدم برضه.

أغمض عادل عينيه وضم شفتيه وقد احتبست الابتسامة من فمه، وقبل أن يعقب أحد قام من مجلسه وأحضر الورقة. حاول فردها وإعادة هيئتها بعدما كادت حبيبة أن تسحقها بيدها، فتحها ووضعها أمام عينيها لكنها لم تعيره اهتمامًا ولا تريد أن ترى ماذا كتب، فقلبها يحترق بسبب فعلته تلك، لكنه أعاد عليها السؤال وأن تقرأ بصوت مسموع ما بها، حاولت فتح عينيها ونظرت للورقة فانفرجت أساريرها.. ظلت تنظر له وتضحك بلا انقطاع، ثم بكت، فقد كتب بالورقة "بحبك ومهما حصل عمر قلبي ما هيختار حد غيرك".

ثم جلس أمامها وحدثها بلطف:

ـ كلمة طالق سهل نطقها، والرجل مش هيخسر حاجة انه يقولها، بس أنا مهتمتش لطلبك عشان عارفك وعارف رجاحة عقلك، لكن انت تركتِ مساحة كافية للشيطان أن يحتلها، ويتكلم بلسانك. زوجتي حبيبتي ضعفت أمام أول ابتلاء. الأطفال دول نعمة من ربنا ورزق، لا أنا ولا إنت لينا يد فيها و عمري ما فكرت أبدا إنك السبب ولا عمري هتجوز عليكِ، ولا أنا جيت فيوم قولتلك روحي اكشفي. أنا اخترت حبيبة عشان بحبها، ربنا أكرمني بأولاد منها فضل ونعمة، مأكرمنيش عمر دا ما هينقص من حبك ولا قدرك عندي. أتمنى إن دي تكون آخر مرة نقعد القعدة دي أو إن الموضوع دا يكون سبب خلاف بينا بالشكل دا تاني...

المرة دي أنا تفهمتك وراضيتك بس الله أعلم المرة جاية تكون الظروف عاملة إيه، إوعي تسمحي للشيطان إنه يدخل بيننا تاني، أنا عايز حبيبة بتاعة زمان.
دعا د. مالك لعادل بأن يديم الله المحبة بينهما وأثنى عليه وعلى رجاحة عقله، واستسمحت نيرة عادل ومالك أن تنفرد قليلًا بحبيبة وقد أملت عليها بعض النصائح والوصايا، وتلت عليها بعض آيات القرآن وأجزاء من الرقية الشرعية، قبلتها واحتضنتها بقوة ثم قالت:
- جوزك دا جوهرة حطيه فعنيكِ وحافظي عليه، وبلاش جنونتك دي تطلع تاني.
*****

(لم تمض فترة حتى وَجدتُ بعض التساؤلات في أعين بعض الجيران، وخاصة زوجة بواب العمارة التي اعترضتني يومًا بعدما ابتعتُ بعض الأغراض من البقال، وظلت تسألني عن عائلتي وأهلي. أجبتها أن والديّ متوفيان، وجئت للقاهرة واستأجرت الشقة من أجل الدراسة:
- ولو في دماغك أي حاجة يا ريت تشيليها لأني مش هسمح لحد يتكلم نص كلمة، وعلى الله حد يتدخل في حياتي.
ثم تركتها وذهبت دون سماع رد.
ذهبت لهيئة البريد وسحبت جزءًا كبيرًا من المال الذي أعطاني إياه أخي نصيبي من منزل أبي، وفي الأيام الأولى قبل عملي مع نادين، جهزت المنزل وأصلحت بعض الأعطال، اشتريت ملابس وهاتفًا جديدًا بعض الحلي وأدوات التجميل. كنت أشتري من أرقى المحلات وبأغلى الأسعار كي أواكب تلك الفئة التي أعيش معها. وفي يوم وجدت إحداهن تطرق باب شقتي.. فتحت لأجدها مدام سوزي التي تسكن بالطابق الرابع، وقد حملت بيدها لفافة بها بعض الحلوى وبابتسامة مصطنعة قبلتني. لم أجد أمامي إلا أن أستقبلها، ظلت تتحدث عن نفسها وعملها كمغنية بإحدى الكباريهات، حينها أثارت حفيظتي، لكنها أجابت مسرعة:

ـ بس متخافيش منى أنا مش من إياهم واللي بتبيع نفسها، أنا بعتبر الغناء دا فن وشغل لكن أكتر من كدا ماليش في السكك البطالة.

ابتسمت ولم أقتنع بوجهة نظرها، ولكن لكل شخص حريته وقراره هو المسؤول عنه، رحبت بها كثيراً وأبديت سعادتي بوجودها وقبل خروجها قبلتني ثانيةً وقالت:

ـ أكيد لازم نبقى صحاب بقى، ومتفتكريش أني بجرجر رجليكي والكلام الفاضي دا، وعارفة إن هيوصلك كلام مش كويس من سكان العمارة، بس صدقيني كله كدب في كدب، أنا ماليش في الشمال ولو احتجتِ أي حاجة أنا تحت أمرك.

أغلقت الباب ووضعت يدي على قلبي وبداخلي يتساءل:

ـ هي جاية ليه؟

ثم أجبت:

ـ يمكن فعلًا عايزاكِ تتصاحبي عليها.. يا ستي سيبك.

هاتفتُ نادين لمقابلتها من أجل الحديث عن العمل بالجريدة وقد قررت الذهاب معها، توجهنا لإحدى المراكز التجارية، ابتعت بعض الملابس والأحذية وأدوات التجميل.

هاتفها آسر أنه سيقابلها، وحينما علم بوجودي عرض عليّ أن أذهب معهما للتنزه، رفضت خشية مضايقتهما، وعدت للمنزل ثانية. طرقت الباب على نيرة، وجلست معها قليلًا أسألها على "سوزي" وقد أخبرتها بما حدث:

ـ بصي أنا أعرف إنها مغنية في كباريه، مليش اختلاط بيها نهائي، فمقدرش أقولك إنها وحشة ولا حلوة. إنت كمان خلي اختلاطك بيها بسيط، وعلى الحياد، وريحي نفسك من القيل والقال.

أخبرتها بعملي في الجريدة، فدعت الله لي أن يرزقني خير ذلك العمل ويبعد عني الشر:

ـ ومش هوصيكِ على نفسك، اللي مريتي بيه كفيل إنه يعلمك كتير، أنا بس بنبهك خلي بالك على نفسك.

ـ ماتخافيش عليّ أنا خلاص اتعلمت بجد، أنا لازم أبص لمستقبلي وبس.

ابتسمت لي وودعتني بقبلات حارة ثم أغلقت الباب خلفي. أعددت نفسي في اليوم التالي، هاتفت نادين والتقينا بمكان قريب من تلك الجريدة، ظلت طوال الطريق تغدق عليَّ من النصائح، أُحَدِّث مَن، ولا أحدث مَن، أتوخى الحذر مِن مَن، إلى أن وصلنا. سرت بجوارها أينما تذهب، حتى لاحظ أحدهم وحدثني بلهجة سخرية:

ـ إنتِ خايفة نادين تضيع منك ولا إيه؟

لم أعره اهتمامًا، وذهبت للشرفة وضعت بأذني سماعة نادين الخاصة بهاتفها المحمول، فقد تركته معي حتى تنجز عملها، عدت استمع لبعض المقطوعات الموسيقية، ولم أعر أي فرد اهتمامًا حتى وجدت " نبيل" خلفي ويرحب بي بشدة. عرض عليّ الذهاب معه للمكتب لكني تعذرت بحجة انتظار نادين، همس:

ـ هو إنتِ صاحبة نادين، يا محاسن الصدف.

وجدت نادين أمامي تنظر لي بحدة، ابتسمت وقالت له:

ـ دي زهرة صحبتي هتيجي كل يوم معايا وتمشي معايا، يعني تقدر تقول هشغلها معايا.

أمال رأسه ورفع حاجبيه وفرد ذراعيه قليلًا:

ـ تشرف وتنور طبعًا.. المكان مكانك زهرة هانم، بس إحنا لسه مخلصناش كلامنا.

ثم تركنا وذهب بعدما رمق نادين بنظرة غضب، نظرت لي بحدة:

ـ قولتلك مالكيش دعوة بيه.. من الآخر دا سكته بطالة، وصدقيني هو فاتح الجريدة دي بيزنس وبس وسايبنا هنا ناكل عيش.. يعنى لو سيبتي نفسك ليه هو في الأول هيشغلك في الإعلانات وطبعًا هتجيبلك فلوس قد كدا، ومرة فمرة هتلاقي نفسك بتتنازلي عن مبادئ كتير وأخلاق عشان تجيبي إعلان واحد، وكل ما كان المعلن سخي كل ما كان التنازل أكتر.. تقدري تقولي بيع وشرا بس على نضيف.. فهمتِ ولا أفهمك تاني.

مر اليوم على خير وعدت للمنزل وأنا أتأمل كلماتها وأتعجب عمّن تبيع نفسها من أجل بضع نقود وأتساءل ألهذه الدرجة وصل الانحطاط بمستوى بعض الصحف أن يكون شغلها الشاغل المال، فقط فتيات يعملن كبائعات للهوى ولكن وراء ستار العمل.

كان الوقت يسبق الجامعة ببضعة أشهر، قررت الالتزام والانضباط خاصة في دراستي، ساعدني آسر كثيراً في سحب أوراقي وتقديمها بكلية الألسن وهذا المعروف منه لن أنَسه مطلقًا، تمنيت أن يذهب يومًا يتفقد أخباري في تلك المنطقة البائسة لكني لم أرِد تعكير صفوي، أعلم جيدًا ما يقولون وما سيقولون، اشتقت لأمنية كثيراً وتمنيت أن أراها لكن إن عدت ساعة واحدة فلن أجد نفسي.. سيقتلونني.

شغلت نفسي بالعمل مع نادين.. المرتب ضئيل جدًّا حاولت كثيراً تدبير أموري ودفع الإيجار، إحضار مستلزمات المنزل وتدبير مبلغ من أجل الجامعة، وبعدما دفعت إيجار المنزل أكثر من مرة علمت مؤخراً أن المبلغ المتبقي بدفتري بالبريد بالكاد يكفي مواصلات الجامعة ومصاريفها وكتبها، وقررت البحث عن عمل آخر حتى أستطع تدبير أمري.

ذات مرة قابلت سوزي بمدخل العمارة حاولت تجنب محادثتها، ولكن داخل المصعد عرضت عليّ الجلوس معها قليلًا واحتساء كوب من القهوة اللذيذة، لم أمانع. جلست معها فحاوَلَت الثرثرة معي وأخذت تسألني تلك الأسئلة التي طالما سمعتها كثيراً.

ـ فين أهلك؟ عايشة لوحدك ليه؟ مين بيصرف عليكِ؟ متعلمتيش عندكم ليه.. إلخ.

بالنهاية أجبت بتلك الإجابة التي كررتها مراراً لزوجة حارس البناية:

ـ ولقيتي شغل تاني ولا لسه.

ـ لسه والله، أديني بدور بس عايزة شغل ميكونش مرهق.. كفاية الوقت اللي بقضيه عشان أجيب مصاريفي.

صمتت لبرهة ثم قالت بابتسامة خفيفة:
ـ ما تيجي تشتغلي معايا.
ولم تنتظر ردي حتى أصدرت ضحكة ثم قالت:
ـ متقلبيش كدا بهزر معاكِ مع إنك تنفعي موووت بس ميهونش عليّ طبعًا، وزي ما قولتلك، أنا ماليش في الشمال. طب بقولك إيه، إممممم، هو عرض رخم شوية بس أحسن من مافيش لحد ما تلاقي، تساعديني في ترتيب البيت تطلعيلي يومين أو تلاتة الصبح بدري من غير ما حد يحس تخلصي شغلك وليكِ عليّ أظبطلك مرتب معتبر.
صمتتُ وتعجبت من طلبها، وأبديت تحفظي على ذلك العمل. تذكرت أمي ومرت ذكرياتي معها في خدمة تلك المرأة الحمقاء، لكن لا مفر فليس هناك أي عمل آخر. أبديت موافقة مؤقتة لحين إيجاد عمل آخر.
عام كامل على ذلك الحال أصعد لها نهارًا دون علم أحد، أنجز عملي مسرعة وهي تغط في سبات عميق ثم أهرول مسرعة لأسفل قبل أن يستيقظ أحدهم، آخذ قسطًا من النوم، ثم أذهب لجامعتي وفي أوقات فراغي أواصل عملي مع نادين وأعود لأستذكر دروسي، في ذلك العام لم يكن لي أي اختلاط بأحد في الجامعة، أذهب بمفردي، أجلس بمكاني، أستمع لمحاضراتي وأعود مسرعة لمنزلي. حصلت على درجات بتقدير جيد جدًّا. فرحتي كانت عارمة، احتفلت بي نيرة ونادين.
مر ثلاثة أعوام على هذا الحال، وفي السنة الرابعة في إحدى المرات وأنا في انتظار عربة المترو، إذا بي أسمع صوتًا أعرفه جيدًا، ذلك الصوت جعلني أرتعد. أخذت أتلفت يمينًا ويسارًا حتى وجدته أمام وجهي، يتأملني قبل أن يصفعني على وجهي ويجعل شعري بين قبضة يده. ازداد صراخي وتجمع الناس حولي يتساءلون وأنا أطلب العون من أي أحد وصوت استغاثتي يزداد.
إنه سيد، ما إن رآني حتى قرر الانتقام مني. حاولت الإفلات من بين يديه، وكذلك حاول كثيرون من حولي إبعاده ولكن لا حياة لمن تنادي. ظلَّ يصفعني ويصفني بأقبح الألفاظ وهو يردد:

ـ إيه يا جماعة مراتي وبأدبها، سرقتني وأنا لازم أنتقم منها.
أنهك جسدي من كثرة الضرب، ولكنني على يقين تام إذا خارت قواي سيكون مصيري الرجوع إلى سجنه مرة أخرى. استجمعت قوتي ودفعته وركضت مسرعة لا أدري إلى أي جهة. وليت وجهي ونظرت خلفي فلم أجده ولم يلاحقني، فقد أمسك به من حوله لكنه ظل يردد:
ـ هتروحي مني فين، صدقيني لأجيبك وساعتها هدفنك بالحيا.
ثم أتبع تلك الجملة بوصلة من الشتائم القذرة.
لم أتمالك نفسي و شعرت أني سأفقد وعيي، لم أجد أمامي إلا مسجدًا هرولت إليه مسرعة، وما إن وضعت قدمي بأرضه حتى خارت قواي. جلست أرضًا وكلي يرتعد، جاءت إحداهن وما إن وضعت يدها على كتفي وحدثتني حتى انتفض جسدي. رفقت بحالي كثيراَ و ربتت على كتفي، احتضنتني، ثم قرأت عليّ آيات الله حتى شعرت بالأمان وسكن فؤادي وتوقفت عن البكاء. حاولت الحديث معي فلم أجب على أي سؤال، لم ترغمني على الحديث وتركتني. وضعت حقيبتي وفردت جسدي ثم غصت في نوم عميق لم أستيقظ منه إلا على أذان صلاة العصر. ثلاث ساعات لكنهم بالنسبة لي كأنهم أيام، أيقظتني تلك السيدة للاستعداد للصلاة، توضأت وما إن شرعت في الصلاة حتى وجدت نفسي أبكي بلا انقطاع، أربع ركعات وأنا على هذه الحال حتى فرغت منها، حاولت تلك السيدة الحديث معي مرة أخرى لكني رتبت ملابسي وحجابي وخرجت بعدما اعتذرت لها عن عدم ردي عليها.
أخرجت هاتفي لأتصل بنادين لكني وجدت الهاتف مغلقًا. قلق عارم تملكني، ثلاثة أيام لم ألتقِ بها ولم تحادثني ولا أدري عنها شيئًا على غير العادة، حتى نيرة انشغلت مع ابنتها ولم تتصل للاطمئنان عليها. ذهبت الى الجريدة أسأل عنها، الباب شبه مغلق والمكان خالٍ من أي شخص. ناديت ولكن لا إجابة. نظرت بساعتي، فأدركت أنني حضرت مبكرًا عن ميعاد فتح الجريدة بالفترة الثانية. سمعت صوتًا بغرفة نبيل، ترددت كثيراَ قبل الذهاب وطرق الباب.

همسهسات ناعمة، ضحكات خافتة وآنين ملتاع، ارتجف جسدي عند سماع الهمسات فتسمّرت مكاني، ودقات قلبى تتسارع.

ما هذا؟! وقفت أمام الغرفة، أمسكت مقبض الباب بيد مرتعشة، فتحته خلسة فبِهت وجهي حينما رأيته مع إحدى الفتيات بوضع مخل.

تحولت مسام جسدي إلى حواف لسكاكين حادة برزت كالقنفذ من هول الموقف، ظللت أحدق فيهما بثبات حاد، انحبست أنفاسي مخافة أن أتنفس فيشعرا بي فتحدث مشكلة أو أطرد من العمل. شعرت أني أريد التقيؤ، أغلقت الباب فلم يشعرا بي، وكيف يشعران وهما غارقان في تلك المتعة الملعونة؟!

جلست محاولت السيطرة على لهاثي الذي يتصاعد من جديد، وقد قررت أن أخرج من هذا المكان للأبد، سأشطبه من حياتي، فأنا أعلم جيدًا أن الدور عليّ، وسأكون في يوم فريسة لذلك الثور الهائج. انسحبت بهدوء، وتلفتت يمينًا ويسارًا كاللص، سمعت دبيب أقدام داخل الغرفة، كأن أحدهم سيخرج، جريت على أطراف قدمي خرجت من الباب ثم تنفست الصعداء، وكل ما يتردد برأسي، لماذا فعلت هذا؟ لماذا قدمت نفسها وجبة دسمة له؟ أهو حرمان أم قلة إيمان أم من أجل أن يدس بجيبها بضعة نقود لن تسمن ولن تغني من جوع؟

ركضت وراء الرغبة وفي النهاية لن تجد أمامها إلا ظلامًا دامسًا بعدما أصبحت كدمية قديمة ممزقة وأصبحت سلعة مجانية للجميع.

دار برأسي ألف سؤال وسؤال، أين نادين؟ صديقاتها لا يعلمن عنها شيئًا منذ أيام.

هاتفت نيرة لتُملي عليّ رقم آسر، لكن لا إجابة. عدت إلى المنزل وما إن رأتنى نيرة على الدرج حتى قابلتنى بوجه باكٍ وعينين حمراوين كتجمعات دموية لتقول:

ـ نادين إتخطفت ومحدش عارف عنها حاجة.

لم أتفوه بكلمة وهبطت مسرعة. سالت الدموع من عيني كالشلال، ارتعدت أوصالى لمجرد التفكير بخطف نادين.

ذهبت الى مازن في مديرية الأمن أسأل عنها، فآخر يوم إلتقينا كان بمكتبه. أخذنا منه بعض الأوراق الخاصة بقضيه الآثار والمتهم بها أكبر رجل أعمال. أبدى تعجبه الشديد وقال إنه لا يعرف عنها شيئًا، ووعدني أنه سيقوم بعدة اتصالات، وإن توصل لأي معلومة سوف يخبرني على الفور. حاول الثرثرة معي لكن كل ما يشغل بالي أين نادين؟

كلما ترددت جملة نيرة أن نادين خُطفت من أمام إحدى المراكز التجارية أشعر بدوار كبير يعصف برأسي).

** ** **

الفصل السابع

*****

جلس د. مالك أمام زهرة، وأخذ يحثها على الحديث وسرد ما حدث. حاول بث الأمل فيها من جديد، وأنها لا بدَّ أن تستعيد صحتها، وتهم للحياة مرة أخرى، ولا تستسلم للمرض، فوجودها بحياتهم شيء مهم. حدَّثها كثيراَ لكن دون جدوى، أعطاها ورقةً وقلمًا وألوانًا كثيرة وقال لها بصوت هادئ:

ـ إيه رأيك أسيبك حبه ترسمي أو تكتبي وتقولي اللي نفسك فيه، وبلاش يا ستي تتكلمي.

وضع الورق والأدوات جانبها، وابتعد قليلًا، ظلَّ واقفًا مدة لا تقل عن عشر دقائق ينتظر ردَّ فعلٍ منها، وحينما بدأ في فقدان الأمل وجد أناملها تتحرك وتتحسس تلك الورقة البيضاء ثم تناولت القلم، وهنا ارتسمت السعادة على وجهه وشعر أنها أولى خطوات الشفاء، بعد حوالي نصف ساعة رجع إليها باسمًا ومشجعًا ومثنيًا على رسمها الجميل.

دقق النظر في الرسم وجد فتاة مقيد شعرها بعِدة قيود، ويدها ومكبلة بالأغلال وعلى ثيابها نقوش حمراء، دموع كثيرة تنهمر من عينيها وحولها خطوطًا كثيرة متداخلة تحوطها من كل اتجاه وبآخر الصفحة نقشت اسم لكنها مَحَتْهُ بقلم أسود ولم يظهر ماذا كتبت، تحدث معها لمناقشة الرسمة:

ـ زهرة ركزي معايا، البنت اللي في الصورة دي بتحكي عن حياة زهرة في الماضي، ولا زهرة عايزة توصل لنا رسالة معينة؟

لم يجد إجابة، فقال:

ـ طيب البنت اللي في الصورة دى بتعيط ليه؟ وإيه النقط الحمرا اللي على فستانها؟ دا مثلًا يعني شرفها؟

لا إجابة، فتابع:

ـ زهرة إنتِ لازم تساعدينا أرجوكِ إتكلمي قولي أي حاجة.

انهارت في البكاء ثانية وقد قررت إنهاء الجلسة، فترك بجوارها ورقة أخرى بيضاء، وبعض الأقلام الفلوماستر فقط، سحب منها أي شيء يمكنها إيذاء نفسها من خلاله، وبعد عدة جلسات وجدها تكتب نادين.. مازن.. دم..
لكنه لم يستطع معرفة المزيد ولم يضغط عليها أكثر من ذلك مادام هناك استجابة.

*****

إن لحلمك قوة تلهمك، تشجعك، توقد عقلك وإرادتك ومشاعرك لتفعل كل ما في وسعك فتراه أمام عينيك، فاسعَ لتحقيق حلمك. الأحلام لن تتخلى عنك إلا إذا بادرت بذلك أولًا، فلا بدَّ أن تسعى لتحقيق حلمك وأن تملأ قلبك بالإيمان واليقين، وليكن زادك في هذه الرحلة الصبر والإرادة والإصرار. إن قابلت من يريد إحباطك، لا بدَّ أن تكون أصمًا، فمهما كانت الظروف فإيمانك بحلمك سيجعلك تحقق ما تريد، فأنت من تتحكم بظروفك لا هي من تتحكم بك.

U Must Do the Things U Think U Can't Do

هكذا أنهت أسيل حديثها مع زملائها قبل البدء في ترتيب مستلزمات الكافيه، فقد أنهوا الإجراءات وتصميم الديكورات وشراء المعدات، كل منهم يردد أغنيته الخاصة، والتي تعطيه دفعة للأمام، أحدهم يغني إيد لوحدها ماتصقفش، والآخر لو بطلنا نحلم نموت، والأخرى هندوس ميهمناش كلام، وأخيراً قامت إحداهن بتشغيل هاتفها على أغنية لما نقرب قوي من بعض، واحلم معايا ببكرة جاي..
حماس يحي الروح ويملأ القلب نورًا واندفاعًا، فتعلو صوت العظمة بعد تحقيق الحلم ليملأ الآفاق ويصل إلى سويداء القلوب ليملأه فرحة وبهجة.
بعدما انتهوا من إعداد كل شيء سمعوا صوتًا خافتًا آتٍ من بعيد، بدأ يعلو شيئًا فشيئًا، وهتافًا يهز أرجاء المنطقه مندداً بالظلم. لم تتمالك نهلة نفسها حتى وجدت قدميها تسوقانها بلا وعي لتلك المظاهرات الحاشدة وقد انضمت إليها. أبدى أحدهم اعتراضه على طريقه التفكير، والآخر دعا لهم، بينما ظلت أسيل

ملتزمة الصمت حتى تحدث أحدهم بأسلوب غير لائق عن نهلة.. نظرت له بحدة:

ـ كل واحد له هدف عايز يحققه وله مطالب عايز يطالب بيها. هما بيطالبوا بالحرية لأهلهم وبينددوا بالظلم، ونهلة ليها حق، ولازم تطالب بيه أيًّا كانت الطريقة مناسبة معاك أو لا، فلكل شخص مطلق الحرية مادام مبيأذيش حد.

شعر أحدهم أن الحوار احتد فيما بينهم، حاول إنهاءه بشكل لطيف وبإبتسامة، سألهم الدعاء بأن يبارك الله مشروعهم ويتم الانتهاء منه على خير، ويحقق نجاحًا ساحقًا، ثم قام بتوجيه سؤال لزميلته عن طرق جذب المعلنين وعن تصميم البوستر الخاص بالكافيه وقد تم الاتفاق على اسمه (الصحبجية)

قام صديقهم محمود بغناء مقطع من اغنية الصحبجية

يا ملتقى الصحبة يالالالى... يا وردة في الصحبة يالالالى... يامنورين في القعدة تمللي ياصحبجية ايه يالالالى.... انا وحبيبي روحنا فزكيبة.. يتعلموا منّا الحبيّبة.. كدنا العوازل جتها رزية.... يا صحبجية... ايه يالالالى.

تحدثت إحداهن عن إختفاء نادين، وهي إحدى الفتيات الست التي كانت تسكن معهن نادين، حزينة هي على ماآل إليه حالها وإلى الان لم تصل عنها أية معلومات، فقد إختفت فجأة ومازال البحث عنها مستمراَ.

ردت أسيل مسرعة:

ـ القضية دى فعلا مخلية بابا فحالة مش طبيعية.. احكيلى عنها اكتر، أنا اول مرة أعرف إن لها علاقة بيكي.. ما يمكن نوصل لحل.

شاركهم الحديث محمود، والذى ابدى صدمته، فلأول مرة يسمع ذلك الخبر:

ـ نادين؟! انتو بتهزروا؟! البنت دي كنت بحبها.. كتاباتها رهيبة.. حزنتيني جدًا.. ربنا يرجعها سالمة ويسترها عليها.

*****

استعادت زهرة جزءاَ من صحتها بعد عدة جلسات، وبدأت تتحدث ببطء شديد. لم يحاول د. مالك الضغط عليها، تركها على راحتها. تشنجت أعصابها وشعرت

بقلبها يهوى بين قدميها وأحست بيد باردة تعتصر قلبها بقوة، ثم بدأت في سرد الأحداث حينما سألها د. مالك:

ـ شوفي عايزة تبدئي من فين، بس أهم حاجة نوصل لإيه اللي عمل فيكِ كدا؟

أخذت نفسًا عميقًا، أغمضت عينيها، تحاول جاهدة تذكر المشاهد، وتعيد ترتيب الأحداث ثم بدأت تتحدث عن ذلك اليوم المشؤوم:

قررت يومًا الذهاب مع سوزي للاستماع إليها وإطفاء شغفي ولهيب فضولي بذلك العالم، لم يكن في مخيلتي أو كنت أنوي العمل في ذلك المكان، لكن كنت أريد معرفة ماذا يفعلون!!

دفعت إحدى قدمي بتردد حتى دلفت إلى هذا العالم الجديد، عالم يختلف عمّا رأيته في الخارج، مليء بالألوان الجريئة والأضواء القوية.

دارت عيناي في المحيط، صدمني ما رأيت، أبالسة من بني البشر، حتى هُيء لي رؤية قرون حمراء تظهر عبر خصلات شعرهم.

امرأة تتلوى بميوعة وتميل على أحد الرجال الذي يبدو عليه الثراء، تُظهر من جسدها ما تستطيع كي تغويه وتسحبه إلى بؤرتها الملوثة فتنال منه فتات المال.

وأخرى ترقص فوق المنصة ويغرقها بعض رواد المكان بتلال من المال، فقط لتزيد فترة تعريها وليمتعوا النظر إلى مفاتنها.

شعرت أني عُريت من ملابسي أنا الأخرى بعدما وجدت أحدهم ينظر إليّ بعينيه، كأنه يرسل إلى إشارات.. هلم إليّ يا فتاتي.

ملابسي لم تكن خليعة أو بها شيء عارٍ لكنها ملتصقة على جسدي بطريقة تُشعرني أني جُردت منها. حدثتني سوزي قبل ذهابنا بأن ملابسي لا تصلح لذلك المكان رغم أنني لم أعد محجبة، فلكل مكان ملابسه الخاصة، ثم فتحت لي خزانتها وأخرجت ثوبًا ذا لون فضي مزخرفًا ببعض الخيوط ذات اللون الأزرق وحول الخصر، موضوع بعض الحلي. كان الثوب طويلًا لكن من الخلف كان مفتوحًا إلى الركبة، فارتديت جوربًا كي أخفي ساقي، لم أكن على اقتناع بما

سأرتدي، بل ترددت كثيراً لكني انسقت وراء إلحاحها وتزيين ذلك المكان لي. لم أخبر أحدًا بما نويت، حتى نيرة لم تعلم، ولو علمت لوبختني وسمعت منهم كلمات غاضبة، حاولت إسكات ضميري الذي ألح عليّ كثيراً بعد الذهاب.. بكلمتين:

ـ مش يمكن أطلع من المكان دا بخبر أو تقرير كويس، واهو اطلع بقرشين حلوين.

جلست على طاولة بآخر الصالة حتى لا يعترضني أحد، وكلمات سوزي تتردد بأذني:

ـ مالكيش دعوة بحد، ومترديش على حد، ولو حسيتي إنك اتضايقتي إسألي على أوضتي وتعالي، وإدي الورقة دي للراجل إليَ واقف هناك دا ومتخافيش أنا موصياه عليك.

لا أنكر أني أَصبت بذعر شديد بمجرد أن تركتني وجلست بمفردي، شعرت أن جميع من حولي يريد التهامي، تواردت إليّ بعض ذكريات الماضي وأفعال ذلك الوغد صديق أخي.. الأحداث تمر سريعًا حتى شعرت بدوار، لكن خرجت من ذلك الشعور المقزز على صوت غناء سوزي، وفي ظل انشغالي بها وإندماجي مع صوتها الساحر، أفقت من شرودي على صوت أعرفه جيدًا وسمعته كثيراً.. إنه صوت مازن، تعالت ضحكاته وبجوارهِ فتاتين إحداهما على الجانب الأيمن والأخرى على الجانب الأيسر، يضع يدهِ على كتف كل منهما، يهمس في أذن إحداهما ويهمس في أذن الأخرى، ثم يصدر ضحكات متتالية، وكلتاهما تتمايعان بطريقتهما الخاصة، ثم قامت إحداهما وصعدت على الكرسي ورقصت أمامه، وقد سال لعابه أكثر ونظراته التي تتفحص كل شبر بجسدها تكاد أن تتحول إلى فاهِ لتلتهمها.

لا أدري كم مضى من الوقت وأنا أتأمل المشهد، أي شخص هذا وأي أخلاق تلك لرجل من المفترض أن أحد سماته الانضباط والأخلاق؟ هل من المفترض أن يحمي المجتمع من تلك الفئة أم ينخرط هو فيها؟ ألهذهِ الدرجة تحكمت به رغبته فجعلته يلهث ضعفًا وتذللًا، وقد ضاعت كل معاني القيم والمبادئ، حتمًا سيصاب

بالازدواجية.. فكيف سيتعامل مع مجرم تم ضبطه في دار يمارس بها الرذيلة؟ هل سيعاقبه ويلقنه درسًا في الأخلاق، أم سيتركه؟ فكل إنسان حر ما لم يضر.
شعرت بالغثيان فقمت مسرعة حتى لا يصدر مني أي فعل يكرهه من حولي. فتحت باب دورة المياه، أصوات لضحكات مائعة ونساء تتكئ على منضدة رخامية وأحاديث كثيرة، لم أستطع فهم ما يقولون فكل واحدة تتحدث مع أخرى. لم تكن ملامحهن واضحة في بادئ الأمر من كثرة الدخان، أخذت أتلفت حولي خائفة حتى ولجت لأحد الكبائن وأغلقت الباب خلفي بإحكام. وضعت يدي على صدري وتنفست الصعداء، حاولت تهدئة نفسي، فأخرجت المرآة محاولة ترتيب هيئتي ثم أغلقت حقيبتي وخرجت مسرعة وأنا أتلفت حولي حتى إرتطمت بشخص ما. فزعت، وارتعدت أوصالي فسقطت حقيبتي. هبطت مسرعة لأحملها وما إن قمت مرة أخرى متجهة إلى طاولتي حتى وجدت ذلك الشخص يضع يده على خصري ويضمني إليه وهو يردد كلمات وقحة. نظرت إليه بغضب عارم لأجده مازن، شهقت بأعلى صوتي وبدون وعي نطقت اسمه ثم أبعدت يده بكل قوتي، وذهبت مسرعة أسأل على غرفة سوزي.

سكتت زهرة عن الحديث ثم مسحت جبينها بعدما شعرت بصداع اخترق رأسها كالسهم ثم أخذت نفسًا عميقًا وأكملت حديثها:

ـ لم يمر الأمر على مازن مرور الكرام وخصوصًا بعدما علم أني على علاقة بسوزي. ظل يلاحقني ويطاردني باتصالاته الهاتفية، تحدثت معه في بادئ الأمر كما كنت أحدثه مسبقًا في المديرية. تحدثنا كثيراً عن نادين، لكنه وعدني أنه سيأتي بها وإن كانت تحت الأنقاض، ثم بدأ الحديث يأخذ منحنى بعيدًا عن الاحترام.. ظل يصف جمالي وكم كنت فاتنة في تلك الليلة حينما رآني بالملهى.
ـ طب مش كنتِ تقولي إن ليكِ في السكة دي.

إلى آخر الحديث الذي انتهى ببعض الكلمات السوقية البذيئة وكأنه اعتقد أني مثل الفتيات اللاتي كن بجوارهِ. لم أجب واعتذرت ثم أغلقت الهاتف نهائيًا وقمت بتغيير الرقم، ولم أعطه حتى لسوزي. انشغلت بدراستي، فاختبارات آخر العام على الأبواب. أخذت قرارًا بالالتزام وتعويض ما فات في الفترة السابقة. انشغالي وحالتي غير المستقرة بعد اختفاء نادين جعلتني أفقد تركيزي وأهملت بعض محاضراتي، وهذا ما جعلني ألجأ لإحدى الزميلات، لكن حدث ما كنت أخشاه. بدأت تثرثر كثيراً وتسألني عن كل صغيرة وكبيرة بحياتي، حتى أصابني الضيق. قصصت عليها بعض الخطب الكاذب حتى ضمنت دفترها بيدي، ذهبت مسرعة وقمت بتصوير ما فاتني ثم أعدته إليها مرة أخرى. ألحّت عليّ أن أبقى وستعرفني على زميلاتها لكني تحججت بأني على موعد آخر مع أحد أقاربي وفررت من تحت يدها وأنا أتنفس الصعداء.

لم تستطع زهرة الحديث أكثر من ذلك، فقد ازداد الصداع وشعر آسر أنها ستبدأ في البكاء، لم يعطها فرصة وأعطاها بعض الأدوية، وتوقف مالك عن الحديث فورًا لكن قبل أن يخرج، نظر إليها متسائلًا:

ـ سوزي علاقتها بمازن كانت عاملة إزاي؟

أغمضت عينيها ولم تجب، فصمت لبرهة ثم قال:

ـ المرة الجاية عايزك تحكيلي عن سبب الجملتين اللي كتبتيهم في الأجندة عندي.. فاكراهم؟

نظرت له ولم تجب عليه، خرج من الغرفة وهو يعلم أن الحديث القادم سيأخذهم إلى منحنًى جديد لحكاية جديدة.

*****

صرخات وتوسلات أطلقتها ندى تحت يد أمها، فقد انهالت عليها ضربًا حينما علمت بنتيجتها في امتحانات آخر العام، وأنها حصلت على مجموع ضعيف:

ـ ربنا ياخدك يا بعيدة ويريحنا منك.. أبوكِ طلعان عين اللي چابوه عشان يوفر لك الجرش وانتِ كل اللي شاطرة فيه تعلفي وتنامي چاموسة، دا حتى الـچـاموسة بنستفاد منيها. والمصحف الشريف ماعنتي معتباها تاني ولا هتشمي ريحتها، وابجي وريني شطارتك بجى في شغل الدار.

حاولت الإفلات من بين يديها وكل جزء بجسدها يصرخ من شدة الألم، ارتمت على سريرها وقد غطت جسدها النحيل بالغطاء، حتى اختفت تحته تبكي وتتمنى الموت، ثم سمعت صرخات والدتها وهي تنادي عليها وكلما رددت اسمها انتفض جسدها أكثر. قامت مسرعة من تحت الغطاء، فهي تعلم جيدًا مصيرها إن لم تلبِ نداءها، أعطتها كثيراَ من الأوامر وقد عزمت على تلقينها درسًا، أملت عليها الكثير من المتطلبات والأعمال المنزلية كي تشعر بمدى النعمة التي كانت بها، ولها أن تختار إما الاجتهاد وتحقيق أعلى الدرجات وإلا فمسؤولية المنزل كلها ستقع على عاتقها.

*****

أعدت حبيبة لعادل مشروبه المفضل، وكان كوبًا من عصير الليمون المثلج، وجلست بجواره ثم ابتسمت وقد اقترحت عليه أن يستغلوا المبلغ الذي تم ادخاره من أجل الذهاب للتنزه في العطلة الصيفية، في التقديم للعمرة وزيارة بيت الله الحرام، لعلها خطوة تكون سببًا ويمن الله عليهم بالذرية الصالحة. اعتدل بجلسته وانفرجت أساريره بذلك الاقتراح وقد لمعت عيناه ووافق دون نقاش وقد عزم الأمر.

ـ ربنا يبارك فيك ويرزقك كل الخير والله، واتأكدي إن ربنا عمره ماهيخذلنا أبدًا مادام إحنا ضحينا وفضلنا زيارة بيته عن الفسحة اللي كنا مخططين لها.

قبّل جبينها وضمها إلى صدره:

ـ بحمد ربنا إنه مَن عليا بزوجة صالحة زيك، ربنا ما يحرمني منك.

حبيبة طيلة الفترة الماضية لم تكل أو تمل يومًا من تنفيذ تعاليم والدتها حينما قالت لها:

ـ الزمي الاستغفار والصدقة وقراءة سورة يس وقيام الليل، وتأكدي لن يخذلك الله أبدًا.

*****

حينما سرد د. مالك للظابط الحديث الذي دار بينه وبين زهرة وشعوره أن سوزي لها يد بتلك الحادثة، اعتدل الضابط بجلسته ثم نظر له بتمعن:

ـ أنا كمان كنت شاكك في كدا لأنها أنكرت علاقتها بزهرة على الرغم إن البواب قال إنها أوقات كانت بتخرج معاها.

رفع سماعة الهاتف وأمر باستدعاء سوزي، وبعد عدة ساعات كانت تجلس أمامه، والتي أنكرت في بادئ الأمر حتى احتد الحوار بينهما واشتدت نبرة صوته:

ـ مش فاهم بتنكري ليه؟ مع إن زهرة هي اللي ذكرت اسمك وعلاقتك بيها، قولي بقى اللي إحنا مش عارفينه لإن كدا كدا عليكِ شبهة.

بدا التوتر على سوزي فلا تدري بأي حديث تحدثت زهرة، وعن أي موقف حكت، ثم سألت بدون تفكير:

ـ حكت عني وقالت إيه؟

ـ مش مهم قالت إيه المهم إنت عايزة تقولي إيه؟

صمتت للحظات، تلعب بأصابع يدها وتعض على شفتيها ثم نظرت له وقالت:

ـ يا بيه أنا مكنتش أقدر أقول لأ ولا أقدر كمان افتح بُقِي، أنا هحكيلك اللي يمكن يوصلك للحقيقة. مازن طلب مني إنه يكون على علاقة بزهرة بعد ما شافها معايا في الكباريه، هي جت معايا مرة تفاريح كدا مش أكتر، ومن ساعتها دخلت دماغه وقرر إنها تكون له وبس. من كُتر ما عرف ستات بقى فاكر إن أي واحدة بتتصنع العفاف، لكن وربنا أنا قولتله لأ، وإن دي بت خام ونضيفة، ومينفعش يقرب منها.. أصل يا بيه اللي يمشى في سكتنا دي مرة خلاص يبقى حكم على نفسه بالإعدام وخصوصًا لو كان موضوع له علاقة بمازن، دا إنسان مش سهل، وكنت عارفة إن بيا أو من غيري هيجيبها، فقولت أنا أولى أوصله بيها لحسن لو حطني فدماغه مش هسلم. أنا أول ماقولتلها زعقت معايا وقاطعتني فترة طويلة،

ووقتها عرف مازن، فاتجنن وفضل يزعق في التليفون، وهددني وقبل ما يقفل لقيته بيقول شكلها عايزاني أعمل معاها زى بنت الـ.. صحبتها. وقتها عرفت إنه بيتكلم على نادين بس ملحقتش أسأله عشان قفل في وشي.

استوقفها الضابط وسألها مسرعًا:

ـ يعني مازن هو اللي خطف نادين؟ إنتِ عندك علم بمكانها.

*****

وقفت زهرة أمام النافذة شردت ببصرها بعيدًا ثم أكملت حديثها:

ـ نادين.

نبتت دمعة من عينيها، مسحتها سريعًا قبل أن تشق طريقها على خدها:

ـ كل اللي أنا فيه دا بسبب نادين، ضحيت بكل حاجة عشانها.

بدا التوتر على آسر، وركز بصره عليها، اقترب د. مالك وابتسم وهو يحاول تهدئتها، مشت خطوتين للأمام ثم ألتفتت إليهم قائلة:

ـ مازن خطف نادين، مازن خلاني زى الخرقة الدايبة، مازن دمر كل حاجة حلوة جوايا، مازن أنا اللي قتلته بإيدي.

أخذت تردد:

ـ قتلته.

ثم جلست على الأرض وانهارت بالبكاء، شهق الجميع واقتربوا مسرعين حاملين إياها على السرير، ثم سألها د. مالك منها بلهجة حازمة:

ـ زهرة انت واعية للي بتقوليه!

أخذ آسر يردد:

ـ زهرة فين نادين؟ جرالها إيه؟ ماتت هي كمان؟

دفنت رأسها بالوسادة ولم تجب على أحد، انفعل آسر لأول مرة وصرخ بوجهها:

ـ انتِ بتسكتي ليه؟ معذبانا معاكِ ليه..

لكن مالك حاول تهدئته وهو يطمئنه أن الجلسة القادمة هي الجلسة الحاسمة، كان يريد مواجهة سوزي بزهرة لكنه خشي أن تتدهور حالتها.

*****

ارتشفت رشفة صغيرة من فنجان قهوتها وكأنها تستعيد أنفاسها التي حبست منذ ولوجها لمكتب الضابط أغمضت عينها وقد استرجعت ماحدث.

حين وجدتها تطرق بابها وهي خائفة ترتجف وقد احمرت عيناها من كثرة البكاء، أذنت لها بالدخول وسألتها ما الخطب، ظلت تثرثر كثيراً لم تفهم ما تقول حاولت تهدئتها وزهرة تتحدث بغضب

- ليه عملتِ كدا؟ هو أنا عملت فيكو إيه؟ عايزين تفضحوني لي؟

لم تفهم عن أي شيء تتحدث، ألقت الصور بوجهها وهي غاضبة وأخذت تدعو الله أن ينتقم منهم: ثلاث صور بالملهى؛ الأولى وهي جالسة على المنضدة تحتسي مشروباً وقد تم تركيب صورة رجل بجوارها، والأخرى لمازن وهو واضع يده على خصرها، والثالثة لها وهي تعطي أحدهم ورقة بخطي بأنها تابعة لي وأوصى ألا يضايقها أحد، لكن من يراها يعتقد أن ذلك الرجل يعطيها مبلغًا من المال.

آخر شيء كانت تتوقعه أن يضع زهرة أمام أمرين، إما أن يفضحها ويتهمها بالسرقة أو يعلم أهلها مكانها، وسيرسل لهم صور من كاميرات المراقبة الموجودة بالملهى الليلي ولهم حرية التصرف بها، فقد جمع كل معلوماته عنها.

لم تجد ما تقوله لها:

- بصي أنا هعمل حفلة بكره وهو هيكون حاضر، اطلعي يا زهرة واتكلمي معاه وشوفي آخره ايه، مقدرش أقولك أكتر من كدا، أنا عبد مأمور، وإيده على رقبتي.. طلعيني أنا من الموضوع، ومنك له بس خليكِ واعية قوي.

لم تجب عليها وتركتها وهبطت لشقتها، وقفت على الدرج تتابعها خشية أن تفقد وعيها ثم قالت لها:

ـ هستناكِ بكره.
وجدتها تتحدث مع نيرة وقد احتد الحديث حتى سمعت اسمها، وأنها تسبها، ردت سوزي لها السباب ولم تلقِ لها بالًا، دخلت شقتها وأغلقت بابها بقوة حتى تعلم أن حديثها لم يهزها.

فتحت سوزي عينيها وقد شعرت بارتياح شديد بعدما أخرجت ما بجعبتها وأراحت ضميرها.

*****

ـ تضايقت نيرة كثيرا حينما وجدتني أبكي على الدرج، وكأن قلبي يحترق. ظلت تسألني ما الخطب، لكني لم أجب، بل ظللت أردد:
ـ أنا مش وحشة، ليه مُصرين يخلوني وحشة؟
لأول مرة تحدثني نيرة بتلك اللهجة الغاضبة:
ـ شكلك حنيتِ للطريق الغلط.. نبهتك كتير مالكيش دعوة بيها وفكرتك بعدتِ عنها، لكن دلوقتي بعد ما سمعتك بتديها ميعاد دا اسمه إيه؟ المفروض تحافظي على نفسك وسمعتك، إنتِ عايشة لوحدك ولو فضلتِ على علاقة بيها اعتبري إن ماليش كلام معاكِ. وبعدين إيه اللي حصل خلاكِ متبهدلة كدا وعينك وارمة من العياط، هي جرت رجلك لطريق اللي يروح مايرجعش؟
لم أجب عليها، ولجت لشقتي وأغلقت الباب وما زالت هي خارجه تصدر دعوات غاضبة وساخطة على سوزي. في اليوم التالي صعدت لها خفية، ارتديت ملابس من خزانتها ثم بدأ أصدقاؤها في التوافد، كلما زاد توافدهم كلما زادت ضربات قلبي، فلا أدري إلى أي مصير سأهوي، ولا أدري أيضًا لماذا كل هذا الضعف والخضوع؟
أي خوف هذا ألقاني في النار رميًا في الماضي وهو الآن يسحقني.
موسيقى هادئة تمازجت مع الديكور الفاخر، مشروبات بكل أنواعها حتى الخمور، مشروبات غازية، وساخنة كلٌّ حسب طلبه.

حاولت سوزي تهدئتي لكني لم أستطع، ذهبت لغرفة نومها والتزمت الصمت كيلا يشعر بي أحد، لكن عقلي أرهقني كثيراً من كثرة الثرثرة. نهضت مسرعة، ظللت أدور وأمشي يمينًا ويسارًا كأنما لهيب أحرقني حينما سمعت صوت ضحكات مازن. وكلما زادت ضحكاته كلما زاد خوفي، بضع دقائق ووجدت سوزي أمامي تخبرني بمجيئه، وقبل أن أجيبها وجدته خلفها ونظراته تحمل تهديدًا ووعيدًا، ثم قال:

ـ كل يوم بتبقي أجمل من اللي قبله يا بت. كنتِ مخبية جمالك دا فين؟

حاولت كظم غيظي على رغم ضعفي، إلا أنني وقفت أمامه شامخة لم يهزني كلامه أو ضحكاته لكن داخلي يرتعد، ماذا ينوي؟

سألته بنبرة حادة:

ـ عايز مني إيه؟

مد يده محاولًا إمساك خدي بأنامله القذرة وهو يقول:

ـ عايز نبقى أصحاب مش أكتر.

ـ مبصاحبش، ولو فاكر إني بنت من إياهم تبقى غلطان، ولو فاكر إنك هتقدر تلمس مني شعرة تبقى بتحلم، ولو فاكر إنك خوفتني بالصورتين اللي بعتهوملي يبقى خيالك راح لبعيد. أنا كدا كدا بالنسبة ليهم مت، فمعتقدش إني هفرق معاهم. روح يا ابن الناس شوف حالك وسيبني في حالي.

هنا بدأت أشعر أن شرر الغيظ تتطاير من عينيه، وتبدلت ملامحه لملامح غاضبة لأبعد حد، ثم انطلقت منه كلمات كالسهام بعدما طرق بكفه على الحائط:

ـ عقليها يا سوزي وفهميها إن زعلي وحش. أنا هخرج برا، دقايق وألقاها جنبي وإلا هتشوف اللي عمرها ما شافته.

نظرت لسوزي وأنا أحدثها بكل غضب:

ـ أنا هنزل، وكتاب الله لو حد فيكم اعترضني لهصوت وألم عليكم الناس.

ثم تركتها وبدلت ملابسي وحملت حقيبتي، ولم أرَ أمامي إلا باب الشقة. وما إن وضعت يدي على مقبض الباب حتى وجدت أحدًا يصرخ بي من خلفي:

ـ إنتِ فاكرة أني هعدي الموضوع بالساهل؟ فاكر انك لما تسرقي أسيادك محدش هيعرفك؟ أصل اللي زيك بيبقى مكتوب على وشهم حتى لو اتصنعوا الشرف والأمانة، اقفلوا الباب دا وإن مطلعتيش العُقد اللي سرقتيه صدقيني هسجنك دلوقتي.
وقفت من هول الصدمة لم أستطع الرد، كلماته ألجمت فمي وكل حرف في حكمه علي كرشاش أطلقت ذخيرته كلها برأسي. نظرت لسوزي والتي بدى على ملامحها الاندهاش من ردة فعله وحديثه، اقتربت مني وأمسكت رسغي وهي تهمس لي:
ـ تعالي نخش جوا بلاش فضايح الله يكرمك.
ـ فضايح؟! ومين اللي هيعمل فضايح؟ إن كان عليّ ساكتة إنما الظاهر هو اللي بيحب الفضايح.
ألقيت حقيبتي أمام الجميع ونظرت له وحدثته بكل ما أوتيت من قوة:
ـ أنا مش حرامية، ومازن بيه عارف كدا كويس بس هو الظاهر إنه سكر وشرب كتير ونسي نفسه. مازن بيه يا سادة مقهور قوووي عشان معدلتلوش مزاجه، وأصلًا مش هيلمس مني شعرة، بص يا بيه أنا مافيش حاجة أبكي عليها وأعلى ما في خيلك اركبه.
أصدر ضحكات متتالية تبعها بثلاث صفقات على يده ثم اقترب مني وهو يردد:
ـ الناس دي عارفة مازن بيه كويس قوي، وعارفه إنه لما بيحب يظبط مزاجه بيظبطه مع اللي يستاهل وعمره ما بيجيب واحدة من الشارع ولا عينه بتقع على خدامة وحشرة زيك.
ثم جذبني من شعري بشدة وهو يصرخ في وجهي:
ـ هتطلعي العُقد اللي سرقتيه ولا هتكون نهايتك على إيدي؟
رمقته بنظرة استحقار ثم بصقت في وجهه وأنا أهمس:
ـ الله يلعنك يا شيخ.
لطمني على وجهي بكل قوته فارتميت أرضًا، ثم جذبني إليه مرة أخرى. حاولت سوزي إفلاتي من بين يديه وسحبتني للداخل، ظل يصرخ ويرسل لي تهديدات وأنا

أدعو عليه. حاولت تهدئتي، لكنني لطمت على وجهي كثيراً وقد فقدت السيطرة على نفسي حتى قالت:

ـ صدقيني هيجيبك هيجيبك زي ما عمل مع نادين.

تسمرت مكاني كأن أحدهم صبّ علي مادة إسمنتية، جلست فجأة على حافة السرير، نبضات قلبي وأنفاسي لم تهدأ، توقفت عن البكاء وأنا أردد داخلي:

ـ نادين!!

حاولت استجماع الكلمات ثم قلت بسرعة بالغة:

ـ فين نادين انطقي، وهو عمل فيها إيه؟ دا أنا سألته عنها قالي ميعرفش عنها حاجة.. السافل الوا.. والله لاعرفه مقامه، وربنا لأكله بسناني.

لم تجبني ولم تخبرني بأي شيء، وأقسمت أنها لا تعلم لكنها وعدتني بأن تأتي لي بكل التفاصيل، وحينما سألتها عن الطريقة ابتسمت وقالت:

ـ دي لعبتي سبيها عليّ.

وضعت يدي على رأسي، وشعرت وكأن بركانًا انفجر فيه، يدور في رأسي ألف سؤال ولا إجابة. ظلت سوزي تحدثني ولم أنتبه لها، حتى وجدتها تغمزني برسغها، فأفقت من شرودي وسألتني كيف سأتصرف مع ذلك الثور الهائج الذي يقبع بالخارج.

ـ خلاص يا زهرة مش قدامك غير خيارين يا تسايريه في اللي هو عايزه يا هيجبسك وبرضو هياخد اللي هو عايزه. دا انت هتبقي تحت رحمته، ولو سبتيه ينفذ التانية فانتِ كدا خسرتِ كل حاجة، أهلك وسمعتك هناك ودلوقتي حبايبك اللي هنا وسمعتك هنا.

لم أجب عليها وبعد لحظات قلت لها:

ـ روحي ناديه.

حاولت معرفة ما أنوي فعله لكني لم أجب، سقطت الدموع من عيني رغمًا عني، أبكي على حالي وما وصلت إليه، وحينما سمعت صوته وقفت مسرعة، نظرت بالمرآة حاولت ترتيب هيئتي لأبدو أمامه قوية، وقف على باب الغرفة وفرحة

الانتصار في عينيه. رمقني بنظرة لم أنسها حتى الآن، لكنها تحمل كل معاني الشماتة والفرحة في رؤيتي منكسرة أمامه.

تركتنا سوزي وذهبت للاعتذار لأصدقائها عما حدث منذ قليل، علا صوت الموسيقى مرة أخرى وقد إلتهى كل شخص مرة ثانية بالحديث مع من بجوارهِ.

دار بيننا حوار طويل.. حاول إرضائي والاعتذار عما بدر منه، ثم أخرج من جيبه خاتمًا أراد أن يهديني إياه:

ـ خليه في جيبك يا باشا، أنا موافقتش عشان أبيع نفسي، أنا وافقت عشان أشتريها.

ضم حاجبيه ورفعهما قليلًا وسألني مستفهمًا لكنني أجبته:

ـ هتعرف الإجابة بعدين.

اتفقت معه على ميعاد لليوم التالي، وأعطاني مفتاحًا لشقة ومن الواضح أنها شقة خاصة من أجل المتعة. نظرت للمفتاح وترددت كثيراً قبل أخذه، وضعته بين راحتيَ وقبضت عليه بكل قوتي وقد كظمت غيظي، ولو كان شيئًأ ليِّنا لسُحِقَ بيدي. وضعت المفتاح بجيبي لكن قبل أن أخرج نظرت له بحدة:

ـ زي ما أهنتني قدامهم ترجع كرامتي وتعتذر لي.

وضع يده على ذقنه ثم ابتسم ونظر لي:

ـ اعتذار مينفعش، وبعدين أكيد سوزي عملت الواجب.

ـ هنطلع وهتعتذر وهتقول إن العُقد كان جوه، وإني بريئة وهتخليني أمشي قدامهم.

ظل صامتًا لم يحرك ساكنًا إلا بعدما أتت سوزي وأخبرته أن هناك شخصين في انتظارهِ. خرج ولم يعرني اهتمامًا، علت ضحكاته مرة أخرى واندمج معهم بالحديث، شعور بالقهر يدمي القلب ويذهب العقل، ولو كان بإمكاني الآن لقتلته أمام الجميع كما قتلني بسكين بارد، وبعدما كنت مترددة في قراري بشأن مصيره، أصبح الآن قرارًا حاسمًا. هرولت سريعًا بعدما حملت حقيبتي الملقاة

على الأرض، تعمد الوقوف بجوارها، حتى أركع أمام قدمه ثم أصدر ضحكات متتالية، خرجت من الباب مسرعة وأنا أردد بداخلي:

ـ الشاطر اللي بيضحك في الآخر.

صمتت زهرة قليلًا ثم طلبت كوبًا من الماء، وحاولت استعادة أنفاسها بعدما بدا الغضب عليها وهي تقول:

ـ هو اللي أجبرني أقتله، هو اللي قهرني، قتلته لأنه كان سبب في إنه دبح نادين وقتلها زي ما دبحني وقتلني، وأكيد له ضحايا كتير، أنا مش ندمانة أني قتلته، ولو كان لسه عايش كنت هقتله مرة تانية.

حاول د. مالك تهدئتها ثم سألها:

- يعنى إنت لما كتبتِ فالكشكول الجملتين اللي كتبتيهم وكانت نفسيتك تعبانة في الفترة الأخيرة إنك رحتي فعلًا الشقة وبعتي نفسك ليه ونفذتي رغبته.

ـ متقولش بعت نفسي، أنا مكنتش أقدر أقول لحد إن هو سبب اختفاء نادين، معنديش دليل وفنفس الوقت مكنتش هقدر أنزل من بيت سوزي إلا وأنا مختارة بين اختيارين، كان لازم أروح وأسايره لحد ما سوزي تجيبلي قرارهـ. أنا لما رحت أول مرة مبعتش نفسي ولا نولته غرضه، عرفت إزاي أفلت منه، منكرش أني رقصت ولمسني، ووعدته إنه المرة الجاية هينول اللي عايزه، بس اللي حصل كان كفيل أني كرهت نفسي، كان سبب أني كرهت جسمي، كان سبب أني كرهت أني أصلًا بنت.

اقترب آسر من زهرة وهو يحدثها بلطف ويسألها عن نادين مرة أخرى:

ـ زهرة.. سوزي قالتلك عن مكان نادين؟ ولو بلغتك قالتلك إيه؟

ـ قالتلي نادين رماها مازن في المعتقل.

ذهل مالك وآسر وكررا عليها السؤال، وما كان من زهرة إلا أنها أجابت الإجابة نفسها.

** ** **

الفصل الثامن

*****

قبو تغلفه الظلمة وتكتنفه الوحشة، قبو تدب في أوصاله كل معاني اللا آدمية، شتاء قارص ييبس الأعضاء ويوقف الدم في العروق، فلا تستطيع أن تبعث دفئًا في الأوصال لمواجهته مع حجب ضوء الشمس حتى يزيد مرارة الأيام. ومن شتاء قارص إلى صيف حارق كأنه فيح جهنم، فتكثر الأمراض وتنتشر العدوى وتُحبس الأنفاس في زنزانة كأنها القبر، بل أشد من ضيقه تسع لقيماتهم البسيطة وقضاء حاجتهم ولا يستطيعون أن يميزوا فيها ليلًا من نهار، حتى باتوا يغبطون الحشرات والجراد على حياتهم في البالوعات.

علبة ضيقة من الأسمنت المسلَّح طولها ثلاثة أمتار وعرضها مترين ونصف، أما علوها فيقرب من أربعة أمتار، تسبح ليل نهار في ظلام مطبق، اللهم إلا من خيط نور رماديٍ باهت، كان يتسلل في عز النهار من ثقب في السقف فينعكس على أرضية الزنزانة على شكل دائرة صغيرة شاحبة لا تكاد ترى فيها أصابع اليدين إلا بصعوبة شديدة!

في الجهة المقابلة للباب، قبعت "نادين" على امتداد عرض الزنزانة على دكة عارية من الأسمنت، علوها وعرضها متر، كانت لهما بمثابة سرير، ولكن أيّ سرير؟ صقيعي في الشتاء وحامٍ في الصيف.

جلست نادين والدموع تسيل من عينيها ترسم على جدران الزنزانة بعض النقوش وكأنها تحكي حكاية، تكتب تاريخًا، تكتب اسمًا، لكنها نقشت اسم "مازن" ونقشت تحته العديد من الخطوط كأنها تتوعد له، ذلك الضابط الذي كان سببًا في إلقائها بتلك الزنزانة القذرة.

تذكرت تلك اللحظات والتي تمر أمامها كل يوم تجعلها تبكي، بل تنهار، تظل تركل الحائط برجليها تريد أن تصرخ بأعلى صوتها: كفاااكم ظلم وافتراء.

لم تنسَ أبدًا ذلك اليوم المشئوم الذي أرسلها فيه رئيسها بالجريدة للعمل مع اللواء مازن بمديرية أمن المدينة المجاورة لها، اختارها من ضمن الفريق للباقتها

وحنكتها وجمالها، فلكل مكان مواصفاته الخاصة. قررت العمل معه وكسب ثقته من أجل الحصول على القضايا ذات الوزن الثقيل، كما كان يردد رئيسها بالجريدة. استقبلها استقبالًا حافلًا، فكل شخصية يقابلها استقبالًا خاصًا، فما بالك بامرأة كاملة الأنوثة، ذلك الاستقبال سرّب إليها بعض القلق، فليس من الطبيعي أن يتم استقبالها هكذا، وهي من تحتاجه. وما إن التقت عيناها به حتى علمت أنه ليس بالشخصية السهلة، وأنه شخص لعوب.. علمت ذلك من طريقة حديثه، ونظرات عينيه التي لم تُرفع عنها، تطرقه لبعض الأحاديث عن حياته أو إلقاء بعض الكلمات الرقيقة لمدحها. وجدت بالبداية صعوبة في التعامل معه، لكن في منظور رئيسها "فكيها شوية توصلي"، يرى ما المانع إن تمايعت قليلًا من أجل الوصول لهدفها. لم تقبل نادين بهذا الوضع نهائيّا، ولكنها وجدت أنها لن تصل معه لنتيجة إلا بتلك الطريقة، وبالفعل انقلبت نادين بعد معاناة. انقلبت من الشخصية الجادة إلى الشخصية المرحة التي تسحر العقل وتأسر القلب، ظلت تثرثر معه كثيراً بلا هدف، لكنها تعلم كيف تتعامل ومتى تبدأ ومتى تنتهي، فقد أخطأ من دخل في منافسة مع أنثى وظن أنها الخاسرة، لكنها لم تدرك أنها بتلك الطريقة بدأت اللعبة مع أمهر صائد نسائي، إما أن يوقعها في حبه وإما أن يكسرها بطريقته. بدأت اللعبة مع من أتقنها وعلم كل قوانينها. كل ما كان يهمها العمل، وكل ما كان يهمه كيف ومتى وأين سيلتهم تلك الفريسة، فهي بالنسبة له وجبة دسمة سيتذوقها على مراحل. ظلت معه قرابة شهر تذهب بين حين وآخر تتسامر قليلًا، تحمل ملفًّا بيدها وتخرج للجريدة لقراءة مفردات القضية.. وصل الأمر بعد ذلك إلى محادثات ليلية، كانت دائمًا تنهيها بكل لباقة دون إعطائه فرصة للتمادي في الحديث الخارج، تغزل بها كثيراً وما كان منها إلا أن تبتسم وتحمل الملف في صمت وتخرج. فاض بها الكيل، ذهبت لرئيسها ترفض العمل مرة أخرى مع ذلك الشخص البذيء، احترم رغبتها وأرسلها للعمل بمكان آخر وأرسل زميلتها للعمل مكانها.

جن جنونه، رفض العمل مع زميلتها الجديدة وهاتف صاحب الجريدة أن يرسل له تلك الفتاة التي تدعى نادين، لم يجرؤ أحدٌ على التعامل معه بتلك الطريقة، فقد قابلته نادين بكل برود وكبرياء لم تسمح له يومًا بتخطي أو تجاوز تلك الخطوط الحمراء التي وضعتها له من أول مقابلة، وافقت نادين بعد معاناة ولكنها لن تذهب بمفردها وإلا استقالت من العمل، لم يرفض لها طلبًا فهي من أكفأ المحررين بالجريدة ولكن قرارها أمام توعد مازن وقراره بإغلاق الجريدة جعله يضغط على نادين بكل الطريق. لم تعلم نادين عن ذلك التهديد، فلو شعرت لبرهة أن مازن سببٌ في عودتها للعمل معه لاستقالت في الحال.

ظلت تعمل معه خمسين يومًا تذهب معها زهرة.. يتسامرون قليلًا ثم تحملان ملف القضايا وتغادرانه. لم تعطه فرصة أبدًا للانفراد بها إلا في ذلك اليوم المشئوم، اعتذرت زهرة فكانت منهكة قليلًا، ولكن نادين تريد معرفة باقي تفاصيل القضية الأخيرة التي تكتب بها، ذهبت وبداخلها يقول:

ـ هيعمل فيا إيه يعني؟ هياكلني؟!

جلست معه ما يقارب ساعتين أربكتها نظراته وكلمات الغزل التي انهالت عليها، فقدت تركيزها لبرهة حاولت استجماع شتات أفكارها، وظلت تناقشه كثيراً وتدون، شردت للحظات تستجمع أسئلتها تضع خطًا تحت ما تم مناقشته حتى فوجئت به خلفها متكئًا على رأس الكرسي الجالسة عليه، أفزعتها أنفاسه الملتهبة، قامت من مجلسها مسرعة، حاولت جمع أدواتها بسرعة لكنه اقترب منها أكثر أمسك بيدها بقوة وجذبها إليه فقد نفذ صبره، ثم همس بأذنها:

ـ خلاص إنتِ بقيتي بتاعتي.

أبعدته بكل قواها وهددته إن اقترب منها أكثر ستصرخ بأعلى صوتها... ضحك:

ـ وتفتكري هتقوليلهم إيه لما أقولهم إنك سرقتيني وأنا كشفتك، ولا مثلًا أقولهم إنك حاولتي معايا وأنا ضربتك، تفتكري هيصدقوا مين؟ حتة بت لا راحت ولا جت؟ ولا سيدهم وولي نعمتهم؟

صمتت لبرهة.. مادام سيقلب الطاولة على رأسها فليس أمامها إلا أمر واحد. حاولت إعادة ترتيب ملابسها، عضت على شفتها السفلية ثم رمقته بنظرة كالسهام يتخللها رغبة عارمة اخترقت خياله المريض، ها أنا ملك لك افعل ما تشاء. اقتربت منه أكثر، سال لعابه فلم يستطع تمالك نفسه، وقد اشتعل لهيب في جسده، وما إن حاوط خصرها بيده واقتربت شفتاه من خلف أذنيها حتى استجمعت قواها وغرزت أسنانها برقبته وعضته بقوة. نبتت قطرات بسرعة متتالية من الدم، ركلته بقوه في بطنه، هددته بالصاعق الكهربائي، رجع خطوتين للخلف ففقد توازنه ولم يتمالك نفسه، هوى على الأرض يتوجع من إثر الضربة التي حصل عليه في رأسه من يد الكرسي، والتي لم يملك بعدها أن ينادي على أحد ليمسك بتلك المتوحشة ويلقنها درساَ.

خرجت نادين، أغلقت الباب خلفها وهرولت مسرعة تلهث. شعرت أن قلبها سيقف، وازدادت أنفاسها شيئًا فشيئًا حتى شعرت أن ضربات قلبها وأنفاسها في سباق عارم.

تنظر خلفها بين كل فينة وأخرى تخشى أن يرسل أحدًا خلفها للقبض عليها، فهي على يقين تام أن ذلك الموقف لن يمر على خير حتى خرجت من ذلك المكان وركضت مسرعة، ظلت تسير في شوارع وحارات جانبية حتى ابتعدت تمامًا.

سيل من الدموع انهمر على وجنتيها، لم تستطع تمالك نفسها ولا السيطرة على خوفها. كانت تمشي بلا وجهةٍ معينة في الطرقات، تسير هنا قليلًا وهناك كثيراً، حتى وصلت لمنزل آسر خطيبها، جلست على أحد المقاعد المقابلة للمنزل تستريح قليلًا وتهدِّئ من روعها حتى لا تبث الفزع في قلوبهم، أرجعت رأسها إلى الوراء كمن يلفظ أنفاسه الأخيرة. أغمضت عينيها ثم تردد في أذنها كلماته:

ـ فات الأوان آنسة نادين. خلاص بقيتي بتاعتي.

تردد صدى تلك الجملة في رأسها كالضوضاء المزعجة، أمسكت برأسها وهي تحاول الصمود، لكن الأمر انتهى بها وهي تبكي. وضعت يدها على فمها وهي تضغط على ذلك الملف الملعون وتلك القضية التي أوقعت بها في تلك الشباك، مزقته

حتى أصبح أكبر جزء به كعقلة إصبع. الدموع أقسمت ألَّا تظل بعينيها، حاولت بجدٍ وقفها وكبحها لكنها أبت، واستمرت بالتدفق على وجنتيها كالسيول، أصبح صوت أنينها شبه مسموع، كانت فقط تربت على قلبها لتهدأ لكنَّ ذلك لم يُجدِ نفعًا بتاتًا.

جففت نادين دموعها وهدأت من شهقاتها عندما بدأت عيناها في حرقها، أحسّت أن جفونها امتلأت أكثر ولم تعد لديها القدرة على فتحهما.

أمسكت بحقيبتها ونهضت بثقلٍ وسارت إلى المنزل على قدميها، كان تريد أن تستنشق بعضًا من الهواء النقي ليريح رئتيها، دقت على باب المنزل ففتحت والدته، لم تستطع تمالك نفسها وارتمت بأحضانها ترتجف.. زاد قلق نوال وأصبحت تسألها متلهفة ما الخطب؟

ـ كان عندي شغل قريب منكم وفيه حد حاول يسرقني.

كتمت نادين ما حدث داخلها ولم تبده لها، تعلم جيدًا أن شيئًا لن يتغير، وآسر أيضًا لن يتحمل وسيتشاجر معها ولن يزيد المشكلة إلا سوءًا.

ظلت قابعة في بيت آسر ثلاثة أيام، وأغلقت هاتفها نهائيًا، لم تخرج للشارع إلا مرة واحدة للتنزه مع آسر. كان أحدهم يراقبها، وآخر يقود سيارة فارهة سوداء، دخل آسر أحد المحلات الخاصة بالأجهزة المحمولة، وبقيت هي بالخارج لضيق المحل وتكدسه بالناس، ألقت نظرة على واجهات العرض تتفقَّد بعض الحلي وأدوات التجميل، وفجأة لم تدرِ بأي شيء غير أنها وُضِعت بعربة ولُثِّم فمها وربطت يدها بالحبل.

مضى وقت طويل هكذا، ثم ساقها أحدهم إلى مكان لا تعلم هويته، طُرحت على الأرض كما تطرح البضاعة الفاسدة في قاع دهليز مظلم، ربطت يدها للوراء بحبل وغُممت عيناها بخرق وشُدت إلى الوراء بعنف متعمد.

كان قيظ الصيف شديد الحرارة، وحرارة الرعب أشد، كان الماء والطعام محرمان عليها طوال يومين، لا تعلم أين هي؟ ولماذا؟ وكلما صرخت من حنجرتها اليابسة تريد شربة ماء لم تجد إجابة إلا بركلة وسباب، ثم سيقت من مكانها إلى مكان

آخر لترى عذاباً أليمًا رهيبًا. رُفع الغطاء عن عينيها، ولكن لم يفك الحبل من يدها، اثنتان من النساء _ يبدو من هيئتهما أنهما بائعات للهوى_ مارستا معها كل أساليب التعذيب، علمت حينها أنها ستدفع الثمن غاليًا، سباب سوقي وضرب وركل في كل أنحاء الجسد، وفي النهاية شقوا ملابسها ثم تركوها بعدما هيئ لها أنهم سيلتهمونها، تلذذوا بزرع الرعب فيها، ارهبوها.. شعرت أنها في النهاية ستقدم وجبة دسمة لذلك الملعون.

بكاء وصرخات مكتومة خلف تلك الخرقة الموضوعة على فمها ثم تركوها شبه عارية.. وخرجوا، صوت إغلاق باب الزنزانة كأنه سوط ارتعدت له أوصالها، بكت وصرخت.. طرقت برأسها كثيراً على جدران الزنزانة حتى فقدت وعيها، ظلت على هذه الحال ثلاثة أيام يدخل إليها أحدهم يحوم حولها يرهبها، يجعلها ترتجف وتصرخ. لم يكن باستطاعتها فعل شيء، حتى الصراخ الذي يجعلها تهدأ قليلًا وتُخرج الوجع الذي بداخلها لم يسمحوا لها به بسبب تلك الخرقة الموضوعة على فمها.. لمسات وقحة، نظرات وعبارات قذرة، ثم يتركها ويخرج وقد فاض الكيل بها، ولولا إيمانها المطلق بالله وخوفها من عذابه لانساقت كليًا مع فكرة الانتحار التي كانت تعشش في ذهنها مع بداية كل ليلة، ملوحةً لها بالخلاص الأبدي من جبروت الطبيعة وطغيان الإنسان.

أيام رتيبة مرت عليها كما تمر قافلة في صحراء جرداء مقفرة، وفي كل ليلة يبدأ الكابوس.. يلقونها في الجحيم ثم يتركونها تبكي وتتمنى لو لم تولد يومًا. كان الخوف من المجهول يشحذ حواسها ويشحنها بأسوأ الاحتمالات، وهذا ما يجعلها يقظةً لكل شاردة وواردة، صوت فتح وإغلاق المزلاج يجعلها ترتجف، ارتطام الباب الحديدي الثقيل وراءهم كدوي قنبلة تنفجر في أعماقها فتنسف فيها كل خلية نسفًا، تمنت يومًا لو فكوا عنها تلك الخرقة الموضوعة على فمها ويدها لجعلتهم يندمون يومًا على ما فعلوه بها. كثيراً ما تمنت أن تفقد الوعي ولا ترى ولا تسمع شيئًا وهم يتبادلون الكلمات، وكل منهم يتمني أن ينفرد بتلك الفريسة الدسمة. تريد أن ينتهي ذلك الكابوس، تتمنى ان ترى ذلك اللعين الذي

أسقطها في الهاوية وألقى بها في بحر الظلمات، شعرت بالاختناق والضياع، ولِمَ كل هذا؟ لأنها تريد الحفاظ على نفسها وهويتها كأنثى، لا تنصاع وراء الرغبات وتكون فريسة كغيرها من الفتيات، ألمجرد أنها خدشت كبرياءه كرجل فعل بها كل هذا؟ فما باله إذا تركوها عليه.. ماذا ستفعل به كونه خدش حياءها كأنثى؟

ستنهش لحمه كما ينهش الأسد فريسته بعد جوع ليالٍ، وتتركه يندم على فعلته، استخدم سلطته ونفوذه في تحطيمها، ولكن نفوذها وقوتها بالتفرغ للدعاء واللجوء إلى الله سبحانه وتعالى أقوى.

لم تتذكر كم أمضت من الوقت هكذا ملتفة بخرق من القماش تستر جسدها العاري، يوضع لها بعض من الخبز ووعاء من الماء. حتى سيقت إلى زنزانة أكثر إضاءة ووضوحًا لمعالمها.. مازالت يداها مكبلة، وقد كبل الحارس فمها مرة أخرى حتى لا تصرخ، وضِعت في الزنزانة قرابة ثلاث ساعات حتى سمعت صوت المزلاج وباب الزنزانة يُفتح، ووجدت ذلك اللعين أمامها. حاولت القيام مسرعة وقد امتلكها الغضب، حتى كادت عروقها تنفجر، ظلت تلعن وتصرخ لكن تلك اللعنات والصرخات باتت حبيسة فمها، حاولت إزاحة الخرقة، حاولت فك رباطها، باتت كالثور الهائج. لم يحرك هذا به ساكنًا، بل ظلَّ يضحك ويقترب حتى اقترب أكثر ولم يصبح بينها وبينه أي مسافة، ألصق فمه بوجهها.. كادت أنفاسه تخنقها.. همس لها بهدوء:

- ليه خلتيني أتعامل معاكِ كدا؟ كان نفسي نفضل أصحاب.

حاولت البصق عليه، وضعت وجهها بالحائط، حاولت إزاحة تلك الخرقة التي تحميه منها، أمسك بشعرها، التفتت إليه، حاول إثارة الرعب في قلبها، وأنه الآن سيلتهمها، ثم سحب الغطاء من فمها، وقبل أن يطبع قبلة ملعونة سبقته هي بوابل من التوبيخ والسب.. نعتته بأقذر وأقبح الألفاظ، ظلت تبصق عليه وترسل الدعوات الغاضبة وهو يضحك حتى بكت من شدة القهر، صفعها على وجهها ثم اقترب منها مرة أخرى ويهمس ثانية:

ـ ليه بتخليني أتعصب عليكِ، أنا لو عايز حاجة ما أنتِ قدامي، ممكن ميطلعش عليكِ نهار، هتغدى بيكِ، وبره مسعورين نفسهم يدوقوا حلاوتك، عايزة تطلعي من هنا وتبقى بتاعتي وبس وأنا أخليكي ملكة، غير كدا هتفضلي هنا زي الكلبة لحد ما يطلعلك صاحب.

صرخت بأعلى صوتها:

ـ ربنا يلعنك دنيا وآخرة، ربنا يسلط على أهلك اللي يعمل فيهم كدا، ربنا ما يوريك إلا الذل والإهانة، ربنا يجعل نهايتك على إيدي.

صفعها على وجهها مرة أخرى، ثم شق تلك الملابس البالية من على جسدها وتركها لذلك الذئب المفترس الذي لا يعرف معنى الرحمة أو الإنسانية، لم تمنعه توسلاتها أو صرخاتها من الصفح عنها، أصبح كشيطان لم يَعِ ماذا يفعل.. فقد أصابته لعنة الرغبة.. !

فقدت الوعي، ولم تَعِ شيئًا بعدها إلا أنها وضعت في زنزانة مع فتيات أخريات.

تذكرت كل هذا وقد سالت دمعاتها أكثر وأكثر، واشتدت غلظة في كتابتها.. أفاقت من شرودها على صوت زميلتها تنادي:

ـ نادين.. بسسست.. نادين.. مالك حبيبتي؟

نظرت لها ولم تجب عليها ثم قالت بصعوبة بالغة بعدما مسحت دمعاتها بظهر كفها:

ـ بتسأليني مالك وإنتِ أكتر واحدة عارفة. تعبانة من القهر، تعبانة من الظلم اللي ساد.

انتبهت لها باقي زميلاتها في الزنزانة، ثمان فتيات.. أربعة احتجزن لوجودهن بإحدى التظاهرات الغاضبة الرافضة للظلم، والخامسة خرجت تنادي وتندد وتطلب حق أخيها الذي اغتيل أثناء تأدية الخدمة العسكرية وحراسته لبعض المنشآت العسكرية. والاثنتان الأخرتان ناشطتان حقوقيتان تناديان بالحرية

والتنديد بالعنف والقتل، ونادين التي غدر بها ذلك الوغد ولا يدري أحد عنهن شيئًا.

جميعهن تعرضن لظلم وبطش تلك الفئة التي لا ترحم ولا تعلم ما معنى الإنسانية، ذبحوهن.. قتلوا براءتهن.. خدشوا حياءهن، ليعلموهن أن الصمت هو أسلم وسيلة للعيش بتلك الدولة.

ومع كل هذا هيهات هيهات أن يدب الوهن في عزائمهن أو تلين لهن قناة، فقد استمدوا قوتهن من ثقتهن بالله، واشتعلت عزيمتهن وثباتهن من كتاب الله وسنة نبيه، يحدوهن الأمل في نصر قريب، ويسر ليس بعده عسر.

اقتربت منها صديقتها واحتضنتها وهي تردد:

ـ أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحين ثم الأمثل فالأمثل، إوعي تيأسي، علقي قلبك بالله وصدقيني ربك هيخلص من كل حد ظلمنا.

قالت إحداهن:

ـ تفتكري في إيه بره.

ردت الأخرى:

ـ أكيد التظاهرات زادت، بس للأسف قصاد كدا هتلاقي الظلم بيزيد، لازم كلنا نكون إيد واحدة.. ليه يفرقونا وليه إحنا نسمحلهم بكدا.

أجابت الأخرى:

ـ وصدقيني كل ما اشتد ظلام الليل كل ما بدأ الفجر في الظهور، وإن شاء الله بكره الظلم هيولي لكن لازم قلوبنا تكون كلها يقين بكدا.

ظلت نادين تردد بصوت خافت وأخذ صوتها يعلو شيئًا فشيئًا حتى اخترق الصمت الذي ساد بينهم:

ـ هفضل أضحك وأنا عارفة ضحكتي وراها ميت سجان.

هتكلم واصرخ ومش خايفة.. ومش هعمل إني كفيفة ومش شايفة.

وهملى بصوتي المكان.

وعمري ماهرضى أعيش ساكتة ولا انحنى واركع واسمع كلام واحد جبان.

وإيه يعني لو أروح معتقل
فاكرني هسكت ولا انخرس.. فاكرني خايفة لا اتحبس.. ؟
دا أنا هنقش جراحي ع الجدران واحكي للي هييجي بعدي..
وأوصفك شيطان واكتب: ظلم وخان.. باع وهان
داس بغشومية على غلابة.. ونسي إن إيماننا الصبر
لا فيوم هنضعف ولا هنخاف.. دا زمن الجبن ولّى زمان
الشيطان اتمرد على الخالق.. وكانت نهايته إنه انطرد م الجنة
وإنت مشيت ورا شيطانك.. وفاكر إنك هتتهنى
بس خليك فاكر إن سجانك اللي بيه ظلمت الخلق لا بدَّ في يوم يبقى لك جلاد
وبكره جاي.. انصرنا يا رب لاجل ما أشوفه عبرة للعباد
أصله نسي إن طول ما إيدينا لله مرفوعة عمرنا ما هنتذل ولا عنينا تبقى مكسورة
ويا بلدي هتبقي منصورة.. دا إنتِ إتذكرتي ف القرآن
وطول ما أنا لسه بتنفس.. روحي هتبقى فداكِ وهفضل بيكِ متمسك
وهخلص ليكِ يا بلادي وعمري ما هرضى أعيش ساكت
ولا هنحني في يوم لك يا زمان.
ثم قامت إحداهن وصرخت بأعلى صوتها:
ـ ليه بتعملوا فينا كدا؟ ليه بتعلقوا مشنقة للي يحبها واللي ينادي مش هبقى جبان، مش راح أطاطي، ولا على الافترا هفضل راضي، وأفضل عايش بشبح إنسان، ليه؟ حد يرد عليّ، ليه كلكم كلاب مش عايزين غير مصلحتكم وبس؟؟!
حتى جاءها ذلك السباب من خلف باب الزنزانة بوابل من أقبح الألفاظ وحذرها أن لم تصمت ستنال منه أشد العقاب، زاد غضب نادين وظلت تصرخ:
ـ هتعملوا فينا إيه أكتر من كدا، ضرب وضربتونا، تعذيب وورتونا أشد أنواعه، اعتداء واعتديتوا علينا، هتعمل فينا إيه أكتر من كدا، انت لو بنتك معانا كان هيبقى دا حالك.. ربنا ينتقم منك.

*****

جلس د. مالك مع آسر وكريم وعم زهرة.. الجميع مندهش يُبدي تساؤلات وعلامات تعجب كثيرة. فآسر لم يهدأ مذ علم الخبر، القلق نهش قلبه ليصمت عن الحديث، لكن عقله لا يكل عن الثرثرة، لم يهدأ، ظل يمشي بالغرفة ذهابًا وإيابًا حتى حاول د. مالك تهدئته.

آسر: هتجنن.. يا ترى عاملة إيه؟ يا ترى هي كويسة؟ ولا جرالها حاجة؟ ثم نظر لهم وقال:

ـ هو إحنا هنفضل ساكتين ومتكتفين كدا؟ أنا لازم أروح وأسأل عليها، لازم أطمّن.

ثم همّ بالوقوف لكن كريم منعه وأمسك برسغه، وحاول إخماد ثورته وأنه لا فائدة من ذهابه لقسم الشرطة، ولكنه تركهم وذهب.

نظر د. مالك لعم زهرة ثم حدثه قائلًا:

ـ إوعى تكون جبت سيرة لحد عن اللي حصل.

نظر له وقال بجدية:

ـ إن كان عن اللي قالته فيستحيل أتكلم، وإن كنت تقصد وجودها في المستشفى فمافيش حاجة بتستخبى، سيبها على الله وربنا ينجيها. أمنية بنتي هتتجنن وتزورها، أول ما نزلت أجازة من شغلها وعرفت كل يوم تسألني عايزة تروحلها. ربنا يعدي الأزمة دي على خير.

حاول العديد من الصحفيين الولوج إلى زهرة واستجوابها حينما علموا بتحسن حالتها، لكن من دون فائدة، فقد امتنعت عن الإجابة عن أي سؤال وطردت الجميع خارج الغرفة.

*****

الفصل التاسع

*****

المرأة تحب المفاجآت، هكذا يردد عادل دائمًا، وبالتالي لم يخبر حبيبة أنه قام بحجز ثلاث تذاكر عمرة له ولها ولوالدته. لم تتمالك نفسها، ظلت تضحك وتقفز كطفلة عمرها عامين فرحة بحلوى أهداها إياها والدها، خانتها دموعها.. ثم جلست على الأرض تحدث نفسها:

ـ والله ما مصدقة.. أحمدك يا رب إنك سمعت دعائي.

قامت ثانية واحتضنت زوجها وشكرته، ثم ذهبت مسرعة وأمسكت هاتفها في شوق ولهفة لتُعلم والدتها الخبر.

*****

أعدت نهلة وأسيل كروت الدعوات الخاص بالافتتاح.. تذكرت صديقتها صاحبة الأنامل الذهبية في صنع الحلوى وخاصة الكب كيك، وقد عزمت أن تهاتفها وتطلب منها صنع العديد منها وتقديمها للمدعوين، وستخصص لها ركنًا خاصًا بالكافيه أسمته "حاجة حلوة" لعرض منتجاتها، فمنذ عرفت صديقتها للمطبخ طريقًا وقد أبدعت في صنع الحلوى، خصوصًا تلك القوالب الصغيرة.. تعدها شهية لذيذة ومليئة بالشقاوة، شقاوة سنها والحياة المبعوثة داخلها.. تضع سحر طفولتها في كل قالب تصنعه.. تعده بكل حب فيدخل لقلب من يتناوله.

ـ إيه رأيك يا منى.. ندبس محمود في فقرة من فقرات الافتتاح، أنا عارفة إنه موهوب.. صوته جميل.. وكمان بيألف أغاني.. نخليه يعرض موهبته.

هكذا عرضت نهلة على صديقتها.. لكنها لم تُبد اهتمامًا واضحًا! أومأت برأسها ثم قامت من مجلسها لاحتساء فنجان من القهوة. لوت نهلة فمها ورفعت حاجبها قليلًا ثم أخذت نفسًا عميقًا وذهبت لاستكمال مسؤولياتها متعجبة من ردة فعلها.. لكنها أعطتها عذرًا.

*****

ـ بجد يا بابا يعنى هتخليني أزورها.. طب بالله عليك قولي هي عاملة إيه؟
سرد لها بعض تفاصيل الحادث، هوت على الكرسي المجاور لها حينما علمت الخبر من حديث والدها، ففي قلبها غصة وبعينها دموع حائرة وبحنجرتها صرخة مكتومة، انسابت الدموع على وجنتيها كنهر جارى أخذت تردد:
ـ حبيبتى يا زهرة.. والله صعبانة عليّا.. عملتِ إيه عشان يجرالك كل دا!!
ثم نظرت لوالدها:
ـ هزورها امتى؟
أمسك يدها برفق عله يهدهد حزنها ثم أجابها بهدوء:
ـ اصبري شوية.. مش عايزين شوشرة.. إحنا مش سايبينها.. وأول ما حالتها تتحسن هبعتك لها، بس أهم حاجة محدش يعرف ولا كلمة.
لكل حريق مطفئ.. لكن نار الحقد لا تخبو أبدًا.. فزوجته بالخارج سمعت الحديث بأكمله وقد عزمت على الكيد لها وإخبار سيد بمكانها، لم يحرك خطب زهرة ساكنها؛ بل بالعكس همست قائلة:
ـ مصيبة تاخدها البعيدة.

*****

رفرف قلبها يسبقها إلى أطهر بيوت الأرض، بيت الله الحرام، الطيور المحلقة فوق الرؤوس تهلل مرحبة بوصولها الآمن.
السماء صافية والشمس ساطعة تمهيدًا لروحانية غير مسبوقة وراحة نفسية عالية.
أحكمت تثبيت قدميها فوق الأرض أثناء إنهاء الإجراءات النهائية قبل الخروج من المطار والتوجه إلى موضع السكن، أرجلها تريد أن تسابقها إلى الطواف حول الكعبة وكفاها يتآكلان شوقًا لملمس الحجر الأسود.
ـ ياه يا عادل أنا مش مصدقة نفسي، أنا حاسة أني بحلم.. عايزة ألِف كل شبر فيها.
ثم أخذت تستنشق الهواء بقوة وقد فردت ذراعيها، وهرولت مسرعة إلى الفندق.. رتبت حاجياتها، ثم توضأت وصلت ركعتين، وبعد أن انتهت خطت

خطوتين وفتحت النافذة لتجد الكعبة أمامها.. شعرت وكأن خدرًا سرى بجسدها.. اهتزت لرؤيتها واغرورقت عيناها بالدموع، رفعت يدها للسماء وظلت تدعو وتدعو حتى شعرت بالسكينة تملأ قلبها، ثم همت للنزول إلى الحرم.

*****

اتصال هاتفي أخبر عم فتحي ان ابنته أصيبت في حادث مروع أثناء عودتها من المدرسة.. فزع من هول الخبر.. انتفض جسده وظل يستعلم عن المكان واسم المستشفى وبأي قسم يجدونها.. ترك سماعة الهاتف ولم يهتم إن كان قد أغلقها أم لا، ارتدى ملابسه مسرعًا وهو يردد:

ـ استر يا رب.. يا لطيف يا لطيف.

نادى بأعلى صوته ـ وهو يرتدى ثوبه ـ على أمها والتي جاءت مسرعةً مستنكرة غضبه، ولكنها ألقت ما بيدها حينما علمت الخبر. لطمت وجهها، وضربت على صدرها، وظلت تنوح وتصرخ وتستعلم عما حدث، حتى نفد صبره وصرخ بوجهها:

ـ وكتاب الله لو ما سكتي لهطلجك حالًا.. غوري إلبسي هدمتك وتعالي ورايا.. كفياكي صويت بجي.

خرجت وراءه مسرعة، في ذلك الوقت وصلت نيرة من عملها وقبل أن تغلق محرك سيارتها ذهبت أم ندا إليها مسرعة وظلت ترسل توسلاتها أن تذهب بهما إلى المستشفى.

انفطر قلب نيرة حينما علمت الخطب، وظلت تدعو لها وتطمئن قلب أمها، وبعد أن هدأت قليلًا استسمحتها في الحديث:

ـ بصي يا أم ندى أنا عارفة إن دا مش وقته ربنا يقوملك بنتك بالسلامة يارب، بس اعتبريه إنذار من ربنا إنه بيقولك أنا قادر أخد بنتك، فكفاية دعا عليها. بسمعك كتير وانتِ بتهينيها وبتدعي عليها دعاوي تقطع القلب.

ـ والله يا ست نيرة ما بيكون جصدي ولا ف نيتي حاجـة.. أنا كل الحكاية أني بكون مجهورة ومفروسة منها والله.

ـ العيال كلها كدا.. يعنى حبيبة مورتنيش الويل؟ بس كل ما اتضايق منها قبل ما اشتمها استغفر أو أقول لا حول ولا قوة إلا بالله.. وفي الآخر مكنش على لساني غير ربنا يهديكِ.

صمتت ولم تجب.. حاول عم فتحي مسح دمعاته قبل أن تسيل وتفضح أمره وكأن الرجال لا يحق لهم التعبير عن مشاعرهم حتى بالبكاء وإلا يكون ضعفًا.

ـ الله ينور عليكِ يانيرة هانم.. عين العَجل والله.. أنا جولتلها كتير ونبهتها وكانت دايمًا تجول أني مدلعها.. يعني يإما الإهانة والدعا يإما أكون مدلعها.

ـ اعتبره درس يا عم فتحي والكل لازم يتعلم منه وربنا يقومها بالسلامة.

ساد الصمت قليلًا ثم انطلقت بأقصى سرعة والجميع يدعو الله أن يطمئن قلوبهم على ندا.

*****

سن سيد سكينه وخبأه بقميصه.. أعد نفسه للخروج.. لم يرَ أمامه إلا صورتها وهو يقتلها، جن جنونه حينما أخبرته صفية بمكانها، وأنها الآن بين يديه. استقل أول حافلة متجهة إلى المشفى.. تسلل خفية من البوابة الخلفية.. صعد مسرعًا وما إن رأته إحدى الممرضات حتى كتم أنفاسها وقرر قتلها، لكنه تركها بعدما فقدت وعيها من هول الموقف.. هرول مسرعًا لأعلى حتى وصل لبابها.. ظل يضحك بصوت خافت وهو يردد:

ـ هقتلك.... أخيراً هاخد تاري... أخيراً هغسل عاري.

وجد أحدهم يجلس أمام باب غرفتها يحرسها، أصابته خيبة أمل، لكنه قرر قتله، وما إن هم بالتوجه نحوه حتى قام من مجلسه وذهب لعمل كوب من الشاي، دخل سيد الغرفة مسرعًا وهو يهمس:

ـ أخيراً وقعتِ تحت إيدي.. أخيراً هخلص منك يا خاينة، كنتِ عمالة تمثلي إنك شريفة لحد ما تتمكني وتهربي.

أخرج سكينه وأخذ يقترب أكثر وأكثر، وما إن أشهره بوجهها وكاد يرشقه بصدرها حتى استيقظت فزعة وألقت بنفسها على الأرض وهي تصرخ:

ـ سيد!!
أصدر ضحكات متتالية والشرر ينطلق من عينه كالسهم:
ـ أيوه سيد.. سيد اللي استغفلتيه.. سيد اللي خلتيه مسخه للشارع كله.. سيد اللي جاي يقتلك النهارده عشان يغسل عارك.. اتشاهدي على روحك.
سحبت زهرة الوسادة مسرعة ووضعتها أمام يديه الطائشة لتغرس السكين به.. ألقتها بعيدًا ثم حاولت الفرار من تحت يديه.. تعلم جيدًا ماذا سيحل بها.. ظلت تصرخ وتستنجد بمن حولها حتى وجدت أحد أفراد الأمن والحارس الخاص بها يقتحمون الغرفة.. فعندما استعادت المرضة وعيها استنجدت بمن حولها.
فكر سيد سريعًا في الفرار من النافذة، أسرعت زهرة وأمسكت حامل المحاليل الطبية وبطحته على رأسه.. اختل توازنه حتى ألقوا القبض عليه.. تنفست الصعداء ثم جلست على الأرض.. فكل عضلة بها ترتعش.

*****

بضع دقائق وسيتم افتتاح الكافيه.. الجميع مترقب، والسعادة تغمر قلوبهم وعيونهم يملؤها الشوق لرؤية آخر خطوة في تحقيق ذلك الحلم الذي لطالما حلموا به سنوات الجامعة.. أسيل ونهلة واثنتان من زميلاتهما يقمن بفحص سريع للمكان لمعرفة إن كان هناك شيء منتقص. أحمد وأيمن وثلاثة من زملائهم يقفون بالخارج لحماية المكان من أي أذى أو بطش المشاغبين. تعالت أصوات المكبرات بالعديد من الأغاني، بالداخل ركن خاص بالقراءة وتم طباعة ورق للإعلان عن خطة ذلك الشهر، ومن أهم أهدافهم نشر الوعي الثقافي.. لم يكن الإقبال كما المتوقع في بداية الأمر.. لكن بعد بضع ساعات بدأ يتوافد عليهم أعداد لا بأس بها من الفتيات، أبدوا إعجابهن الشديد بفكرة المشروع.. اثنتان منهما قررتا الحجز في دروس الجيتار، وواحدة في ورشة عمل لكتابة القصص القصيرة، وثلاثة في تعليم اللغة الإيطالية، وجميعهن تم كتابة أسمائهن في محاضرات التنمية البشرية..
فرح الجميع بما حققوه.. ثم بدأت فقرات الحفل؛ الكلمة الافتتاحية وتعريف ماهية وأهداف المشروع، ثم تلا أحدهم بعضًا من آيات القرآن الكريم، ثم عرّف

كل مسؤول عن طبيعة عمله وما سيقدمه من خدمات للكافيه سواء خدمات تنموية، فنية، ثقافية وتعليمية، ثم قاموا بتوزيع عينات من قوالب الكب كيك...
الجميع مستمتع حتى جاءت فقرة الختام.. أشارت نهلة لأحمد فقام من مجلسه وألقى جملة وصفية لصوت محمود العذب وموهبته التي يحاول أن يواريها.. فلديه القدرة أن يحول الكلمات إلى مشاعر وأحاسيس تنقلهم إلى عالم خاص بعيدًا عن وضاعة الواقع؛ حيث كل ما هو وجداني.. باعث للحياة والإنسانية.
صفق الجميع تشجيعًا له، ورحب بهم فهو أيضًا يحتاج إلى تلك الرحلة مبتعدًا عن الأرض والتحليق في سماء الطرب، تردد كثيراً والجميع يصفق ويشجع حتى استجمع قواه.
أهدى الأغنية لأهله وأصدقائه، وما إن بدأ بالغناء حتى ساد الصمت، لم يحرك أحد ساكنًا كأن على رؤوسهم الطير.. الجميع منصتون؛ بل مندهشون.. كيف لذلك الكروان أن يواري صوته ويخفي جماله عن الناس.. ظل يرد:
(لو كان الليل غيم سماه.. لو كان الليل ضلم وأنا وحدي فطريقي وغربتي..
هفكر في أصحاب من كام سنة،
هفكر في أيام كنا سوا.. هفكر في أحلام خدها الهوا،
هفكر في شوقي ولهفتي وضحكة كانت ليا الدوا،
شايف قدامي جامعتي.. فاكر حبايبي ولمتي،
وفاكر أيام لما القرآن.. ف إيديا وأنا بقرأ صفحتي،
شايف ضحكة مالية القلوب.. شايف سما من غير غروب،
يا ريت يرجع عمري.. وأشوف أهلي وحبايبي من كام سنة،
لو كان الليل غيم سماه.. لو كان الليل ضلم وأنا وحدي، فطريقي وغربتي هفكر في أصحاب من كام سنة)
أنهى محمود آخر كلماته وبدأ التصفيق الحار من الجميع.

*****

ـ وقفتُ متصلبة جاحظة العينين، لم أحرك قدمي، وكأنما قُيدت بقيود. ركضت نحو مرآة طولية بمنزله، فأنا أعلم أن المرآة لا تكذب أبدًا، وقفت أمامها أتحسس جسدي وملابسي، ومعالم وجهي.. شعرت أن ملامحي تبدلت وتحولت إلى مسخ شيطاني.

فقتل مازن ليس بالأمر الهين على النفس.. ولكنه من أجبرني على ذلك.. فبالبارحة قهرني وأدمى قلبي حينما عرّى جسدي من لباس الحياء، وفعلت فعل العاهرات. جعلني أتلوى أمامه كالأفعى على أنغام الموسيقى.. وبالنهاية ألقى لي بعض النقود تحت قدميه.. نظرت له والقهر امتلك قلبي والدموع حبيسة عيني.

ـ حساب إيه يا بيبي إحنا بينا حساب.. الحساب دا سيبه في الآخر ليا أنا أقدّره بمعرفتي.. دا إنت هتتبسط قوي.

فزعت أكثر من مرة في الليل من ذلك الحلم اللعين الذي حلمت به مسبقًا.. وها هو يتكرر.. ذلك السوط الناري الذي يجلدني حتى يهري لحمي، وذلك الثعبان الذي يعصر جسدي وينتهي برأسي كفيلان أن يظل جسدي يرتعد طوال الليل. لم أكن في حالتي الطبيعية.. يومان على تلك الحال.. وبدأت أكتب مذكراتي بعدما أهدتني نيرة تلك الأجندة.. سطرت بها أسود تاريخ.. ركزت بها على نقاط فارقة بحياتي.. نقاط تأخذني من عالم الألم إلى عالم الموت، تسحقني بلا رحمة. وفي اليوم التالي بعدما خرجت أنا ونيرة وأنت.. عدت وبداخلي القرار الحاسم أن غدًا ليوم مشهود.. وسيرتاح العالم من قذارة ذلك الوغد،

أردت أن يكون بجواره صديق أخي وسيد، أردت أن اقتلهم جميعًا.

في الليلة التالية هاتفته.. لم يصدق أذنيه.. فقد أبديت رغبتي الشديدة في قضاء ليلة ساخنة.. تغزلت فيه كثيراَ.. لم يصدق ما يسمع ولولا أنه يعرف صوتي جيدًا لافترض أن أخرى غيري تحدثه.. حاولت سوزي محادثتي ومعرفة ما أنوي فعله وهل سأبيع نفسي حقًّا، لكنني لم أجِبها ولم أخبرها بشيء حتى تُفاجأ هي الأخرى بما سأفعل. أحضرت مادة مخدرة وضعتها بحقيبتي، بدلت ملابسي، هيأتُ له الأجواء بالشقة حتى لا يتسرب إليه الشك، وليتأكد تمامًا أن رغبتي في قضاء ليلة

معه هي أسمى أمنياتي. ستون دقيقة ووجدته أمامي.. حاولت إخفاء توتري، تلك اللحظات التي تبعت مجيئه لا أريد تذكرها..
لحظات من الألم والرهبة.. أخذني عنوة كفريسة اشتاق لها الذئب بعد سنوات الجوع والحرمان، قلبٌ هَرِمٌ يشترى بماله ما لذ وطاب، في تلك الليلة كنت سلعته. كتمت أنفاسي ولم أتمكن من السيطرة على دمعاتي.. بت ليلتي ولسان حالي يقول يا ليتني مت قبل هذا، قبل اغتصاب الروح بالنظرة واغتصاب الجسد بالقوة.
ذهبت مسرعة لدورة المياه.. فقدت أعصابي.. بكيت، ثم انهرت. أخذت أضرب برأسي في الحائط، لم أشعر بنفسي ماذا أفعل.. فلم يعطني فرصة حتى لبدء الخطة، وكأنه عَلِم ما سيحدث له فأصبح همه الوحيد تلبية رغبته.. فتحت صنبور المياه وجلست تحته حتى شعرت أن سخونة جسدي تنخفض وتعود إلى نفسي السكينة شيئا فشيئا، ومادمت خسرت كل شيء فلا بدَّ من استكمال اللعبة للنهاية.
فتحت حقيبتي.. بدلت ملابسي بملابس أكثر إثارة.. لم يهدأ لي بال حتى جعلته يجلس على كرسي خشبي هزاز.. تعمدت إغراءه ثم حدثته بأنه لا مثيل له ولا مقارنة بينه وبين سيد.. وصمني بالعاهرة حينما علم أنني لست ببكر.. ولم يصدق ما قلته عن زواجي الأول، ذهبت بدلال وأنا أتمايع أمامه حتى سال لعابه، أحضرت كوبين من الخمر، لا أدري ما اسمه لكنه مشروبه المفضل والمتراكم في خزانته، جلست بجوارهِ وأنا اهمس بأذنه بأقبح الألفاظ.. ظل يصدر ضحكات متتابعة حتى تأكدت من شربه الكأس كاملًا، قمت بتشغيل بعض الأغاني ورقصت كثيراَ حتى غاب عن الوعي.
تبدلت ملامحي وكاد الشرر ينطلق من عيني، وددت لو أن يديّ مشنقة لحكمت عليه بالإعدام.. نظرت حولي كثيراَ لم أجد غير أساور حديدية.. ثبتُّ يده بالكرسي وأغلقت الأساور ثم ربطته جيدًا ووضعت على فمه شريطًا لاصقًا، ولم أدرِ ماذا سأفعل به.. تركته لا أعلم كم بقي من الوقت هكذا.. فقد ذهبت لغرفة مكتبه وأنا على يقين أني سأجد من الأوراق ما يدلني على شيء أو يدينه.. وظنوني كانت

بمحلها.. من البديهي أن الشقة التي تؤويه وتستر كل فواحشه ونزواته سيضع بها أشياء أخرى يريد إخفاءها.

وجدت أوراقًا لمخالفات كثيرة تهوي به لحبل المشنقة.. وبعض الاسطوانات.. فضولي جعلني أحاول مشاهدتها.. فتحت جهازه الخاص الذي- ويا للعجب_ لم يكن مغلقًا بكلمة سر، وضعت أولى الاسطوانات ثم ضغطت زر التشغيل وانتظرت حتى فوجئت بأنها جميعها تحوي أفلامًا مسجلة لفتيات قام بالاعتداء عليهن وممارسة الرذيلة رغمًا عنهن، أو مشاهد لبعض الليالي الحمراء التي قضاها في تلك الشقة الملعونة.

ما جعل الدم يغلي بعروقي وأقرر قتله بالفعل أني وجدت اسطوانة لي بالليلة الماضية. أما الفاجعة الكبرى التي أدمت قلبي وجعلتني أنهار فكان مشهد نادين. ذلك الوغد الحقير صورها أثناء اعتدائه عليها، ولم أستطع استكمال المشهد.

بحثت بحاسبه عن برنامج كاميرا المراقبة الموضوعة بغرفة نومه، لأجد تسجيلًا جديدًا لما حدث بيننا قبل قليل. قاومت شعوري بالغثيان وأنا أشاهد نفسي معه للمرة الثانية وكأنني شيطانة سواي تلبستها لعنة الرغبة. وبكل الحقد والغضب بداخلي ضغطت زر إعادة تشكيل القرص الصلب للجهاز (الهارد ديسك) حتى أضمن اختفاء كل تلك التسجيلات، ثم عدت إلى ذلك الماجن لأبدأ انتقامي.

أمسكت بزجاجة ماء وسكبتها على رأسه حتى استعاد وعيه، فقد بدأ يذهب مفعول المخدر، لم يعد بقلبي ذرة رحمة أو شفقة بذلك الرجل.. فقد قطع كل السبل بأن أتركه وأرى قدرة العدالة الإلهية فيه.

أفاق من نومه.. حاول فك الأغلال.. ظل يصرخ.. ولكن دون صوت.. تلذذت برؤيته هكذا.. اقتربت منه أكثر وبصوت يملؤه القهر:

ـ شوفت وصلت نفسك لفين.. فضلت ماشي ورا رغبتك لحد ما كانت دي نهايتك، فاكر لما قولتلك أنا بشتري نفسي.. فاكر لما قولتلك أنا اللي هحاسب.. أهو أنا قدامك دلوقتي عشان أحاسبك.. انت ظلمت وقهرت واغتصبت وبهدلت بنات

كتير، والله لو أعرف طريقهم لاسيبهم عليك ينهشوا لحمك، ليه عملت فنادين كدا؟ ليه قهرتني كدا؟ استفدت إيه؟

ولم أتمالك نفسي لكمته كثيراً حتى وجدت أمامي سكينًا وضعته على رقبته وأنا أردد:

ـ نهاية عظيمة لرجل قذر.. صدقني نفسي أقطع لحمك حتت حتت.

وكلما مر أمام عيني مشاهد نادين وما فعله معي كلما اشتد غيظي ولم أتحكَّم بنفسي حتى قتلته بلا وعي، وطعنته عدة طعنات، ثم جلست أمامه أبكي وأصرخ وأنا أردد:

ـ مبسوط كدا؟! قتلتنا كلنا وفي النهاية برضه مت؟!

من هول المنظر قمت مسرعة، فأعدت كل شيء كما كان، وتأكدت من اكتمال إعادة تهيئة الحاسب، والتقطت الاسطوانات التي تحمل شرفي وشرف ضحاياه، ثم محوت أي آثار لبصماتي أو أي شيء يدل أن الموضوع له علاقة نسائية. تركت الباب مفتوحًا وهبطت مهرولة إلى منزلي بعدما بدلت ملابسي. وفي الطريق، هشمتُ الاسطوانات إلى قطع صغيرة وألقيتها في أول مكب للنفايات.

** ** **

الفصل العاشر

*****

بدا الغضب على آسر بعدما سمع بحال خطيبته نادين. ساد الصمت، حتى د. مالك لا يدري ماذا يقول، لكن لم يكن أمامه إلا أن يخبر الضابط بما وصلوا إليه، والذي قرر فتح تحقيقات عاجلة بقضية اختفاء نادين، ووضع جميع الأدلة التي تثبت أنها اختُطفت وألقيت في المعتقل. وتم إلقاء القبض على زهرة ووضعها بالحبس بعدما اطّلعوا على تقريرها الطبي والذي أوفى أنها بحالة جيدة الآن.

*****

انتهى الحفل وذهب الجميع وقلوبهم فرحة مؤيدين ومشجعين تلك الفكرة الرائعة، أخذ كل منهم يتبادل النصح والنقد، قالت أسيل والحماس يسيطر عليها:

ـ لازم نفكر إزاي نجذب الناس، ولازم يكون عندنا أكتر من شكل للدعايا، ويبقى عندنا تطوير وتجديد في برامجنا.. لازم نوصل للأمهات والأطفال مش بس فئة معينة.

ثم أضاف أحمد:

ـ كلامك مظبوط، التسويق دا أهم عوامل النجاح بالنسبة لينا، أنا أعرف واحد صاحبي بروفيشينال، لازم أخليه ينضم لينا ويدينا أفكاره.

رن هاتف أسيل.. اعتذرت عن استكمال الحديث.. دق قلبها فرحًا حينما رأت رقم والدها، فقد أراد أن يهنئها رغم انشغاله ورغم مسؤولياته، اعتذر لها عن عدم المجيء وأخبرها ما آلت إليه القضية التي يحقق بها، فتحت مكبر الصوت بهاتفها وبارك والدها للجميع متمنيًا لهم التوفيق والسعادة جميعًا. أغلقت الهاتف، واستعاد الجميع نشاطه بعد تلك التهنئة، ظلوا يتبادلون الاقتراحات، الجميع يريد إنجاح ذلك المشروع، الكل يده في يد الآخر يتحدثون بقلب رجل واحد، لم يقلل أحد من شأن الآخر ولم يشعر أحد منهم للحظة أن لا مكان بينهم،

كل منهم له مهمته يقوم بها على أكمل وجه وأن قصر أحدهم يجد الآخر في ظهره.

*****

خرجت ثلاث فتيات من المعتقل لحضور أولى جلسات القضايا الملفقة وهي إثارة الشغب ومحاولة قلب نظام الحكم، والاعتداء بالضرب على ضابط أثناء فض اشتباك المظاهرة وبحوزتهن سلاح. لم يعبأن كثيراً بما تم وما قيل وما سيُقال، فالأمر بات لهن مألوفًا ومعروفة خطواته... سيلقي القاضي بحكمه الظالم ليحتفظ بمقعده على كرسيه، ولكن كل ما كان يشغل إحداهن أن تخبر والدتها بقصة نادين وعنوان منزلها.

تم ترحيل نادين من المعتقل لسجن القناطر، فقد قام مازن بتلفيق تهمة جنائية لها، وتوعد لكاتب المحضر إن فتح فمه بكلمه سيكون حبل المشنقة حليفه. لفق لها المحضر ليكون بأمان، لكنه لم ينقلها من المعتقل. ولكن بعد موته أخبر ذلك الكاتب أحد الظباط الشرفاء بما حدث، والذى أمر باستدعائها ونقلها لسجن القناطر على الفور لاتخاذ الإجراءات اللازمة والتحقيق في تلك الواقعة.

*****

لم يؤذن لفرض إلا وقامت حبيبة بالنزول والصلاة في الحرم. انتهت من قضاء مناسك العمرة بالأمس.. دعت، رجت، تمنت، لم تنسَ أحدًا في دعائها، حتى زهرة ونداء، فقد هاتفتها والدتها وأخبرتها أن كلتيهما أكثر احتياجًا لتلك الدعوات. نيرة أيضًا لم تصدق ما سمعت من مالك، ها هو تفسر حلمها الآن وعلمت مغزاه، ظلت تحذرها كثيراً، وكانت النهاية أنها ألقت بنفسها في الوحل. ناجت حبيبة ربها أن يرزقها الذرية الصالحة وأن يُدِم المودة بينها وبين زوجها، وأن يرقق قلب والدته عليها.. دعوات وتوسلات حتى انفجرت بالبكاء، وعلا صوت نحيبها حينما سمعت السيدة التي بجوارها تقرأ الآية: {إنَّ بعد العسر يُسّرَا}، وكأنها رسالة من الله، وكأنها قرأتها خصيصًا لتطمئنها. ما إن انتهت من صلاتها حتى وجدت نفسها بدون تفكير تلتفت لتلك السيدة وتقبلها. مسحت السيدة على رأسها، لم تعلم

خطبها لكنها دعت الله لها كثيراَ أن يزيل همها ويفرج كربها، وبعد حديث طويل همت حبيبة بالوقوف لتشعر بدوار برأسها كمن يركب أرجوحة ويهزها بأقصى سرعة. جلست مرة أخرى وقد بدى عليها التعب، ولم تشعر بنفسها إلا وهي ممددة على سرير في غرفة الطبيب. طمأنها على صحتها، والتفت لزوجها يخبره أنها تحتاج لبعض الراحة، فضغط الدم لديها أقل من المعدل الطبيعي بكثير وطلب منه عمل تحليل صورة الدم. وبعد عمل الفحوصات وتحاليل أخرى اللازمة، ذهبا إلى غرفتهما الخاصة لترتاح حبيبة، وقد قرر عادل الجلوس بجوارها لرعايتها. ظلا يتسامران إلى أن غلبهما النوم.

*****

ـ تفتكر يا مالك سوزي هي اللي عملت كدا فزهرة؟

اعتدل بجلسته ثم خلع نظارته، هز رأسه بالنفي، وأجاب دون أن ينتظر استفهامها:

ـ لا يا ستي، زهرة وصلت لدرجة كبيرة من الاكتئاب والضغط النفسي وخصوصًا بعد موت مازن، وإنها هي اللي قتلته. زهرة هي اللي عملت كدا في نفسها، زهرة كانت في حالة أشبه بانهيار عصبي حاد، مكانتش مدركة هي بتعمل إيه، عقلها هيأ لها أنها لما تروح وتغسل إديها مرة واتنين وتمسح جسمها وتفضل تحت المية هتمحى آثار جريمتها، أو إنها هتنسى اللي حصل وكأن شيئًا لم يكن.. بس صوت ضميرها كان أعلى منها ودا اللي خلاها وصلت لمرحلة انهيار تام.. زعقت وكسرت وأذت نفسها. هي مكانتش عايزة تنتحر، كانت عايزة تتخلص من أثر أى لمسة من مازن لها، شايفة إن جسمها هو سبب اللي كانت فيه، عشان كدا كل الجروح فجسمها، ودا خلانا فكرنا إن حد اعتدى عليها.

اغرورقت عينا نيرة بالدموع ولم تملك إلا الدعاء، ثم سألت عن مصيرها بعدما علم الجميع أنها وراء قتل مازن. أجاب مالك بعدم إلمامه بالأمور الخاصة

بالنيابة، ولكن ما في يده هو تقديم تقرير موثق بحالتها وقت الحادث علهم يخففوا الحكم عليها.

*****

سكون بالشارع، أنوار معلقة وصوت شيخ الحصري يدوي في أرجاء المنطقة نحيب ونواح وصرخات تطلقها أم ثكلى فقدت ابنتها، وبين الفينة والأخرى تغيب عن الوعي، وحينما تفيق تظل تلطم خديها وتحاول تمزيق ملابسها وهي تردد:

ـ ياريتك خدتني أنا، ليه خدتها هي؟ دي لسه صغيرة، ليه بتعمل فيا كدا؟ ليه بتعذبني؟

الجميع يحاول تهدئتها، ويطلب منها الاستغفار والدعاء لها، وكل منهم يدعو الله أن يربط على قلبها. احتضنت صورتها وظلت تقبلها وقلبها يعتصر ألمًا، تتمنى لو تراها لبرهة فتعتذر لها عما بدر منها وتطلب أن تسامحها. جلس فتحي على كرسي خشبي شارد الذهن يحبس دمعاته، يحاول التماسك أمام الرجال يحرك رأسه يمينًا ويسارًا ويردد داخله:

ـ ياريت انجطع لساني جبل ما ينطج دعا.

وإيه يفيد الدمع وإيه يفيد البكا.

مافيش أغلى منها دا اللي راحت ندا.

دمعتى نازلة على خدي لكن جوايا راضي

اللي راحت الغالية ومافيش بعدها غالي

قلبي انفطر عليكِ يا بنية

دا أنت حبيبتي وضي عنيه

وإيه يفيد الدمع وحبيبتي راحت عروسة

وبإيدي لبستها التوب وأديتها ألف بوسة.

*****

قاعة ذات نافذة صغيرة بالكاد تسمح لبعض أشعة الشمس بالنفاذ إلى داخلها، أغلب الإضاءة تشع من عدة مصابيح، فالشمس كأنها ترفض إضاءة مكان يُحكم فيه بالسجن، أو بالأشغال الشاقة المؤبدة، وكثيراً ما يُحكم فيه بالإعدام.
فذلك المكان ينهي حياة إنسان بقرار إنسان آخر، حتى وإن كان قاضياً.
وقف الحاجب متناولًا القلم من أعلى أذنه يخط شيئًا ما في مفكرة صغيرة بيده، غير عابئ بضجيج الناس، نتيجة مناقشة القضية التي انقضت قبل دقائق أو القضية التي توشك على الانعقاد بعد لحظات.
أما من تمنعها القضبان الحديدية عن الانخراط بين الجموع فهي زهرة، التي تقف كالأسد الجسور، لم تعبأ بأحد وبعينيها نظرات ثاقبة قوية لم تنكسر مهما سمعت من تعليقات من جهة أهل مازن. ولكن أصعب اللحظات التي لم تستطع وقتها تمالك دموعها، التي سالت سريعًا على وجنتيها، فكانت حينما رأت كريم أمامها.
ظلت متمسكة بالقضبان خوفًا من الانهيار والسقوط، تغمض عينيها عن سجانها الذي يقف على باب القفص، والذى لا ينفك ينظر لها باحتقار كأن دموعها دموع التماسيح، لن تفلح في إخراجها مما هي فيه. تسارعت أنفاسها وضربات قلبها كأنهما في سباق حينما رأت القضاة، قطع حديث الجميع صوت الحاجب وهو ينادي بصوت مرتفع:
ـ محكمة
لتبدأ أصوات الحاضرين في الانخفاض إلى أن ساد الصمت في القاعة. جلس القاضي بمساعديه يرتدون جميعًا وشاحهم الأخضر، جلسوا في أماكنهم والتي تعلوهم الآية الكريمة: {وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل}.
الهيبة تعلو وجوههم والرهبة تملأ قلوب الحاضرين منهم، نظر القاضي إلى الحاجب كي ينادي على القضية، زهرة محسن أبو شادي، قضية رقم ٧٩٤٨ جنايات القاهرة.
قلب القاضي في الورق أمامه، وأخذ نفسًا عميقًا، ثم عدل نظارته، ونظر إلى الحضور قائلًا:

ـ الدفاع يتفضل.

قام الدفاع للمرافعة وأخذ أقوال الشهود، بينما زهرة داخل القفص تشعر ببرد شديد يقتحم جسدها. وما إن نادى القاضي محامي المجني عليه، حتى كاد أن يغشى عليها، فهي تعلم مصيرها بعد أن يفرغ من مرافعته، فسيصدر حكم الإعدام وسينتهي كل شيء. قام المحامي الخاص بها بعرض جميع أوراقها، ثم قام د. مالك بتقديم ورقة تثبت أن زهرة كانت بحالة نفسية سيئة دفعتها لمثل هذا الفعل المشين، وظل يشرح للقاضي حالتها وتمنى أن يتم تخفيف الحكم. قطع شرودها صوت وكيل النيابة وهو ينظر إلى هيئة القضاء بنظرات غاضبة ويقول بصوت أجش:

ـ سيدي القاضي أريد من سيادتكم ألا تأخذكم بها شفقة ولا رحمة وتوقيع أقصى عقوبة عليها؛ لتصرخ زهرة:

ـ هو اللي أجبرني، هو اللي وصلني لكدا حرام عليكم.

لتعلو أصوات الحاضرين للحظات ثم يطرق القاضى بمطرقته الخشبية معلنًا:

ـ الحكم بعد المداولة.

تسود الضوضاء مره أخرى بالقاعة وعقل زهرة أصابته حالة شلل من التفكير، مرت عليها الدقائق التي قضاها القاضي أثناء المداولة كأنها سنوات.. تريد أن تسمع الحكم ليرتاح قلبها. اقترب منها أمنية وكريم، وهنا تمنت لو تنشق الأرض وتبتلعها، لا تريد محادثتهما أو حتى النظر بأعينهما، لينظر لها كريم وعيناه يملؤها الحزن لما آلت إليه ويسألها:

ـ ليه كدا يا زهرة.

استجمعت قواها لترد بكل غلظة:

ـ أنا عملت كدا عشان هو أجبرني على كدا، ولو لسه حي هقتله تاني وتالت وعاشر، كلب وجبان وحيوان يستحق.

ـ أنتِ مش عارفة إن ممكن يوصل الحكم لإعدام، دا لو مأخدش بكلام مالك.

ـ عارفة ومعدش يهمني خلاص.. كل حاجة ضاعت.. يكفي إني عملت حاجة تشرف.
ـ غلط.. تفكيرك غلط، وحياتك كانت غلط، وفي النهاية وصلتي لحبل المشنقة.
ـ عايزين إيه دلوقتي؟ لو سمحتوا أنا مش عايزة حد يكلمني.
ثم أشاحت وجهها عنهم وقد اغروقت عيناها بالدموع، وضعت رأسها على حافة القضبان، عاد الحاجب مرة ثانية بالنداء بأعلى صوته:
ـ محكمة.
صمت الجميع وتأهبوا في انتظار قرار المحكمة. وقبل أن ينطق القاضي بالحكم نظر إلى زهرة وسألها:
ـ قبل ما ترتكبي جريمتك مخوفتيش من حكم الإعدام؟
نظرت له ولكن بتلك المرة ظهر الحزن عليها ثم أجابت:
ـ سيدي القاضي أنا من يوم ما أتولدت وأنا محكوم عليّا بالإعدام.. إزاى أخاف منه؟ دلوقتي الحياة بالنسبة لي كابوس عايزة أصحى منه ومش هيفوقني غير الموت!! تقدر تقول إن الماثلة أمامكم هي حطام امرأة أو بالأصح شبح امرأة!! انطق بالحكم يا سعادة القاضي ومتشلش همّي.
وهنا لم يجد أمامه غير أنه أصدر حكمه بعرض أوراقها على فضيلة المفتي!!!.
علا صوت الصراخ والصياح، صاح مالك وهو يردد:
ـ إزاي؟؟ كان المفروض يبقى الحكم مخفف، والورق اللي معاه مينفعش يحكم من خلاله بالإعدام لأنها كانت غير متزنة نفسيّا. حسبنا الله ونعم الوكيل فيه.
ومن الجهة الأخرى، انفجرت أسارير زوجة مازن وابنته وتبادلتا الضحكات والقبلات ثم اقتربت من زهرة، وهي تقول لها بكل ثقة:
ـ إنتِ عارفة لو مكنش حكم بالحكم دا كان هيبقى آخر يوم له على الكرسي دا، مش على آخر الزمن حشرة زيك هي اللي تعلم علينا.
بصقت زهرة على وجهها ثم قالت بلهجة غاضبة:
ـ أنا هتعدم عشان حاجة تشرف، لكن جوزك إتقتل عشان كان نجس.

ثم بصقت عليها مرة أخرى وأشاحت بوجهها تاركة إياها وقد غلى الدم بعروقها وظلت تتمتم بكلمات غير مفهومة وهي تردد:
ـ أنا هعرفك تعاملي أسيادك إزاي.
قبل خروجها من بوابة ذلك السجن المصغر ردت زهرة بأعلى صوتها:
ـ بالعكس دا أنا اللي إديت جوزك واللي زيه درس، وعرفتهم مصير اللي يرفع عينه ولا ايده على واحدة فينا هيبقى إيه.
حاولت ابنتها تهدئتها ثم وبخ زهرة ذلك الشرطي الذي يحرسها، أحكم غلق الأصفاد على يده ويدها وجرّها بجواره حتى يتم ترحيلها للسجن، وحينما خرجت من بوابة القاعة انهالت عليها وسائل الإعلام والصحفيين، وكل منهم يوجه أسئلته. لم يعطها الشرطي فرصة للإجابة على أحد، لو كان بيده لجعلها تتحدث، ولكنه يعلم جيدًا ما جزاؤه. حاول مالك وآسر وكريم وعمها بث الطمأنينة بقلبها، لكنها لم تُعر أحدهم اهتمامًا إلى أن ركبت سيارة الترحيلات ذاهبة إلى سجن القناطر.

*****

بعض وسائل الاعلام خضعت للضغط عليها وأصدرت قرارًا بمنع كتابة أو نشر أي موضوع خاص بقضية زهرة ونادين، ولكن الجهات المعارضة قامت بالبث، وعرض كافة جوانب القضية والتحدث مع مالك وآسر وعمها.
تلك القضية أثارت جدلًا واسعًا في الشارع، فتحدث عنها الصغير قبل الكبير، ثم تم استضافة أهالي الفتيات المختفيات واللاتى لم يُعلم مكانهن حتى الآن.
أثيرت التساؤلات حول مكانهن، وأصبحت القضية قضية رأي عام، فتحدثت جميع مواقع التواصل الاجتماعي عن ذلك الظلم القابع في بلدهم.. كل منهم ظل يسرد ما في جعبته.

*****

علم أخو زهرة بما حدث عندما فتح أحد مواقع الأخبار، لم يصدق عينيه وشعر وكأنما صُبت على رأسه حمم بركانية. لم يتمالك نفسه، وهاتف عمه، لكنه لم يُجب عليه، وحينها قرر أن يقطع عمله ويعود الى مصر. قام مسرعًا يلملم ما أمامه في

حقيبته بلا وعي، وبين الفينة والأخرى يتوعد لزهرة التي لطالما جلبت لهم الفضائح أينما ذهبت. هاتف كفيله لكنه اعترض ولم يسمح له بالنزول، هاتف عمه مرارًا وتكرارًا دون فائدة.
شعر أن الدم يجري في عروقه وهو لم يستطع فعل شيء، فألقى هاتفه بأقصى ما عنده حتى تناثرت أجزاؤه، ثم ذهب مسرعًا لجهاز الحاسوب الخاص به لتفقد أخبار القضية.

*****

انتفض آسر من مقعده حينما حدثته إحداهن وأخبرته بمكان نادين، فقد أعطت الفتاة والدتها رقم آسر، فنادين لم تحفظ غيره. في البداية ترددت كثيراً من إعطاء الفتاة الرقم، فأهون عليها أن تظل قابعة في ذلك المكان من أن تلتقى عيناها بعينيه. خفق قلب آسر بشدة، وسبقته روحه مهرولة إلى سجن القناطر، وعقله يأبى التحرك خطوة واحدة مخافة أن يلتقي بها. أفكار تراوده عن حالها، ثورة عارمة اشتعلت داخله، ظل يمشي بالغرفة ذهابًا وإيابًا حتى هاتف د. مالك وأخبره وقد ذهب الجميع مسرعين إلى هناك وتم استدعاء أشهر المحامين لأجلها.

*****

بخطوات غير متزنة دلفت زهرة لباحة السجن، تأملها الجميع بفضول ولم تتأمل أحد. كانت عيناها جامدة كالحجر رغم السحب المتلألئة حولها، تعبت كثيراً وأخذت منها سنون حياتها كل طاقة كامنة في جسدها، صارت كالشبح؛ ضعيفة هزيلة تائهة وهشة كثيراً، راحت لتجلس في إحدى الزوايا فسبقتها إليها إحدى النساء التي لدغها فضولها وأرادت مشاكستها فجلست قبلها، وهي تقول:
ـ دا مكاني يا حلوة مينفعش تقعدي هنا، شوفيلك حتة تانية.
ولت ظهرها دون أن تنظر لها وتحركت لمكان آخر جلست فيه بهدوء لا رغبة لها في شيء، وما أثقل تلك الكلمة عليها، فقد كانت تغوص في الرغبة الجامحة التي أسقطتها في كل تلك الويلات، والموت أصبح مرساها... الآن لا ترغب في شيء أبدًا.. حتى الموت لا رغبة لها به ولا الحياة أيضًا، معلقة في الهواء داخل أعماق

اللاشيء تسترجع كل الذكريات بجمود. احتضنت نفسها بجسدها وراحت في سبات عميق، استيقظت منه على أصوات عالية.. كان هناك شجار في المكان، أزعجها صوت النساء، ترغب كثيراً في أن تكون بمفردها. قامت من مكانها وأخذت تمشي في المكان لا تلوذ على شيء، وجدت فتاة جالسة توليها ظهرها، تكتب شيئًا ما على الجدار لا تتحدث مع أحد، ذهبت وجلست بجوارها صامتة وأغمضت عينيها لكن فجأة سمعت صراخ فتاة تهتف بلهفة:

ـ زهرة!!

انتفضت وهي تفتح عينيها لتنتبه أن الفتاة التي كانت تكتب بجوارها هي نادين!! لم تتمالك نفسها وكأنها فقط كانت تنتظر أن تراها، سقطت بين ذراعيها وهي تجهش في بكاء متواصل شاركتها فيه نادين التي أرهقها الظلم. قصت عليها زهرة كل ما حدث لها وما قامت به وهي ترى أمارات الصدمة البادية على ملامح نادين، وقبل أن تنهي زهرة حديثها لم تستطع نادين ان تتحكم بنفسها.. صرخت بأعلى صوت وهي تردد كلمة آآآه، ثم نظرت إلى زهرة وأمسكت كتفيها وظلت تهزها بأقصى قوتها ثم صرخت:

ـ انتِ سلمتِ نفسك ليه؟!... عملتِ فنفسك ليه كدا؟!... إزاي تخلي الحيوان دا يلمسك..؟!

ـ غصب عني.. هو دمرني وقتلني ألف مرة.. عمرك ما هتفهمي. خدت حقك وحقي وحق بنات كتير... أنا قتلته عشان كان لازم يحصل كدا.

ضمتها إليها، وهي تبكي وقد علا صوت بكائها وهي تصرخ وتردد:

ـ قتلتيه؟ يعني مازن مات؟ أحمدك يا رب.

ـ كان لازم يموت...

ثم جلستا على الأرض وهما ترددان "كان لازم يموت!"

قطع حديثهما صوت إحداهن تنادي على نادين:

ـ عندك زيارة.

تعجبت نادين وسألت:

- مين؟
لتجيبها بتهكم:
- إنتِ كمان بتسألي؟ يلا يا مسجونة قدامي.
قبضت على يد زهرة بقوة كأنها تستجمع قواها ثم خرجت، خفق قلبها سريعًا حينما تذكرت آسر ودعت الله ألا يكون مع الحاضرين، وما إن وقفت أمام باب الغرفة حتى ضاق صدرها، زُكمت أنفاسها حينما نفذت إليها رائحة عطر آسر فعلمت بوجوده.
ليتها تستطيع الرجوع مرة أخرى لزنزانتها، ولكن فُتح باب الغرفة لتستقبلها نسمة هواء باردة من المبرد المشغل بالغرفة. أغمضت عينيها للحظة تستجمع قواها. لا تدري ما حقيقة شعورها وهي التي يُضرب بها المثل في القوة، وَجِلَة هي الآن، تخشى نظرات من عرفوا ما فعله بها ذاك الوغد. كان السؤال الأصعب الذي تخشى أن تطرحه على عقلها هو آسر.. هل يريدها الآن بعد ما حدث؟ هل تريده هي أصلًا بعد ما حدث؟ تشنجت أفكارها وتجمد جسدها، وكادت تهرول للخلف لتعود إلى السجن، فهي لا تجرؤ الآن على المواجهة.
قامت نيرة مسرعة:
- نادين يا قلبي.. حمدًا الله على سلامتك.
والدة آسر هي التي اقتربت منها وهي تربت على كتفها. لم تجرؤ نادين على رفع رأسها تخشى أن تراه، اقتربت منها حبيبة وهي تقول بحنان:
- واحشاني يا أجدع بت والله.
لم تتمالك نادين نفسها فتهاوت بين ذراعي حبيبة التي ضمتها بقوة تواسيها وتقويها، أما هو فلم يكن بعيدًا ولم يجرؤ على الاقتراب أيضًا. اشتاقها كثيراً وأكثر من الجميع، لكنه جامد في مكانه، دماؤه تغلي وقلبه ينتفض وجسده بأكمله يعوي. تأمل جسدها الذي هزل كثيراً وتمزق قلبه على بكائها، فحبيبته القوية الصلبة التي لم يستطع شيء خدشها مكسورة أمام عينيه تبكي بضياع، ماذا يفعل الآن؟

وكأنها سمعت سؤاله فرفعت رأسها بوهن فتلاقت أعينهما، وزاد انتفاض جسده أمام نظرتها المستنجدة. رق قلبه فاقترب قليلًا لكنها كانت خائفة كثيراً، هاهو حبيبها أمامها لكن تجربتها القاسية مع ذاك الجنس يجعلها رغمًا عنها ترتعد.. تريده أن يطمئنها وتخشاه!! أخيراً اقترب منها وقال بصوت مضطرب:

- إنتِ كويسة؟

لم تنظر له. فقط أومأت برأسها أي نعم، وجف حلقه فلم ينطق بحرف آخر رغم أن الكلمات بداخله كانت تموج بعنف تنتظر العاصفة لتلقي بها على الضفاف. تحرك الجميع وعيناه لم تفارقها، وهو يقول لنفسه لن أكون رجلًا إن ضاعت فتاتي أمام عيني، دون أن أنقذها.. أخذ يتمتم:

- هتبقي كويسة يا نادين وهترجعي قوية، وأنا مش هتخلى عنك.. أنا بحبك والله.

وجه إليها الضابط كثيراً من الأسئلة، وأمر بإحضار زهرة وسوزي، وكاتب المحضر الملفق لنادين، واستجواب الجميع لمعرفة إلى أي اتجاه ستسير الأمور.

*****

بدأت جميع الجرائد والصحف بكتابة العناوين الساخنة عن نادين وزهرة والقتيل مازن.. كلٌ يسرد ما يريد ويروي القصة برؤيته الخاصة حتى شاعت العديد من الروايات.

*****

تلك اللحظة التي تنتظرها كل فتاة حين تصبح مرآتها رفيقتها تراقب انتفاخ بطنها بفرحة شديدة. كانت حبيبة تغدو ذهاباً وإياباً على المرآة تهمس لطفلها أنها تحبه، وتخبره أنها اشتاقت له كثيراً، تهوى احتضانه أكثر وتنتظره بفارغ الصبر، والجميل في الأمر أنها كانت تشعر أن الصغير يتحرك كثيراً حين تخبره ذلك، وكأنه يطمئنها:

- أنا قادم أمي لأزعجك.

فتضحك بفرحة وهي تحمد الله على نعمته وتسأله أن يتمها عليها، فيرق قلب والدة زوجها عليها وتهدأ الحرب بينهما، فالآن بينهما طفل لا ينتظر منهما سوى الحب والرعاية.

*****

مرت عدة أيام وجاء خبر الإفراج عن نادين. بكت زهرة كثيراً فرحًا لها وحسرةً على فقدانها، لكن نادين همست لها قبل أن تغادر:

ـ أنا هقلب الدنيا كلها عشانك وهنقذك ومش هسيبك لوحدك، متخافيش.. ادعي ربنا وصلي، ومتقلقيش يا زهرة وإوعي تخافي، فاهمة؟ إوعي تخافي.

خرجت نادين للحياة وهي تشحذ طاقتها لنجدة زهرة، بينما تقوقعت زهرة على نفسها في أحد الأركان وهي تنتظر ما سيحدث وكلمات نادين تطمئنها رغم صعوبة الانتظار.

علمت نهلة بخروجها، ذهبت مسرعة هي وصديقاتها الخمس فرحين واستقبلوها استقبالًا حارًا، تبادلوا القبلات والأحضان وحاولت كثيراً التماسك أمامهن.. حبست دمعاتها وتحدثن كثيراً.. لم تجب عن أي سؤال أو حتى شغلت بالها بالدفاع عن نفسها وتحسين الصورة التي رسمتها وسائل الإعلام لها.. كل ما كان يحزن قلبها أين هي منظمات حقوق الإنسان من كل هذا..

** ** **

الفصل الأخير

*****

قررت نادين وجميع صديقاتها النزول للشارع والاستعداد لعمل عدة وقفات احتجاجية شاركها العديد والعديد من مستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي. فنادين على يقين تام أن تلك المواقع بكل أنواعها هي وسيلة قوية للوصول إلى أكبر عدد ممكن من فئات الشعب. قررت نشر قصتها والظلم الذي وقع عليها، حتى وإن كان مازن أخذ جزاءه، فهناك ألف مازن ما يزالون على قيد الحياة ويتبعون نفس أسلوبه. تلقت عددًا كبيراً من الرسائل وتم الاتفاق على الميعاد والمكان، وأصبح الجميع على أهبة الاستعداد للنزول والخروج مطالبًا بحق نادين وتنديدًا بحبس باقي الفتيات دون وجه حق.

لكن نهلة عرضت عليها الذهاب معها للكافيه، وعرض قضيتها هناك؛ فالكافيه عليه إقبال كبير، وبالفعل تم عمل دعاية عن اليوم الذي ستذهب فيه نادين للكافيه.

اعترض نهلة البعض، فهكذا ستُعرض الكافيه للخطر، ولكن في النهاية لم يكن أمامهم إلا الانصياع مع الأغلبية.

شاركهم في تلك المظاهرة أهالي الفتيات المعتقلات في السجون، فقد أخبرت نادين جميع أهالي من كن معها في المعتقل.. الجميع يحاول تخيل المشهد في الغد، على يقين أن الله لن يخذلهم، يتمنون أن يكون غدًا يوم الحسم.. يوم ميلاد الحرية.

الحرية.. شمس يجب أن تشرق في كل نفس، الشروق، نعمة ربانية تتجدد كل صباح، تتنفس مع الصبح، تحمل النور، الدفء، والأمل. الشروق، ليس فقط للشمس، بل للعزيمة، لإرادة الحرية، للصمود، لميلاد يحدث رغمًا عن أنف الجميع، ميلاد حياة، ميلاد أحرار. ولشمس الأمل، إشراقة خاصة، تبث الروح في أجساد الموتى، داخل أرواح تعفنت وقلوب وُئدت، وعقول أحاط بها لجام القهر والظلام، تعيدها للحياة، وتسيرها بعنفوان.. عقول تحدت الصمت، تحدت

الخوف، وكسرت أسوار السلبية.. تحدت تشتيت الكلمة، فالجميع اجتمع على كلمة واحدة على طريق واحد، وعلى هتاف واحد:

ـ لا للظلم.. بكره ميلاد يوم جديد.

*****

نبضات ضعيفة متكررة لكنها منتظرة، أحست حبيبة أن هذه المرة ليست ككل مرة جاءها المخاض، بدأت أنفاسها تتسارع وأمها تنصحها بأن تأخذ أنفاسًا قصيرة منتظمة. ومع تصاعد الألم، والذي لا تطيقه ولا تتحمله، لكنها قررت أن تدفع بكل قواها. فمهما كلفها الأمر لحظات عصيبة، لكن بعدها سيخرج ذلك المولود للنور.. مولود لطالما حلمت به، ذلك الجنين المنتظر بعد لحظات سيولد من رحم أم، ليملأ الكون سعادة وبهجة.. عذاب حقًا، لكنه جميل.. صرخات تتمنى الخلاص، دعوات تتمنى النجاة، صراخ يصل للسماء ويسمع آذان الأصم.

*****

"بكرة ميلاد يوم جديد"

هكذا ردد المتظاهرون، بينما شجعتهم الوجوه التي وقفت تراقبهم خلف النوافذ وفي الشرفات.. منهم من يهتف معهم، ومنهم من تَشجع حقًا وخرج إلى قلب الحدث. بدأت الأعداد تتزايد وتتزايد، وهنا شعر الجميع أن هذه المرة ليست ككل مرة.. إنه الميلاد المنتظر الذي ستشرق فيه الشمس، ويُخرج الناس من عتمة الظلام الدامس إلى دفء الحرية، الجميع في نفس واحد يردد:

ـ نريد شمسًا للوطن تدفئ البلاد وتنعش العباد ولا يحول بينها وبين حريتنا سور ولا جلاد.

*****

إرهاق وتعب لكنه متوج بشوق للقاء.. للمسة.. لقبلة، تنتظره حبيبة بفارغ الصبر.. صرخات، توسلات لربها، تساؤلات متى يقف هذا العذاب.
تتحمل ثم يزداد وهنها وضعفها، ولكن كلما تذكرت قدومه تنبعث بداخلها طاقة مجددًا وتزداد قواها، فتبدأ بالصراخ من جديد وقد قررت ألا تستسلم مهما كلفها الأمر، فالولادة تستحق التضحية.

*****

أصاب بعضهم القلق من مشهد رجال الشرطة الذين تراصوا في نهاية الشارع ليسدوا عليهم الطريق، وشعروا أن اللحظات القادمة ستحمل الكثير من الآلام الممزوجة بالدماء، لكنهم قرروا أن يكملوا الطريق؛ فالحرية التي شارفت على الولادة تستحق منهم أي تضحيات!!
احتد الصدام.. كثر الحراك.. ارتبك المسئولون، خاصة القيادات في السجون، والذين شددوا الحراسة، وأكثروا الأوامر. وصل الأمر إلى المسجونين، وعلى صوت الهتاف أكثر فأكثر، حمل كل منهم شيئًا معدنيًا في يده وظلوا يطرقون الأبواب، ارتفع صوت الأذان.. الجميع والجمع في نفس واحد الله أكبر.

*****

ازداد تعب حبيبة ووهنها للحظات، صراخ يزداد، دقات قلب تتسارع.. طبيب يحاول.. ها هو قادم.. سيأتي، سيقترب، حان الوقت للميلاد، لحظات وينتهي العذاب، يزداد الألم ويقوى حتى يبلغ أشده..
وبعد دقائق.. صوت صرخات أطلقها ذلك المولود يعلن استقلاله ومجيئه.. فهو يوم مشهود.

** ** **

علا صوت الهتاف أكثر فأكثر، واحتد الصدام أكثر والجميع على أمل واحد هو ميلاد الحرية ثم علا صوت المذياع:

((يا شمس حضارة أمة تُشرق تخرق جنح الظلمة، وتزيح سواد الغمة، وتنير الأكوان، غابت زمنًا فوق دخان أطلقه فيها شيطان، ها قد أزهقه إيمان، فاسعد يا إنسان، جاوزنا النجم، وصرنا للأنجم سكنًا دنيا تتغير لا تمحو عطر حضارتنا. عدنا أمتنا نُرجع مجدك فارتقبي، وبثغرك نزرع بسمات تضوي، كالشهب وسننشر في الكون سلام، سيحقق فينا الأحلام، سنعيد البهجة للبائس ونفرج همه)).

النهاية

♥ إهداء ♥

أنتن مصابيح دربي والنجوم التي تنير سمائي لكُنّ في قلبي مكانة يعجز القلم عن وصفها.

تغريد عزت، سلمى محمد

منال الشافعي، ريهام دهمش،

هاجر الشوادفي، أية عصام،

أسماء ربيع، أمنية ضيف

إيثار الشوادفي، هايدي عزب

أمنية قلاون، آلاء جمال

نورا عبد العزيز، دعاء عامر

نهى شعبان

****

أ. محمود الحديدي مؤلف أغنية

(لو كان الليل غيم سماه)

أ. محمود شلتوت ــ م. محمد زناتي ــ أ. محمد فولتا

لكم منى كل الاحترام والتقدير

الفهرس

إصدارات دار الفؤاد للنشر والتوزيع ٢٠١٦

الكتاب	النوعية	المؤلف
دقات على باب الغربة	أدب رحلات	عبد الحميد السنبسي
أزمة ثقة - ط٢	رواية	رباب فؤاد
ثورة محظورة النشر -ط٣	توثيقي	محمد عبد الغفار
ولادة متعسرة	مجموعة قصصية	دعاء سيف
أقرباذين	مجموعة قصصية	محمد سمير رجب
حب في زمن الثورة	كتاب جماعي	مجموعة مؤلفين
نقطة.. رجوع إلى السطر	رواية	سناء البريتي
أصل الحكاية	رواية	محمد عبد العاطي
ورقة في دوسيه	ديوان شعر	محمود الجوهري
شعب مالوش كتالوج - ط٢	كتاب ساخر	أدمنز صفحة الضاكتور
انتفاضة العملاق الداخلي	تحفيزي	مصطفى محمود
خطوة لربك	شبابـي	عبد الرحمن سعيد
التوقعات المرئية للخطوبة المصرية	رواية	رضا ربيع
زوجة مستقلة	رواية	سلافة الشرقاوي
فانتوبيا	رحلة فانتازية	إسلام علي/إلهامي مجدي
حياة خفيفة على جناح فراشة	تلوين للكبار	آلاء زهير
شمس بين الضباب	توثيقي	محمود إمام
مرايا الروح	تأملات	عبير جمال الدين
بعض منا	مجموعة قصصية	عبير جمال الدين
ناريسا	رواية	ميرفت البلتاجي
اتفضل في الصالون	رواية	محمد محسن
وراء الحواس	شبه رواية	ياسين أحمد سعيد

◄ إصدارات دار الفؤاد للنشر والتوزيع ٢٠١٧ ►

الكتاب	النوعية	المؤلف
رزان	رواية	محمد الجمال
مدينة العذارى	مجموعة قصصية	إسلام الحادي
الخطية	رواية	إيهاب ماهر
حور	رواية	طاهر مصطفى أحمد
الصبار لا يعطي ظلا	مجموعة قصصية	مجدي حشمت سعيد
صندوق رسائل	رواية	وليد نبيه
لعنة الرغبة	رواية	تغريد إحسان
حياة خفيفة على جناح فراشة٢	تلوين للكبار	آلاء زهير
Assassins	تلوين للكبار	عمرو الحمزاوي


دار
الفؤاد
للنشر والتوزيع